www.ibtesama.com/vb

قلبان فى عاصفة

رافائيل ساباتيني



** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

روايات الهلال

روائع القصص العالمى

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٦٢ * فبراير ١٩٥٤ * جمادى الثانية ١٣٧٣

No. 62 * February 1954

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما ـ فى الأقطار العربيـة عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا سوريا ـ فى لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا ـ فى الأردن ٩٠ فلسا ـ فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٧٠ قرشا صاغا ـ فى سوريا ولبنان (بالطائرة بواسطة شركة فرج الله فى بيروت) ٩٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا ـ فى المملكة العربيـة السعودية والعراق والأردن ٩٠ قرشا صاغا ـ فى الامريكتين ٤ ١/٢ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا أو ٢٥ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا أو بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات ـ **فى خارج القطر المصرى** : بموجب حوالة مصرفية على أحد بنوك القاهرة أو حوالة نقدية (Money Order) أو الى أحد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول أذونات البريد أو أوراق البنكنوت

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك ـ القاهرة
المكاتبات : روايات الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

www.ibtesama.com/vb Exclusive

روايات الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

www.ibtesama.com/vb Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

قلبان فى عاصفة

تأليف

الكاتب الأشهر

رفائيل سباتينى

ترجمة

الدكتور محمد أبو طائلة

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

حقوق الطبع محفوظة لدار الهلال

www.ibtesama.com/vb Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

شخصيات الرواية

الامبراطور شارل الخامس : أو شارلكان ملك اسبانيا ، الخصم الأكبر للسلطان التركى سليمان القانونى

بروسبيرو ادورنو : ضابط بحرى شاب ، بارع فى فنون الحرب ، وهو فى الوقت نفسه شاعر مجيد

أنطونيو أدورنو : والد بروسبيرو .. كان رئيس الدولة فى جمهورية جنوا ، ثم خلع من منصبه واضطر الى الفرار

مادونا أوريليا : قرينة أنطونيو أدورنو ، سيدة أرستقراطية متكبرة ، لا تفكر الا فى الأخذ بثأر زوجها وحث ولدها على ذلك

أندريا دوريا : اميرال أسطول جنوا وصاحب السلطة العليا الحقيقى فى تلك الجمهورية ، خدم تحت راية فرنسا ، ثم تحت راية الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا ، وصار القائد الأعلى لقواته البحرية فى البحر الأبيض المتوسط

ياقوت : قائد بحرى شجاع ، كان قرصانا فى أول أمره ، ثم عمل فى البحرية التركية ، وصار الساعد الأيمن للقائد المشهور خير الدين باربروسا

مادونا بيرينا : قرينة دوريا .. طيبة القلب تتبع الحق حين يتضح أمامها

ماريا جيوفانا (جيانا) مونالدى : ابنة أخى مادونا بيرتيا ، وحبيبة بروسبيرو وخطيبته . تبناها الأميرال دوريا حين تزوج عمتها فاتخذت لقبه

سنان : كان فى الأصل أحد الأغوات ، ثم صار من القواد البحريين تحت امرة ياقوت

جيانتينو دوريا : ابن أخى الأميرال وهو ضابط بحرى تحت رياسته ، وشاب ذو رعونة

فيليبينو دوريا : ابن أخ آخر للأميرال ، وهو أيضا ضابط بحرى ذو مكر ودهاء

الكاردينال أدورنو : عم بروسبيرو الذى أحله من قسمه واقنعه بترك فكرة الانتقام

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ابن يحارب أباه !

كانت جنوا فى القرن السادس عشر ، احدى الجمهوريات الايطالية المستقلة ، وكان يتنازعها فى ذلك الحين قوتان مسيطرتان على العالم هما : قوة فرنسا وعلى رأسها الملك فرانسوا الأول ، وحليفه البابا وجمهورية البندقية ، والثانية قوة اسبانيا وألمانيا وعلى رأسهما الأمبراطور شارل الخامس

وفى الوقت الذى بدأت فيه حوادث هذه القصة ، كان رئيس جمهورية جنوا الشيخ « انطونيو ادورنو » رأس أسرة ادورنو من كبريات الأسر فى المدينة . وكان ينازعها المجد والسلطة أسرة دوريا التى كان كبيرها وقتئذ الأميرال « اندريا دوريا » قائد الأسطول

وقد شاءت المنافسة بين الأسرتين ، أن يكون رأس كل منهما فى معسكر غير معسكر الآخر : فبينما كان الرئيس أنطونيو أدورنو ، هو وحكومته، خاضعين للأسبان ، كان الأميرال اندريا قائدا لأسطول فرنسا الذى ضرب الحصار على جنوا ليخلصها من حكم الأسبان، ويخضعها لحكم الفرنسيين

ولما كان الشاب بروسبيرو ادورنو ابن الرئيس انطونيو قائدا لأسطول البابا حليف فرنسا ، فقد انضم بقواته البحرية الى الأسطول الفرنسى الذى يحاصر المدينة ، وهكذا صار بحكم مركزه ، عدوا لأبيه الذى كان يدافع مع الأسبان عن دولته الصغيرة !

وقد كان بروسبيرو ادورنو يبرر موقفه من أبيــه بأن تلك الحملة البحرية التى يشترك فيها انما تستهدف تحرير جنوا من ربقة الاحتلال الأسبانى ، ومن سيطرة الحاكم المعين من قبل الأمبراطور ، لينازع أباه السلطان وهو الرئيس الشرعى للجمهورية

وكان بروسبيرو ادورنو شابا وسيما فى الثلاثين من عمره ، جمع بين خيال الشاعر المبدع ، وشجاعة القائد البطل ، وقد ذاعت شهرته كشاعر بملحمة بحرية كان الشباب يحفظونها عن ظهر قلب ، كما اشتهر ببطولته فى الحروب البحرية ، وبخاصة حين أنقذ أسطول اندريا دوريا قبل أربع سنين ، من هزيمة منكرة كاد يمنى بها على يد بطل البحار « ياقوت » ، الأناضولى ، المعروف باسم « سيف الاسلام »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

والآن ألقى الأسطول الفرنسى ، تحت قيادة اندريا دوريا ، مرساه فى نقطة هادئة من البحر لمحاصرة مدينة جنوا . وفى مؤخرة هذا الأسطول وقفت السفن البابوية السبع تحت امرة بروسبيرو ادورنو الذى جلس فى قمرته ينظر بعينين حالمتين ، وامتد بصره على طول سفينته وقد صفت على جانبيها مقاعد الأسرى ، ويدا كل منهم على مجداف ، وسار بين الصفين اثنان من الحراس ، تأبط كل منهما سوطا طويلا من الجلد. وكان عدد الأسرى وقتئذ ثلثمائة يجدفون فى سلاسلهم وأغلالهم ، وهم خليط من المغاربة والعرب والأتراك والزنوج ، ومنهم أيضا مسيحيون غرباء ، وقد ربط البؤس والشقاء بينهم جميعا

ولم يكن الكابتن بروسبيرو يرى من مجلسه غير رؤوس الأسرى الحليقة وأكتافهم العارية ، ثم تنبه فجأة على صوت بوق ، وجاءه ضابط يقول : « ان سفينة الأميرال قادمة ياسيدى الكابتن »

فوقف بروسبيرو على الفور وقد تحولت هيئته من رجل فكر وشعر وخيال الى رجل حزم وعزم ونضال ، ولبث ينتظر عند مؤخرة السفينة حتى جاءت سفينة ذات اثنى عشر مجدافا رافعة علما أبيض اللون تتوسطه زهرة الزنبق المذهبة ، ثم وقفت بجانب سفينته ، وصعد من مؤخرتها ثلاثة رجال ، فتسلقوا سلما بلغوا به ظهر السفينة الأخرى

وكان اثنان منهم شابين ضخمى الجسم ، وأحدهما أطول قامة من صاحبه . أما الثالث فكان شيخا أشيب الشعر ، متوسط القامة ، أدنى الى النحافة . وكان هؤلاء الثلاثة هم : الأميرال « اندريا دوريا » ، وابنا أخيه الضابطان البحريان ، « جيانتينو » و « فلبينو » . ولم تكن وسامة الوجه من مزايا أسرة دوريا ، غير ان الأميرال اندريا دوريا كان رجلا بادى الوقار ، مرفوع الرأس ، حاد الأنف ، تجلل وجهه لحية طويلة شقراء ، وقد بلغ الستين من عمره

أما جيانتينو الذى سار فى اثره على ظهر السفينة ، فكان عملاقا ، وجهه أقرب الى وجوه النساء مع قبح فيه ، ضيق العينين مع خبث تنمان عنه ، صغير الفم ، بادى النزق والطيش ، وقد عرفه الناس بأنه ابن أخى الأميرال اندريا دوريا ، ولكن الواقع انه من بنى عمومته ، وكان أبوه نساج حرير رقيق الحال ، ولعله هو نفسه كان سيحترف صناعة أبيه لولا أن الأميرال قريبه لم يكن له ولد ، فضمه اليه وتولى تربيته

وكان الشابان فى نحو الثلاثين من العمر ، كلاهما أسود الشعر ، قمحى اللون ، وفيما عدا ذلك لا شبه بينهما . فقد كان فلبينو ، على خلاف جيانتينو ، يكره الثياب الزاهية ، وكان رشيقا ، ناشطا ، سريع الحركة، وليس سريع الغضب كالآخر ، وكانت ذراعه اليمنى مربوطة بقماش أسود

وقبل أن يبلغ ثلاثتهم باب القمرة التى بها بروسبيرو ، قال له فلبينو :

ــ ان ثقتنا بأبيك قد كلفتنا كثيرا فى الليلة الماضية ، فقد فقدنا نحو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أربعمائة رجل . ولعلك لا تعلم ان ابن عمنا ايتورى مات من أثر الجروح التى أصابته . وأنا قد عدت بهذا التذكار (وأشار الى ذراعه المعلقة) من بورتوفينو . واذا كنت قد عدت حيا ، فلا يرجع الفضل فى ذلك اليك !

وتبعه ابن عمه توا فى هذا الهجوم الخاطف على بروسبيرو فقال :

ـ الواقع ان ثقتنا وضعت فى غير موضعها . فقد نصب لنا شرك . ونحن مدينون للرئيس انطونيو ، بهذه الخيانة الدنيئة !

وكان بروسبيرو يحملق فيهما وهما يقولان ذلك وقد عقدت الدهشة لسانه . ولكنه استمسك بالحلم وقال لهما :

ـ انى لا أفهم كلامكما ، بل لست أفهم مسلككما هذا . . . أتعنيان ان أبى هو المسئول عن ذلك التهور الذى ظهر فى محاولة النزول الى البر ؟

فصاح فلبينو : « أتسمى ذلك تهورا ؟ . . رباه ! »

ـ انى أحكم على الأمر بما سمعته الليلة الماضية . ان كون الجنود قد ردت توا بتلك القوة ، لايدل على ان الحيطة الواجبة قد اتخذت فى تلك المحاولة . وما كان يصح قط افتراض ان الأسبان غافلون فى تلك النقطة المعرضة للهجوم !

فقال له جيانتينو : « ما أدراك انهم كانوا من الأسبان ؟ . . ان الأسبان لم يكن لهم شأن فيما جرى ! »

ـ كيف لم يكن لهم شأن ؟ . . لقد قلت أنت الليلة الماضية ان قوتك التى أردت بها مفاجأة العدو قوبلت بقوات امبراطورية تفوقها عددا ! . .

وأخيرا تدخل اندريا دوريا ، فقال بصوته الهادىء ووقاره الظاهر :

ـ اننا اليوم نعرف أكثر مما كنا نعرفه قبلا يا بروسبيرو . . ولدينا أسرى ليسوا من الأسبان ، بل هم من أبناء جنوا . . ومن الجنود . . ونحن نعرف ان أباك نفسه هو الذى كان يقودهم فى القتال !

فبانت على بروسبيرو الدهشة وقال : « أبى كان يقود قوة حربية ضدكم ؟ . . انى لا أصدق ذلك ، فانه يعرف غايتنا ! »

فقال جيانتينو : « ليس يكفى كونه يعرف غايتنا لكى يقوم بتأييدنا ! لقد كنا نحسب . . . »

فقطع بروسبيروكلامه قائلا فى عنف : «ان آلارتياب فيه ، اهانة له !»

وهنا تدخل اندريا دوريا مرة أخرى محاولا التوفيق بينالطرفين وقال مخاطبا بروسبيرو :

ـ يجب أن تقابل غضبهما بالحلم ، فان مقتل ايتورى قد أحزننا . . ولا ينبغى لنا أن ننسى أن « أباك » انما تسلم تاج الدوقية من الأمبراطور ولعله يخشى ان ما جاء من الأمبراطور قد يذهب بذهابه !

فرد بروسبيرو بحماسة : « لماذا يخشى ذلك ؟ . . انه ما كان ليختار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

رئيسا لولا تأييد أهل جنوا . وما دام مالكا تأييدهم ، فلا يمكن خلعه . ان النبأ الذى نمى اليكم هو لاشك نبأ كاذب ! »

فأجاب فليبينو : « ان هذا النبأ لايعتوره شك . ولا ريب ان أباك يعلم ان سيزار فريجوزو هو قائد الحملة الفرنسية فى البر . ولم ينس انه غلب أحد آل فريجوزو على عرش الدوقية . فهو يخاف على مركزه اذا انتصر الفرنسيون ! »

فهز بروسبيرو رأسه انكارا . وقبل أن يرد قال جيانتينو بعنف : « ان هذه الخلافات بين الأحزاب كادت تقضى على البلاد .. أعنى تلك الخلافات القديمة بين أسر ادورنى وفريجوزو وسبينولى وفيشى وغيرهم .. ان كل طائفة منهم انما تبغى الوصول الى الحكم . هذا هو الكابوس المخيم على الوطن منذ أجيال وأجيال . وهو الذى فت فى عضد جنوا بعد أن كانت أقوى من البندقية . لقد استنزفت المنازعات دمها حتى وقعت تحت نير الحكم الأجنبى . ونحن الآن هنا لكى نضع حدا للخلافات الداخلية وللسيطرة الأجنبية فى آن واحد . وانما حملنا السلاح لكى نعيد الى جنوا استقلالها التام .. اننا هنا لكى ... »

فقاطعه بروسبيرو قائلا : « وفر على نفسك الكلام وادخره للسوقة . فلا حاجة بنا هنا لخطاب حماسى !.. انى أعرف لماذا نحاصر جنوا الآن . ولولا ذلك لما كنت معكم ! »

فقال الشيخ دوريا بهدوء : « ان فى ذلك وحده ضمانا كافيا لأبيك ، حتى لو نسى أنى ابن جنوا من قمة رأسى الى أخمص قدمى .. وانى لا أستهدف سوى صالح بلادى قبل كل شىء ! »

فقال بروسبيرو : « ان الخطابات التى أرسلتها اليه فيها التوكيد الكافى بأننا لا نخدم التحالف الا لكى نخدم جنوا من طريقه . وقد ذكرت له فيها تعهد ملك فرنسا لك بأن يعاد الى جنوا استقلالها التام »

وسكت لحظة ثم قال : « لاشك ان خطاباتى لم تصل الى أبى ! »

فقال اندريا دوريا : « لقد خطر ببالى هذا الاحتمال »

وأراد ابنا أخويه أن يعترضا ، لكنه أسكتهما واستطرد قائلا : « ان فى هذا تفسيرا لمسلكه .. ولعل رسولك الذى كان يحمل الخطابات اليه وقع أسيرا فى أيدى الأسبان .. والآن ينبغى لك أن تستوثق من ذلك بالكتابة مرة أخرى الى أبيك ، وبذا تحقن الدماء وتفتح أبواب جنوا أمامنا . وأحسب ان لدى الرئيس من القوة العسكرية المؤلفة من أبناء جنوا ما يمكنه من قهر الحامية الأسبانية »

فسأله بروسبيرو : « كيف يصل خطابى اليه ؟ »

فجلس القائد البحرى ووضع احدى يديه على فخذه ، بينما أخذ يمسح لحيته بيده الأخرى ، ثم قال : « يمكنك أن ترسل اليه خطابك علنا تحت علم هدنة ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فجعل بروسبيرو يمشي فى الحجرة مفكرا ثم قال : « قد يستولى عليه الأسبان . . وفى هذه الحالة يكون خطرا على أبى ! »

وهنا جاء ضابط برتبة ملازم تحت امرة بروسبير ، وقال له بعد أن أدى التحية العسكرية : « جاء صياد من الخليج يقول انه يحمل خطابات اليك ياسيدى . وهو لايريد أن يسلمها الا اليك شخصيا ! »

فبدت الدهشة على الجميع وقال جيانتينو : « اذن أنت على صلة بالمدينة بينما تدعى . . . »

ولكن عمه أسكته. ونظر بروسبيرو الى جيانتينو نظرة صارمة ثم قال للضابط : « أحضر الى ذلك الرسول »

وبعد لحظة جاء برفقة الضابط صياد شاب حافى القدمين وقف يردد بصره بين الحاضرين ثم قال : « أريد السيد بروســـبيرو أدورنو » . فاقترب منه هذا قائلا : « ها أنذا » . وعندئذ أخرج الشاب الصياد من جيب قميصـــه رزمة من الورق مختومة وســـلمها اليه . ونظر بروسبيرو الى الكتابة التى على الغلاف وفض الختم بأصابع مرتعشة . ثم جعل يقرأ وهو مقطب الجبين والآخرون لا يحيدون بأنظارهم عنه . ثم قدم الخطاب فى صمت الى القائد أندريا وقال للضابط مشيرا الى الصياد : « دعه ينتظر تحت ! »

ولما قرأ اندريا دوريا الخطاب تنهد بارتياح وقال : « ان هذا يدل على انك كنت على صواب فى افتراضك . فان خطاباتك السابقة لم تصل الى أبيك »

والتفت الى ابنى أخويه وقال : « كما يدل على انكما كنتما على خطأ ! »

فقال بروسبيرو : « يحسن أن يقرآ الخطاب بنفسيهما ! »

فسلم القائد الخطاب الى جيانتينو قائلا : « ان هذا جدير بأن يعلمكما الا تسيئا الظن على غير أساس . . لقد سرنى أن أعلم ان مسلك الرئيس انما نشأ من عدم معرفته غايتنا . والآن متى أخبرته بها يا بروسبيرو — من طريق هذا الرسول — فقد حق لنا أن نأمل أن تكف جنوا عن مقاومتنا » . ثم ساد الصمت بينما جيانتينو وفلبينو يقرآن خطاب الرئيس انطونيو ادورنو ، وفيه يقول :

« علمت مع الأسى من أسرى قبض عليهم أمس فى بورتوفينو أنك تقود القوة البحرية البابوية التى هى جزء من الأسطول الذى يحاصر جنوا . ولولا توكيد هذا النبأ بما لايحتمل الشك ، لما صدقت أنك ترفع السلاح ضد وطنك وضد أبيك . وما أحسب ان الأمر يحتمل أى تفسير لمسلكك هذا ، ولكن مع هذا أطلب منك تفسيرا ، اللهم الا اذا كنت قد غيرت ما بنفسك وصرت انسانا غير ولدى الذى أعرفه !. . لقد عهدت بخطابى هذا الى صياد أمين ليحمله اليك ، ولا شك انه سيسمح له بذلك . فاذا كان لديك أى جواب فأرسله معه ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ولما أتم الشابان قراءة الخطاب قال فليبينو لعمه : « انى أشاركك فى أملك ياسيدى ، ولكنى لا أشاركك فى ثقتك .. ان أسلوب انطونيو فى خطابه يبدو لى أسلوب عداء ! »

وقال جيانتينو : « هذا ما يبدو لى أنا أيضا ! » . ثم التفت الى بروسبيرو وقال له : « اكتب الى صاحب الفخامة انه اذا قاومنا فانما يضر بنفسه أبلغ الضرر !.. فان قوات فرنسا لابد أن تنتصر فى النهاية وعندئذ يسأل أنطونيو عن سفك الدماء فى غير ما داع الى ذلك ! »

فرمقه بروسبيرو بنظرة صارمة وقال له : « اذا كانت لديك رسائل من هذا القبيل لوالدى فيمكنك أن تكتبها بيدك . ولكنى لا أنصح لك بذلك ، فان أحداً من آل ادورنو لا يخضـــع للوعيـــد . وجدير بك يا جيانتينو أن تذكر ذلك أيضا حين تخاطبنى .. واذا كان احد قد قال لك ان صبرى لا حد له فقد كذبك القول ! »

وكاد ذلك يكون تمهيداً لشجار عنيف بينهما لولا ان الأميرال سارع الى التدخل وحال دون أى عدوان بالقول من جانب ابنى أخويه فقال لبروسبيرو : « حقا يا بروسبيرو لقد كنت صبورا حتى الآن ، وسأجعل هذين السليطى اللسان يفهمان ذلك ! »

ونهض على اثر ذلك وهو يقول : « لا داعى لازعاجك الآن بعد أن وضحت الأمور فان بقاءنا هنا انما يؤخر كتابتك الخطاب الى صاحب الفخامة ! » . ثم انصرف وهو يسوق الشابين المتهورين امامه قبل أن يأتيا بخطأ جديد !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فظائع الاحتلال

ان وطنية صاحب الفخامة الرئيس انطونيو ادورنو كانت من السمو بحيث تعلو على محن تلك الأيام

وكانت جنوا وقتئذ تعانى المجاعة برغم مظهرها الفاخر ، ولم يكن ثمة كبير خطر عليها من الجيوش التى سيرها اليها المارشال دى لوتريك لكى تغزوها من البر ، فقد كان جناحاها ومؤخرتها فى حماية الحواجز الطبيعية العالية التى تحنو عليها . واذا كان يمكن مهاجمتها من طريق المنطقة الساحلية الضيقة التى فى سفح تلك الجبال ، فقد كان من اليسير على حاميتها رد أى هجوم يشن هناك من الشرق أو الغرب

ولكن تلك القوات التى عجزت عن مهاجمتها كانت قادرة على قطع سبيل المؤونة اليها . وقد مكثت مشارف البحر عشرة أيام قبل مجىء أسطول دوريا الى الخليج ، وهى تحت حراسة سبع سفن حربيــة فرنسية انضمت بعدئذ الى ذلك الأسطول ، وهكذا بدأت جنوا تقاسى الجوع ، وهو لا يساعد قط على البطولة . ومن شأن الأهالى الجائعين أن يثوروا ضد أية حكومة وأن ينسبوا اليها الذنب فى المجاعة التى يعانونها . وقد رأى آل فريجوزو ان الفرصة سنحت لهم للتغلب على آل ادورنو منافسيهم القدماء وأخذ مقاليد الحكم منهم !

ولما كان الشعب أميل الى تصديق الوعود المعسولة ، وكان آل فريجوزو يكيلونها له ويمنونه بعصر ذهبى يؤيده ملك فرنسا وفيه تزول المجاعة ويعم الرخاء ، فقد ارتفعت صيحات الاستسلام من جميع طبقات الشعب وطوائفه ، وصارت شوارع جنوا الضيقة المنحدرة تزخر بالجموع الثائرة ضد انطونيو لأنه رأى ان الشيطان الذى يعرفه ، أى الأمبراطور ، قد يكون خيرا من الشيطان الذى لايعرفه أى ملك فرنسا !.. ولم تجد محاولاته اقناع تلك الجموع الثائرة بأن واجبه يقتضيه مواصلة الدفاع عن جنوا ضد القوات المتحالفة لفرنسا والبابا والبندقية

واذا كان الرئيس انطونيو قد استطاع أن يثبت فى بورتوفينو قدرته على مواجهة الخطر الخارجى فى انتظار النجدة من انطونيو دى ليفيا حاكم ميلانو من قبل الأمبراطور ، فان الخطر الداخلى كان أشد هولا وأعصى على المقاومة والعلاج . وهكذا وجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر ، فاما أن يوجه الفرقة الأسبانية التى تحت امرته لاخضاع الثوار ، واما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أن يسلم المدينة للفرنسيين ، وقد يعاملون أهلها كما عامل الجنود الألمانيون المأجورون أهالى روما من قبل . وفيما هو فى هذا المأزق الحرج جاءه خطاب بروسبيرو وفيه المخرج من ذلك المأزق !

وهناك فى احدى غرف القصر الأحمر المنيع المشرف على المدينة جلس أنطونيو وفى يده خطاب ابنه . ومع أنه كان ملتفعا بعباءة شعر بقشعريرة ، فعللها بكثرة الدم الذى نزف من جرحه ، ومضت دقائق وهو مطرق يفكر ، وعلى رأسه الأصلع قلنسوة مسطحة تدلت على جبينه فأضفت على خديه ظلا قاتما ! .. فى حين وقفت الى جانب المنضدة قرينته المادونا أوريليا بقامتها الطويلة المعتدلة ووجهها المشرق الوسيم ، والى جوارها « أجوستينو سبينولا » الضابط الارستقراطى الكهل ، ثم الأمير سيبيونى .. الأخ الأصغر الوسيم للكونت دى لافانيا الذى كان أحد أمراء الأمبراطورية ولا يعلو عليه فى نسبه أى أمير آخر فى جنوا

وأخيرا أخذ أنطونيوأدورنو يعيد تلاوة خطاب ولده :

« لا تحسبن انى كنت أرضى لنفسى أن أكون حيث أنا الآن لولا أن القضية التى أخدمها هى قضية جنوا قبل أن تكون قضية الحلفاء . اننا لم نأت الى هنا لنعاون الفرنسيين بل جئنا ليعاونونا . ولم نأت للدفاع عن مصالح فرنسا ولكن للدفاع عن استقلال جنوا .. ومن أجل ذلك فقط لم أتردد لحظة فى تولى قيادة السفن البابوية المشتركة فى هذه المهمة ، وأنا موقن أنك متى علمت غايتنا الحقيقية فستمد الينا يدك لانقاذ وطننا العزيز ! »

ورفع أنطونيو عينيه الكليلتين عن الخطاب ، وأخذ يردد بصره بين الحاضرين صامتا ، وكان صبر قرينته قد نفد فقالت له : « حسنا !.. »

فدفع بالخطاب اليها عبر المنضدة قائلا : « اقرئى بنفسك ! »

فالتقطت الخطاب وأخذت تتلوه بصوت عال ، حتى اذا انتهت من قراءته قالت : « الحمد لله !.. هذا يضع حدا لشكوكنا يا انطونيو ! »

فقال لها : « ولكن أنصدقه ؟ »

فقال سيبيونى : « كيف اذن نفسر اشتراك بروسبيرو فى هذه الحملة البحرية ؟ »

فقالت قرينة أنطونيو : « أتشك فى ولدك الذى هو من صلبك ؟ »

فقال أنطونيو : « لست أرتاب فى اخلاصه مطلقا ، ولكنى أرتاب فى اخلاص الآخرين الذين معه ! »

فقالت قرينته : « ان بروسبيرو لا يتسرع مطلقا !.. انه يشبهنى .. فهو أقرب الى أهالى فلورنس منه الى أهالى جنوا ... وما دام واثقا مما ذكره فلابد أن لديه أسبابا تدعو الى هذه الثقة ! »

فقال انطونيو : « أيكون واثقا من أن الفرنسيين ليست لهم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مطامع ؟!٠٠ من ذا الذى يصدق ذلك ؟ »

فقالت له : « ماذا تجنيه من ســـوء الظن ؟٠٠ ألا تقتنع بما قاله بروسبيرو من أنك اذ تدافع عن المدينـــة حيال أســـطول دوريا فانما تعارض مصالح بلدك ؟ »

فقال : « وهل أنا بحاجة الى اقناع ؟٠٠ أعانني الله !٠٠انى لفى حيرة من أمرى ٠٠ والشىء الوحيد الواضح أمامى هو أنى أحمل تاج الدوقية من قبل الامبراطور ٠٠ أفليس على اذن واجب نحوه ؟ »

وكأنما وجه السؤال اليهم جميعا ٠٠ ولكن زوجته المادونا اوريليا تولت الاجابة قائلة :

ــ أليس واجبـــك الاول نحو وطنك جنوا ؟ ٠٠ انك اذ تقف هكذا حائرا بين قضية الامبراطور وقضية شعبك ، انما تخدم صـــالح آل فريجوزو ٠ فلا تخدعن نفسك عن ذلك ٠ إستمع الى ٠ وينبغى لك بعد عشرتنا الطويلة أن تعلم أنى ملهمة !

فنظر أنطونيو الى سبينولا متسائلا ، وعندئذ قال هذا وهو يرفع كتفيه وحاجبيه : « يبدو لى يا صاحب الفخامة أن ما قاله بروسبيرو فى خطابه يغير الموقف تغييرا تاما ٠٠ انك اذا خيرت بين الامبراطور وبين ملك فرنسا ، فلا شك أن واجبك يقتضيك أن تخدم الاول ٠٠ ولكنك اذا خيرت بينهما كليهما وبين جنوا كما يقول بروسبيرو ، فلا مراء فى أن واجبك هو أن تخدم جنوا ٠٠ هذه وجهة نظرى ٠ ولكن اذا رأيت فخامتك غير هذا الرأى وعزمت على المقاومة فان عليك أن تخمد الثورة الداخلية »

ففكر أنطونيـــو قليـــلا وهو مقطب الجبين ثم قال : « صـــــدقت يا اجوستينو !٠ وأحسب أن وجود بروسبيرو أمام جنوا ، وتوكيـــده ما قاله فى خطابه ، ، من شأنهما أن يؤيدا فكرة التسليم ! »

ثم أردف وهو يضغط شفتيه : « بشرط أن يكون اندريا دوريا أهلا للثقة ! »

فسأله أنطونيو : « اذا أسأت به الظن فعلى أى أساس ؟ »

فأجاب سيبونى قائلا :

ــ على أساس مطامعه !٠٠على أساس طموحه لان يكون أمير جنوا٠٠!

فهز أنطونيو رأسه وقال : «اذا بدا هذا الخطر أمكننا أن نواجهه !»

وسكت لحظة ثم قال : « لا ينبغى لى أن أضحى بالاهالى ، وأدع دماء أبناء جنوا تجرى فى الشوارع لا لشىء سوى سوء الظن ٠٠٠ ان هذا على الاقل شىء واضح ! »

فقال سبينولا : « فى هذه الحالة لا يعوق قرارك شىء »

وأضاف سيبيونى : « مع ملاحظة أن ثقة بروسبيرو لا ضـمان لها سوى كلمة اندريا دوريا ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تسليم المدينة

وقد دل ذلك الحوار على ميل الرئيس انطونيو الى التسليم !

وفي مساء ذلك اليوم نفسه أرسل وفدين : أحدهما الى دوريا في سفينة القيادة ، والآخر الى «سيزار فريجوزو» لعرض تسليم المدينة. وكان الشرط الوحيد ألا يعاقب أى شخص من أهالي جنوا ، وأن يسمح لجيوش الامبراطور بالخروج من المدينة بأسلحتهم ، وقد قبل هـذا الشرط • وخرج دون سانشو لوبيز بفرقته من المدينـة في باكورة الصباح • وكان هذا القائد الاسباني قد عارض فكرة التسليم بشدة، محتجا بأن دون انطونيو دى ليفيا لابد أن يأتى بالنجدة من ميلانو • ولكن الرئيس انطونيو ثبت على عزمه اذ كان قد آمن بأنه انما يخدم بذلك مصلحة جنوا •• !

ولم يكد الاسبان يخرجون من المدينة حتى دخل فريجوزو على رأس ثلاثمائة من جنوده الفرنسيين ، فاستقبلهم الاهالي استقبال من جاءوا لتحريرهم• أما بقية جيش فريجوزو فظلت معسكرة في « فلترى »••• اذ كان من المحال على المدينة الجائعة أن تأوى كل ذلك الجيش الضخم !

وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات، تقدمت السفن الحربية الى الشاطىء ، وأنزل دوريا خمسمائة من جنوده ، كما أنزل بروسبيرو ثلاثمائة من جنود البابا • وكان الغرض من انزال هؤلاء هو اتمام المراسم ، لكى يقفوا صفا ويضفوا على الحادث صبغة عسكرية • ولكن قبل أن ينزل آخر رجل منهم الى البر ، بدا أن لهم مهمة أخرى يؤدونها !

ولعل سيزار فريجوزو كان يحسب أن جنوده الفرنسيين قد جاءوا الى جنوا ليحرروها من الظلم • غير أن أولئك الجنود كان لهم رأى آخر ••• فقد رأوا أن جنوا مدينة غزوها ومن حقهم أن يقوموا فيها بالنهب والسلب على هذا الاساس ، وسرعان ما وجدوا في جماهير الشـعب الجائع حلفاء يعاونونهم على ذلك بدل أن يقاوموهم ، فما كادوا يبدأون أعمال النهب حتى شاركهم فيها مئات من الغوغاء • وكانوا في البداية يطلبون الطعام في بيوت التجار الاغنياء وقصور النبلاء ، ثم اندفعوا في تيار الجرأة والاستهتار فلم يقنعوا بسد جوعهم وراحوا ينهبون كل ما تقع عليه أيديهم ، ويخربون ما شاءت لهم رغبة التخريب الكامنة في نفوسهم !• وهكذا صارت المدينة كلها ميدانا للسلب والنهب ، وزاد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فى شناعة المأساة أن أبناءها أنفسهم شاركوا الجنود الاجانب فى ذلك!

واشتد غضب بروسبيرو ازاء هذه المفاجأة المؤلمة ، ولم يكن الاميرال دوريا أقل غضبا وتألما منه ، فقال له :

ـ لا محل للكلام الآن يا بروسبيرو ... ان الوقت وقت العمل.. وهذا الشر يجب وقفه توا !

ثم أمر ضابطا آخر قصير القامة بادن الجسم هو سيزار فريجوزو ، فرمقه بنظرة غضب وقال له : « أى نظام هذا الذى تقع فى ظله هذه الفظائع ؟ » . فقال فريجوزو متلعثما : « لست أنا المسئول عن ذلك النظام ! »

فسأله الاميرال : « من الملوم اذن ؟.. من الذى يقود هؤلاء الغوغاء الفرنسيين ؟ »

فأجاب : « ليس فى استطاعة رجل واحد أن يتحكم فى ثلاثمائة ! »

فقال الاميرال محتدا : « بل يستطيع أن يتحكم فى ثلاثة آلاف ان كان كفؤا للقيادة ! »

فغمغم فريجوزو بكلمات متقطعة ثم قال : «ان الملوم حقا هو الرئيس أنطونيو الاحمق ، فهو الذى قضى على الناس بالجوع فى سبيل خنوعه للامبراطور دون أن يفكر فى صالح بلاده ! »

وسارع فلبينو الى تأييده اذ قال : « حقا ان سيزار قد وضع اصبعه على موضع الداء !.. ان الذنب فى هذا ذنب أنطونيو أدورنو وحده !»

وجرأ ذلك فريجوزو فقال : « ان أولئك الجائعين التعساء ما كان يمكن صدهم بعد أن خرج الاسبان من المدينة !. ان مقاومة ادورنو الفاشلة قد دفعتهم الى اليأس .. ولذلك راحوا يعاونون أنفسهم بدل أن يعاونوا جنوا على حماية ممتلكاتها .. ولو أن ... »

فقطع الاميرالاى دوريا كلامه قائلا : « هل هذا وقت الكلام ؟. يجب أن يعود النظام أولا . أما الكلام فيأتى بعد ذلك ! »

ومال بروسبيرو قليلا ولمس ذراع فريجوزو وقال له : « سألقنهم درسا يردعهم يا سيد سيزار ... وعندى أيضا كلمة لك يا فلبنيو !»

ولكن دوريا حال دون النقاش بينهم وقال : « هيا تحركوا ودعوا الجدل الآن ! »

ثم التفت الى بروسبير وقال له :

ـ انك تعرف ما ينبغى عمله .. فهيا امض فى سبيلك . وعليك الناحية الشرقية .. أما أنا فعلى الجهة الغربية . وعليك بالشدة !

ولم يكن بروسبيرو بحاجة الى هذه النصيحة فقد أمر أحد ضباطه بانزال مائتى جندى آخرين الى البر . ولما كان القائمون بالسلب والنهب يسيرون جماعات فقد قسم قواته الى جماعات كذلك وجعل على رأس كل جماعة منها ضابطا من ضباطه ، وتولى بنفسه قيادة جماعة منها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وسرعان ما وجد بروسبيرو جماعة من الجنود الفرنسيين وغوغاء المدينة آخذين فى نهب دار لتاجر موسر على بعد مائة متر تقريبا من رصيف الميناء • وقد باغتهم بروسبيرو وهم يعذبون ذلك التاجر ليكرهوه على ذكر المكان الذى خبأ فيه الذهب •• فأنقذه من أيديهم وقبض على زعيمهم وشنقه على الفور ، ثم ترك جثته معلقة فوق باب الدار ، وساق بقية الناهبين أمامه بأسنة الحراب ليكونوا عبرة لغيرهم!

وعلى غرار هذه البداية الحازمة واصل بروسبيرو عمله لانقاذ المدينة• وقد عثر في قبو دار لأحد النبلاء على جماعة من الغوغاء والجنود ينهبون الخمر بعد أن حطموا جانبا من ذلك القبو ، فدفعته عدالته الشاعرية الى أن يغمس رأس زعيم تلك الجماعة في وعاء النبيذ ثم يخرجه ست مرات متوالية حتي يرتوى تماما !•• غير أنه لم يضيع طويل وقت فى أمثال هذه الفكاهة ، بل مضي فى سبيله قدما دون أن يقف لحظة ليسمع لعنات الذين كسر عظامهم ، أو شكر الذين أنقذ حياتهم ومتاعهم !

وسار شرقا نحو مرتفعات كارينيانو، حتى وصل ظهرا الى بقعة صغيرة أمام كنيسة قامت أمامها الاشجار • وكانت بقعة هادئة سارة تغمرها أشعة الشمس وتفوح فيها رائحة الازهار • فوقف هناك لحظة ليجمع رجاله اذ كان خمسة منهم قد أصيبوا بجراح فتخلفوا عن الباقين !

وانه لكذلك اذا به يسمع صوت ضحك ومرح من زقاق الى يسار الكنيسة يتدرج فى الارتفاع • وأنصت بروسبيرو فطرق أذنيه صوت أخشاب تتكسر على أثر ضربات قوية ، ثم علا صوت ضحك ثم انخفض، وتلاه صراخ امرأة !

وعندئذ قفز بروسبيرو صاعدا الدرجات التى بذلك الزقاق ورجاله وراءه ، وكان على جانبي الزقاق أسوار عالية يتوسطها باب كان مفتوحا، ومنه كانت تسمع صرخات المرأة عالية متوالية وقد اختلطت بهاضحكات خشنة !

ووقف بروسبيرو لحظة عند عتبة الدار ليرى ما هنالك ، فلمح حديقة فسيحة تتوسطها بركة، ووراءها واجهة قصر من الرخام الابيض والاسود قد قام على أعمدة بديعة المنظر • على أنه لم يمعن النظر فى ذلك كله وانما استرعى التفاته شاب في ثياب الخدم ممدد الجسم على أرض الحديقة وقد بسط ذراعيه ، وعلى مقربة منه جلس شيخ أسند كوعيه الى ركبتيه ورأسه الى يديه والدم يسيل من أصابعه • ثم رأى امرأة تصرخ هاربة وقد قطع الجزء الاعلى من ثيابها حتى وسطها ، وكان يتبعها بين أشجار الحديقة جنديان فرنسيان وهما يقهقهان قهقهة كريهة ، ووقفت الى الجانب الآخر من الحديقة امرأة أخرى طويلة القامة تواجه فى رعب سخرية شقي آخر • وكل ما تذكره بروسبيرو عن هذه المرأة فيما بعد أنها كانت مرتدية ثيابا بيضاء وان لها شبكة شعر ذات بريق !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وترك بروسبيرو عتبة الباب لكي يدع رجاله يمرون ، ثم أمرهم في حزم بأن يضعوا حدا لذلك المنظر الأليم ! وسرعان ما اندفع ستة من رجاله وراء الشقيين اللذين كانا يطاردان المرأة الاولى في الحديقة ، بينما هجم غيرهم على الجندى الذى كان يتحرش بالمرأة ذات الرداء الابيض ٠ وكان هذا الجندى قد تقهقر بدافع الغريزة ووضع يده على مقبض سيفه ، ولكنه قبل أن يجرده هجم عليه الجنود فأطاحوا بخوذته وحزامه وسيفه، ثم دفعوه بأسنة الحراب نحو الباب وهم يخزونه بها في كتفه حتى صار يصرخ من الألم ويتعثر في مشيته ٠ وكان رفيقاه قد لقيا مثل ما لقيه ، ثم ضرب الجنود أحدهما على أم رأسه فخر على الارض بلا حراك٠وعندئذ سحبوه من قدميه ورموه في الطريق وسط رفاقه ثم جذبوه فوق درجات الزقاق دون أن يبالوا ما يصيب رأسه حتى تركوه تحت إحدى الاشجار القائمة خارج الدار

وتبعهم بروسبيرو دون أن ينتظر شكرا من أولئك الذين أنقذهم ، فان المهمة التى هو بصددها كانت لا تحتمل الانتظار !

والواقع أن جنود سفن بروسبيرو كانوا مثله حزما وحسن نظام،وقد أبدوا كل ما كان يرجوه منهم من سرعة وعدم محاباة ، وعاملوا الجنود الفرنسيين معاملتهم للدهماء على السواء ٠٠ وراحوا يطهرون البيوت من الناهبين !

وفي عصر ذلك اليوم رأى بروسبيرو أن مهمته قد تمت،اذ أعيد الأمن الى المدينة ، وكان قد بلغ منه التعب مبلغه،فمضى على رأس قوته الصغيرة قاصدا الى قصر الرئيس ، لكي يقدم نفسه الى والده !

وقد ذهبوا عن طريق سارزانو ، ومن هناك ساروا صعدا في الطرق المنحدرة المؤدية الى سان لورنزو والى قصر الرئيس ٠ ورغم توقف أعمال السلب والنهب كانت المدينة لا تزال في حالة اضطراب،فشق بروسبيرو ورجاله طريقهم في شوارع حافلة بالناس ، وكان أكثرهم صاعدين الطريق المؤدى الى القصر !

وكلما مضى في طريقه انضمت اليه كتائب من جنوده ، عائدين من عملهم ٠ وكانت احدى تلك الكتائب تحت قيادة كاتانيو ٠ وقبل أن يصل الى سان لورنزو كان عدد الجنود الذين وراءه نحو مائة وخمسين، فتألف منهم موكب بديع تنظر اليه الطبقة العالية من الأهلين نظرة إعجاب ، على عكس الغوغاء والسوقة !٠٠

وكانت الوسائل التى اتخذها الاميرال دوريا أكثر رفقا ولينا من تلك التى عمد اليها بروسبيرو ٠ فبينما سير الاخير خمسمائة جندى قسمهم الى خمس وعشرين كتيبة لردع السالبين والناهبين ، حشد الاميرال مائتى جندى فقط وجعل منهم صفا وسط المدينة ٠ ثم سيروا أربعمائة جندى بالطبول والابواق لينذروا من تحدثه نفسه

www.ibtesama.com/vb Exclusive



ولمح بروسبيرو امرأة تصرخ هاربة ، وقد قطع الجزء الأعلى من ثيابها ، وكان يتبعها جنديان فرنسيان وهما يقهقهان قهقهة كريهة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بالسلب ، فكان ذلك وحده كافيا للردع والزجر ، وفر شرار الغوغاء الى جحورهم ، وأوى الاوغاد من الجنـــود الفرنســـيين الى ثكناتهم بأسرع ما تحملهم أقدامهم • وهكذا تفادى دوريا سخط الجمهور ، على حين جعل بروسبيرو نفسه موضعا لهذا السخط كما لحظ ذلك وهو سائر بجنده نحو سان لورنزو !

ولما وصل الى الميدان الذى أمام القصر ، وجد أمامه كتلة من الناس فلم يقدر أن يشق طريقه بينها • وقد وقف صفان من جنود دوريا أمام القصر ليحولوا دون الجمهور والتقدم ، بينماكان أحد من الناس فى شرفة القصر يصيح بأعلى صوته داعيا الى السكون والانتباه !

ونظر بروسبيرو فوق ذلك البحر من رؤوس البشر ، فرأى أن ذلك الذى يصيح من الشرفة رجل شيخ ضخم الجسم أشيب الشعر ،وسرعان ما تبينه فعرف أنه هو أوتافيانو فريجوزو الذى كان رئيســا لجمهورية جنوا حين كانت تحت سيطرة فرنسا وقبل أن تقع فى قبضة امبراطور النمسا واسبانيا • وعندئذ تملكالقلق بروسبيرو ، ولاسيما أن أوتافيو يرتدى زى الرئيس كأنما عاد الى منصب الرياسة بعودة الفرنسيين الى المدينة ! وكان واقفا الى يساره ابن عمه سيزار فريجوزو ، والى يمينــه الاميرال اندريا دوريا !

فحبس بروسبيرو أنفاسه كيلا تفوته كلمة مما يقوله ، ثم أعلن هذا ان الاميرال اندريا دوريا ، المواطن الاول ، وأبا الشعب ، قد أنقذ جنوا من الحكم الاجنبى ، وان الاهالى لن يرغموا بعد اليوم على دفع الضرائب لايواء جنود الاحتلال فى ايطاليا ، وأن جنوا قد حررت من نير حـــكم الاسبان ، وأصبحت منذ اليوم حرة تحتوصاية ملك فرنسا ، ثم قال : « ان الوطن مدين بهذا الفضل لاندريا دوريا أسد البحر العظيم ! »

وسكت فريجوزو لحظة ، كما يقف الخطيب داعيا الى التصفيق ، فعلا هتاف الشعب : « ليحى دوريا !•• ليحى دوريا ! »

ثم رفع دوريا نفسه يده اشــــارة الى طلب السكوت كى يستأنف فريجوزو خطابه ، وعاد هذا فأعلن انه سوف يقتص ممن سببوا الآلام للشعب ، خصوصا أولئك الذين حكموا عليه بالجوع فى ســـبيل ابقاء البلاد تحت نير الامبراطور !

وكان بليغا فى خطابه ، فما زال يضرب على هذا الوتر حتى صـــاح الجمهور : « الموت لآل أدورنو ! الموت لمن خانوا الوطن ! »

وبعد ذلك وعدهم الرئيس الجـديد بالزاد والمؤونة بغير ابطاء وقال لهم : « ان سفننا محملة بالقمح تنتظر تفريغه بالميناء ، كما أن الماشــية فى طريقها الى المدينة ، ولن تمضى بضع ســـاعات حتى توزع الاطعمة وتنتهى المجاعة التى سببها الحكم السابق ! »

وعاد الشعب يهتف للرئيسالجديد ويطالب برأسالرئيس أنطونيو،

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بينما بروسبيرو واقف يسمع وهو لا يكاد يصدق أذنيه !

وانه لكذلك اذا بواحد من الناس يجذبه من كمه ثم يهمس في أذنه : « لقد وجدتك أخيرا يا بروسبيرو كنت أبحث عنك منذ يومين أو أكثر ! »

والتفت بروسبيرو فوجد سيبيوني دى فيشي الى جواره ، واستطرد هذا فقال : « ما دمت قد سمعت ما قاله هذا المشعوذ فقد أدركت الموقف، ولعلك لم تكن تعلم ما حدث والا لما كنت هنا ! »

ـ لقد كنت في طريقي الى القصر واذا بى أرى ما رأيت وأسمع ما سمعت !

ـ اذا كنت تبحث عن أبيك فلن تجده في القصر بل هو سجين في القلعة !

فارتاع بروسبيرو وقال : « رباه ! »

ـ أتعجب من ذلك ؟٠ ان آل فريجوزو يحنون الآن رؤوسهم للشعب ليوطدوا أقدامهم ٠٠ ولن يأمن الرئيس الجديد على نفسه الا اذا قضى على الرئيس القديم !

ثم التفت سيبيوني دى فيشي فجأة الى جنود بروسبيرو وعلى رؤوسهم الخوذ وقال له : « هل هؤلاء رجالك وهل هم أهل للثقة ؟٠ اذا كان الامر كذلك فينبغي لك أن تعمل توا اذا أردت انقاذ أبيك ! »

وكان بروسبيرو قد غاض الدم من وجهه من هول تلك المفاجأة فقال لصاحبه : « وأين أمي ؟ »

ـ مع أبيك تشاركه في سجنه

ـ الى الامام اذن !٠ ان رجالي سيشقون طريقهم الى القصر ٠ ويجب أن أقابل الاميرال فورا !٠

فكاد سيبيوني يضحك ساخراً وقال : « الاميرال ؟! ٠٠ دوريا ؟٠٠ لكأنك تقصد الى فريجوزو نفسه !٠٠ ان دوريا هو الذى نادى به رئيسا للجمهورية !٠٠ ان الموقف لا يجدى فيه الكلام يا بروسبيرو ، بل يتطلب العمل السريع الحاسم !٠٠ ان الجنود الفرنسيين الذين بالقلعة لا يزيد عددهم على خمسين جنديا ، وأبواب القلعة مفتوحة ، وهذه فرصتك فانتهزها اذا كنت واثقا من جنودك »

فأشار بروسبيرو الى الضابط كاتانيو وأصدر اليه أمرا ٠ وانتقل هذا الامر بسرعة البرق الى صفوف الجند فشق ذلك الموكب طريقا لنفسه وسط الجموع الحاشدة !٠ وكان من المحال أن يتقدم فلم يبق له الا أن يسير الى الوراء ٠٠ ثم اتخذ لنفسه طريقا آخر الى المرتفعات التى تقع القلعة فوقها !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بين الابن والوالد

مضى بروسبيرويجنوده حتى وصلوا الى ميدان الكاتدرائية ، وكانت جموع الشعب ما زالت تتدفق قاصدة الى القصر ٠ ثم ساروا فى طريق صاعد يؤدى الى « الكامبيتو » ٠ بينما أسنة حرابهم تلمع فى ضـــوء الشمس فلم يجرؤ أحد أن يعترض طريقهم ، غير أن بعض أفراد الجمهور كانوا يدركون أن هؤلاء الجنود هم أفراد الفرقة الاجنبية التى يقودها بروسبيرو ، ويذكرون ما اتخذته منذ ساعات من وسائل الارهاب ، فلا يسعهم الا أن يتلقوها بالشتائم واللعنات !

وعند الكامبيتو انضم اليهم ضابط آخر من ضباط بروسبيرو ومعه ستون جنديا،كان قد جمعهم وهو يبحث مع رجاله عن القوة الرئيسية٠ وهكذا وصل بروسبيرو الى جدران القلعة عند الغروب ، ومعه قوة يزيد عددها على مائتى جندى !٠٠ ثم ولجوا باب القلعة فى صفين،واستطاعوا فى سهولة أن يزيحوا من طريقهم بعض الحراس الذين اعترضوهم ٠ ثم قابلتهم قوة أكبر فى فناء القلعة ، وكان ضابطها أحدرجال دوريا العالمين بالانقلاب الذى حدث فىذلك اليوم ، ولكنه مع ذلك سأل بروسبيرو فى أدب :

ــ ما هى الخدمة التى تريد منى أن أؤديها يا كابتن ؟

فقال له بروسبيرو بايجاز : « أن تسلمنى القلعة ! »

فبان الغضب على ذلك الضابط وقال : « أقول لك بكل احترام انى لا أستطيع ذلك ٠ فقد عهد الى السيد سيزار فى قيادة القوة التى هنا ، وسأبقى فى مركزى حتى أتلقى أمرا آخر من السيد سيزار نفسه ! »

ــ أو حتى أزيحك أنا !٠٠ لقد سمعت ما قلته لك ، ستذعن طوعا أو كرها !

فعمد الضابط الى التعاظم ، وبدا جسمه الضخم وكأنما زاد انتفاخا وقال لبروسبيرو :

ــ يا سيدى الكابتن ٠٠ انى لا يمكننى أن أتلقى الاوامر منك ٠٠٠ اننى ٠٠٠

فأشار بروسبيرو الى رجاله الواقفين خلفه وقال : « هذه حجتى التى أقنعك بها ! »

ــ اذا كنت ستتخذ هذا الاسلوب فماذا أفعل ؟

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ــ لا شيء سوى ما آمرك به ... ان هذا يوفر عليك تعبا شديدا !
ــ قد يكون الامر كذلك فيما يختص بي يا سيدى .. ولكنه يسوىء مركزك أنت !
ــ هذا شأني أنا وحدي .!

ثم استدار الضابط وألقى أوامر بصوت كصـوت النفير فاصطف حراس القلعة ، ولم تمض بضع دقائق حتى غادروها . وكان الضابط آخرهم فحنى رأسه لبروسبيرو بشكل يدل على السخرية والوعيد !

ودخل بروسبيرو لكي يلقى أباه ، وقاده سيبيونى على سلم ضيق حتى وصـلا الى باب وقف به حارسـان فأمرهما بروسبيرو باللحاق برفاقهما الذين خرجوا من القلعة ، ثم فتح الباب ودخل في ردهة خالية من كل أثاث ، ومنها دلف الى غرفة صغيرة ترى منها المدينة والمينـاء والخليج ، فوجد بها أباه وكان بادي التعب وقد التف برغم الحر بعباءة سميكة عليها فرو ، بينما جلست قرينته على كرسى ذى ذراعين ، رفيعة القد بادية الشباب ، وقد ارتدت ثوبا أحمر موشى بالذهب

وفي وسط الحجرة كانت هناك مائدة عليها بقايا طعام بسيط مؤلف من الخبز والجبن والفاكهة ، والنبيذ .. وقد تنبهت مونا أوريليا لفتح الباب ، وما رأت ولدها بروسبيرو حتى ارتد وجهها شاحبا ، ثم وقفت وصرخت صرخة أيقظت قرينها فرفع رأسه . ولكنه بقى على هدوئه ولم ينم صوته حين تكلم عن أى تأثر وانما قال لولده :

ــ أهذا أنت يا بروسبيرو ؟.. لقد جئت فى ظروف سيئة كما ترى !

واذا كان أبوه لم يوجه اليه كلمة لوم ، فانه هو لم يكن ليزكى نفسه، فتقدم نحو أبيه وسيبيونى فى أثره ، وقال :

ــ لقد تعجب يا سيدى من كونى قد جئت اليك !
ــ كلا . كلا . فلابد أن لديك ما تقوله لى !
ــ كل ما أريد قوله لك هو أن لك ولدا أحمق،وليس هذا بالنبأ الجديد عليك ، الا اذا كنت تحسبه وغدا لئيما ... لقد استطاع دوريا النذل أن يخدعني دون كبير جهد منه !
ــ وكذلك خدعنى أنا ..! لقد كنت مثلى فى هـذا .. وكما يكون الأب يكون الابن !

ونظر بروسبيرو الى أمه والخجل يكاد يقتله ، ولكن عاطفة الأمومة تغلبت عليها فمدت نحوه يديها ، فأسرع وأمسكهما وقبل يدا بعد يد !

ثم قالت له : « لقد أصاب أبوك هذه المرة ... ان خطأك ليس أشد من خطئه كما قال الآن ، والى عناده يرجع اللوم كله ، فقد كان ينبغى له أن يحقق رغبة الشعب ويسلم المدينة حين طلب الشعب ذلك ، وبهذا كانوا يؤيدونه حتى النهاية . ولكنه بدلا من ذلك تركهم حتى أدركتهم المجاعة ، ثم ثاروا ضده بتحريض فريجوزو ... هذا هو موضع الخطأ !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال بروسبيرو : «ان الخلاص في أيدينا ولدى قوة كافية من رجالي!»

فصـــاحت به أمه : « هل في ذلك الخلاص ؟٠٠ أيليق بنا أن نهرب ونترك كل شيء ؟٠٠ ان هذه خاتمة بديعة لرئيس جنوا !٠٠ أن يترك آل فريجوزو وآل دوريا الاوغاد ينعمون بثمار الظفر ! »

فقال لها سيبيوني : « بعد أن صـــارت الامور الى ما صارت اليـه يا مادونا ، يكون الفرار خاتمة سعيدة ! »

ثم التفت الى بروسبيرو وقال له : « هل لديك قوة كافية ؟٠٠ وهل يمكنك أن تصل الى السفن ؟٠٠ واذا وصلت اليها هل تعتقد أن دوريا يدعك ترحل ؟ »

وعندئذ قام أنطونيو وقال : « بل أسأل : هل يدعه آل فريجوزو؟٠٠ انهم الآن ســادة جنوا الحقيقيون !.. انك لن تقدر على الاحتفـــاظ بهذه القلعة يوما واحدا ٠ فان الجنود يحتاجون الى طعام ٠ ونحن هنـا بلا زاد ولا مؤونة ! »

وكان ذلك طعنة لآمال بروسبيرو ، فتولاه اليأس وتساءل : « ماذا بقي لنا إذن ؟ »

فأجاب أبوه قائلا : « ما دمنا لا نملك أجنحة نطير بها ، وليست لنا طائرة تحملنا كذلك الاحمق الذى دق عنقه عنـد برج سانت انجيلو ، فليس لنا الا أن نسلم أمرنا لله ! »

وهنا تكلم سيبيوني مرة أخرى فقال : « ان طريقة الخلاص لا تكون باقتحام المدينة ولكن بالخروج منها ! »

ولما سألوه عما يعنيه بذلك قال : « ان الجانب الشرقي للقلعة يقوم على سور المدينة ذاته ٠ ومن شرفات القلعة الى الصخور التي عند قاعدة السور بنيان ارتفاعه سبعون قدما ٠ وعلى هذا تستطيعون أن تغادروا جنوا كما غادر القديس بطرس دمشق !٠ »

ولم ترق أنطونيو هذه الفكرة ، فبين لهم أن جرحه لا يسمح له باتخاذ هذه الطريقة في الفرار إذ كان قد استنفد قوته ٠ هذا الى أنه وقد فقد كل شيء لم يعد يهمه أن يواجه أى مصير ٠٠ بل انه ليتمنى لو أتيحت له الراحة النهائية !٠٠ ثم دعا بروسبيرو ووالدته الى أن يحاولا الفرار بتلك الوسيلة وأن يتركاه حتى لا يعوق حركتهما بسبب مرضه وجرحه، غير أن بروسبيرو ووالدته لم يرضيا ذلك وأصرا على أن يذهب معهما أو يبقيا معه !٠٠ فلم يسعه حيال ذلك الا الاذعان

وعند الغروب كان كل شيء قد أعد ، وهبط كل من الثلاثة على حدة من أعلى القلعة الى الارض في مقعد علقه الرجال بالحبال باشراف سيبيوني!

وهكذا انتهى حكم آل أدورنو لجمهورية جنوا ٠٠ وبينما كانت مادونا أوريليا تصخب منددة بآل دوريا وآل فريجوزو معا ، كان بروسبيرو لا يلوم الا نفسه اذ كان أداة ذلك الغدر الذى طوح بأبيه !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

معركة أمالفى

استولى الاميرال دوريا على جنوا باسم ملك فرنسا ، فى الايام الاولى من شهر أغسطس سنة ١٥٢٧ ، وبفرار بروسبيرو مع والديه من المدينة انتهت كل صلة له بقيادة الاسطول البابوى

وفى أواخر شهر مايو من السنة التالية ، كان بروسبيرو قد التحق بجيش الامبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا فى نابولى ، وعين ضابطا تحت امرة دون هوجو دى مونكادا نائب الامبراطور بتلك المدينة .. أما أبوه ــ رئيس جنوا السابق ــ فكان قد مات بعد ثلاثة أيام من وصولهم الى ميلانو حيث آواهم أنطونيو دى ليفيا حاكمها من قبل الامبراطور ، وأنزلهم فى قلعة بورتا جيوفيو !

ومكثت مادونا أوريليا والدة بروسبيرو يوما وليلة بعد موت قرينها وهى صامتة حزينة ، ثم تكلمت أخيرا وهى واقفة بثياب الحـــداد أمام تابوته ، فقالت لولدها الواقف بجانبها فى صوت صارم لم يعهده من قبل :

ــ ان أباك يرقد ها هنا قتيلا ، وأنت تعرف قتلته، وتعرف أين تجدهم .. انهم آل دوريا الطامعون الغادرون الذين لا عهد لهم ولا ميثاق .. هم الذين حكموا عليه بهذه الخاتمة التاعسة . فلا تنسين ذلك ما حييت!

فقال بروسبيرو : « ما كنت لأنسى ذلك يا أماه ! »

ثم لمست ذراعه وزاد صوتها صرامة وقالت له :

ــ اركع يا بنى .. وضع يدك على هذا التابوت . هناك على موضـــع القلب . انه الآن بارد لا ينبض. ولكنه كان من قبل حارا مفعما بحبك. فاقسم على هذا القلب أنك لن يهدأ لك بال حتى تهبط ببيت آل دوريا الى الدرك الذى هبطوا ببيتنا اليه . وليكن قسمك هذا هو صلاتك الاخيرة حتى يهدأ أبوك فى مستقره !

فركع بروسبيرو ، ووضع يده على الموضع الذى أشـــارت اليـــه من التابوت .. وتذكر الغدر الذى كان هدفه حتى صار أداة لضياع أبيه ، فلفظ القسم الذى طلبته أمه اليه ، بصوت قاصف رهيب !

وكانت الخطوة الاولى فى سبيل وفائه بهذا القسم ، أن قبل ما عرضه عليه دى ليفيا من الدخول فى خدمة الامبراطور ! وفى ذلك الوقت، كانت حملة الدول قد اشتدت على شارل الخامس ملك أسبانيا منذ نهب جنوده

www.ibtesama.com/vb Exclusive

روما ، فصارت جيوشه تقاتل في كل مكان بينما سيطر المارشـال دي لوتريك بأسطوله على الجزء الأعلى من ايطاليا ٠٠ ومضى شـهران وهو مرابط أمام نابولى ومعه ثلاثون ألف جندى ، وكاد الحصـــار يؤدى الى المجاعة في هذه المدينة ، ثم جاء خطر الطاعون فى أعقاب ذلك ، وجاءت سفن دوريا تعاون لوتريك وتسد منافذ البحر ٠ غير أن الاميرال دوريا لم يكن يقود تلك السفن بنفسه ، فقد عهد فى قيادتها الى ابن أخيـــه فلبينو وبقى هو فى جنوا ٠ وكان لهذا سبب خفى استطاع سيبيونى دى فيشى أن يقف عليه ويوضحه فى خطاباته التى كان يرسلها خفية الى بروسبيرو !٠٠

كان القلق يسود جنوا ، وبدأ الاميرال أندريا دوريا يلقى مصــير الساسة الذين يكيلون الوعود للشعب ثم لا يوفون بها ، فأخذت مكانته العالية في الانهيار !

لقد أكد للشـــعب أن جمهورية جنوا ســتنعم بالحرية تحت حماية فرنسا ، غير أن هذه الحماية سرعان ما انقلبت طغيانا لم تر الدولة مثيلا له من قبل٠٠ثم تفاقم الخطب بسعى الفرنسيين فى توسيع ميناء سافونا على حساب جنوا ، وشعور الاهالى بأن فى ذلك خرابا لهم ٠٠ وقد عدوا الاميرال دوريا مسئولا عن ذلك كله لانه نقل السلطة من يد الامبراطور الى ملك فرنسا ، بل ان آل فريجوزو أنفسهم ، الذين رفعهم الى منصة الحكم ، بدأوا يشتركون فى الحركة المعادية له !

ولما رأى دوريا نفسه موشكا أن يفقد ثقة الشعب التى استند اليها ، حاول أن ينقذ نفسه بقوله : « ان فرنسا قد نكثت بعهودها له ، واذا لم تصحح أخطاءها فسأترك خدمة ملكها الى غيره ! »

وقد كتب سيبيونى نبأ ذلك كله الى بروسبيرو فرحا به ، ومفسرا به كثيرا من الحوادث ، كعدم ذهاب اندريا دوريا بنفسه على رأس أسطوله الى نابولى ، وارساله ابن أخيه بدلا منه !

وضمن سيبيونى بعض خطاباته الى بروسبيرو طائفة من الشائعات التى راجت فى جنوا عن مسائل شخصية أغضبت دوريا ، وفى مقدمة هذه المسائل أن الملك فرانسيس لم يكن سخيا بالمال ، وأن ســيدات البلاط يستنزفن الذهب الذى كان ينبغى أن ينفق فى اطعام الجيــوش ودفع مرتباتها ٠٠ وكان من رأى سيبيونى أن هناك فرصة سانحة اذا أحسن انتهازها فان الامور فى ايطاليا تتبدل لصـــالح الامبراطور ، ولاسيما ان دوريا قد يبيع نفسه وسفنه بأى شرط لكى يخلص من المتاعب المحيطة به !

وقد أدرك بروسبيرو ما يهدف اليه سيبيونى الداهية ، فلا شك فى أن ترك دوريا خدمة فرنسا وانضمامه الى عدوها يكسبه تأييـــد أهالى جنوا ، ولكن على حساب سمعته فى العالم ، ومتى شعر هؤلاء بانهيار

www.ibtesama.com/vb Exclusive

سمعته ، فان شأنه في مجالس الجمهورية سرعان ما يضعف ويتضاءل حتى ينتهي به الى المصير السيء المحتوم !

وحمل بروسبيرو الخطابات التي تحوى ذلك كله ، الى الماركيز « دل فاستو » الصديق الحميم للامبراطور شارل الخامس . وكان يسكن فى قلعة نوفو ، ويعده القوم فى نابولى ممثلا للامبراطور قبل نائبه الحاكم الرسمى !

وكان الماركيز الشاب مثل الامبراطور فى الثامنـــة والعشرين من عمره ، وسيم الطلعة جم الادب ، وقد استقبل زائره اســتقبالا وديا ، وطرق بروسبيرو الموضوع دون مقدمة

وكان اليوم عاصفا كئيبا ، فقصد المركيز الى النافذة ليقرأ الخُطاب فى ضوئها.وقد قرأه ببطء وهو يمر بأصابعه على لحيته الصغيرةالمدببة. ثم جعل يفكر . حتى اذا عاد الى زائره كان بادى الاهتمام وسأله :

ـ هل الكاتب أهل للثقة ؟.. وهل هو ممن يعتد بآرائهم ؟

ـ لو كان الامر أمر آرائه فحسب لما أزعجتك بزيارتى !. ان آراءه لا تهمنا اطلاقا .. ولكنا يمكننا أن نستنتج النتـــائج لانفسنا . والمهم عندنا هو ما ذكره فى خطابه من أنباء الحوادث والاحـــوال فى جنوا . ويمكننا أن نضيف اليها معرفتنا بمطـــامع دوريا . ولابد له الآن من مخرج يخلصه من متاعبه ، والا أصبح آخر رجل فى جنوا بعد أن كان يأمل أن يكون رجلها الاول !

فقال المركيز مقطبا وهو يداعب خاتما فى ابهامه :

ـ أجل !. انى أرى ذلك .. وأحسب أن اندريا دوريا يقول الحق اذ يزعم أن فرنسا نكثت بعهودها .. لان الملك فرانسيس كثير التقلب ، سهل الوعد ، صعب الوفاء !

فاستاء بروسبيرو اذ اشتم من هـــذا الكلام معنى الدفاع عن دوريا وقال :

ـ هذا لا يهم .. ولا يؤثر فى الموقف اطلاقا !

ـ بل الامر على عكس ذلك..اذا لم يكن دوريا أهلا للثقة فمن العبث التعامل معه !

ونظر الى بروسبيروكأنه ينتظر منه جوابا . ولكن هذا لم يجب بشىء .. فقد كان يشارك سيبيونى أمله فى أن يظهر دوريا على حقيقته.لكنه وقدجاء الىالمركيز دل فاستو لهذا الغرض ، لايجمل به أن يضع العقبات فى سبيل هذه الغاية

ولما رآه المركيز صامتا لا يتكلم استطرد قائلا :

ـ انى أعلم طبعا ان لديك من الاسباب ما يجعلك تعتقد أسوأ اعتقاد فى دوريا . وكل المظاهر تبرر ذلك . ولكنها مظاهر فقط

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فلم يقدر بروسبيرو أن يكظم غيظه وقال له : « ان مصير أبي لم يكن من المظاهر فقط ! »

فاقترب منه المركيز ووضع احدى يديه على كتفه وقال له :

– انى أعرف ذلك ٠٠ ولا شك انك متأثر به !

ثم سكت هنيهة ، قال بعدها : « ينبغى لى أن أستعير منك الرسـول الذى جاءك بهذا الخطاب لكى يحمل كلمة منى الى أندريا دوريا ، وبذلك نضع رأى السيد سيبيونى دى فيشى موضع التجربة ! »

– أتعتزم أن تعرض عليه اقتراحا ؟٠٠ أتذهب يا سيدى المركيز الى هذا الحد ؟

– عند الضرورة أذهب الى أبعد منه ٠٠ انى أعرف رأى الامبراطور فى ذلك كما أعرف رأيى ٠ انه يعـد دوريا أعظم قائد بحرى فى عصره ٠٠ وهذا اعتقادنا جميعا ٠ والامبراطور يعتقد أن من يكون دوريا فى خدمته يكون سيد البحر الابيض المتوسط بلا منازع ٠ فاذا كان دى فيشى على صواب فقد سنحت الفرصة لضم دوريا الى خدمة الامبراطور ، وجلالته لن يصفح عنى اذا فوتت هذه الفرصة ٠ وسأكتب توا الى مدريد ٠ وفى خلال ذلك سأفتح باب المفاوضات مع أندريا دوريا !

ثم ضغط على كتف بروسبيرو بعطف وقال له : « أنا مدين لك بفضل يقتضينى أن أزيد فى ثقة سيدى بك ٠ فان الحافز الذى حفزك الى ابلاغى هذا الامر يدل على الذكاء والاخلاص معا »

وفى اليوم نفسه حضرا مجلس الحاكم جو دى مونكادا ٠٠ وكان هذا جالسا مع ضباطه فى « غرفة الملائكة » ببرج بفريلو ، وقد سميت كذلك بسبب الرسوم التى زين بها بيكاتزوجدرانها ٠٠ وكانوا جميعا من القواد المشهورين ، فمنهم سيزار فيراموسكا ، واسكانيو كولونا ، وجيرولامى دى ترانى قائد المدفعية ، والأحدب جيوستنيانى الذى كان يعد من أكبر القادة البحريين فى عصره ٠ وكان هناك أيضا فيليبرت دى شالون أمير أورانج الشاب الذى لم يكن قد جاوز الثلاثين من عمره برغم ما له من شهرة وسلطة واسعتى النطاق !

وتلا بروسبيرو على الحاضرين خطاب سيبيونى دى فيشى ، على أساس أن له علاقة وثيقة بالموضوع الذى يبحثونه خاصا بالحصار المضروب على المدينة !

ولما أتم تلاوة الخطاب قال المركيز دل فاستو :

– اذا لم نضيع الوقت فان شـارل الخامس قد يستطيع شراء أندريا دوريا وسفنه بأى شرط ٠٠ ويمكننى أن أقول لكم أيها السادة أنى لم أضيع وقتا ، فقد بادرت الى ارســال اقتراح الى أندريا دوريا باسـم الامبراطور !

فبدت الدهشة على وجوه الجميع ، ثم قال أمير أورآنج : « لقد أصاب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المركيز فى ذلك ، فان صاحب الجلالة لابد أن يؤيد تصرفه هذا »

واستطرد دل فاستو فقال : « ما دام الامر كذلك،وقد أتاحت الاقدار لنا هذه الفرصة ، ففى امكاننا أن نرجىء قليلا موضـوع الحصار الذى اجتمعنا اليوم لبحثه »

فقال الأحدب جيوستنيانى : « نحمد الله على ذلك٠٠ان فكرة اقتحام الحصار لم تكن تخلو من تهور ! »

ولكن مونكادا كان عنيدا صعب المراس فقال :

ــ أتظنون أننا يمكننا الانتظار بينما نابولى تعانى المجاعة والطاعون معا ؟٠٠ أننتظر حتى يروح الرسل ويغدون ، وحتى توضــع الشروط وتبرم الاتفاقات ؟

ثم مال الى الامام وضرب المنضدة بأصابعه وقال : « ان أندريا دوريا قد يبيع نفسه وقد لا يبيعها ٠ ولكن المؤكد أنه لا يمكن شراؤه اليوم أو خلال أسبوع !٠٠ ان هذه الصفقة تتطلب وقتا لعقدها ، وليس لدينــا وقت للانتظار ٠٠٠ بالله أرسل رسلك يا سيدى المركيز ولكن فى خلال ذلك ينبغى لى أن أجلب أغذية الى نابولى ، ولا يتاح لى ذلك الا اذا طهرت الخليج من سفن أندريا ! »

فاعترض جيوستنيانى قائلا : « هذه مهمة لا تكفى لها الموارد التى تحت أيدينا ٠٠ وقد أدليت برأيى هذا من قبل ، وأحسبنى أعرف شيئا عن هذه الامور ! »

غير أن مونكادا لم يتزحزح عن رأيه ، فقد كان جنديا مغامرا ، سليل بيت من النبلاء ، وقد كسب خبرة واسعة تحت امرة سيزار بورجيا وجونسالفو القرطبى ، وحارب المغــاربة فى البحر ، وكان فى وقت ما أميرال الاسطول الامبراطورى ٠ كما اشتهر بجرأة لا يدانيه فيها أحد فى عصره ، واستطاع أن يكون من الاحواض ودور الاسلحة قوة بحرية مؤلفة من ست سفن نقل وأربعة قوارب وسفينتين وزوارق للصيد ٠ ولم تكن لديه مدافع كبيرة ، ولكنه حاول أن يسد هذا النقص بحشــد ألف جندى اسبانى ببنــادقهم فوق تلك السفن ٠ ولم ينكر هو أن فى هذا مجازفة كبيرة ، ولكن القوم فى نابولى كانوا قد بلغوا مرتبة يرضون فيها أية مجازفة ٠ وعلى هذا نظر الى قواده يستطلع رأيهم ٠ فلم يجرؤ على معارضته سوى المركيز دل فاستو ، اذ قال :

ــ ان ايمانى بالنصر فى النهاية يجعلنى أدع نابولى تقاسى المجــاعة والطاعون فترة أخرى من الوقت ٠٠ وتوفيرا للوقت أعلن اســـتعدادى للذهاب بنفسى الى جنوا لمفاوضة دوريا باسم الامبراطور !

على أن معارضته لم تأت بنتيجة ، لان مونكادا لم يتزحزح عن موقفه، وأكد أن الظرف لا يسمح بالانتظار لحظة واحدة ، فالمعروف أن هنــاك أسطولا من البندقية تحت قيادة لاندو فى طريقه الى نابولى ليكون مددا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لاسطول فيليبينو ، فاذا وصل ذلك الاســـطول ضاعت على نابولى كل فرصة لاقتحام الحصار المضروب عليها !

وعلى ذلك انفض المجلس الحربى ، وراح القواد يستعدون للقتال !

وقد اتضح أن المشروع مقدر له الفشل من بدايته · فان القوة القليلة لا تستطيع التغلب على القوة التى تفوقها عددا وعدة الا اذا عاونها عامل المفاجأة ، وقد فوت مونكادو هذه الفرصة !·· ففى ليلة حالكة الظلام من أواخر مايو ، وقبل أن يبزغ الفجر ، غادرت تلك القوة البحرية مرساها عند أعالى بوزيليبو ، وكانت تحت قيادة الحــاكم نفسه ، ثم وصلت الى الجانب الشرقى لكابرى بعد شروق الشمس · وكانت النيـــة أن تقلع السفن عند منتصف الليل تحت جنح الظلام ثم تكمن لاسطول فيليبينو وهو يسير فى خليج سالرنو فتباغته وتنقض عليه · ولكن السفن تأخر قيامها حتى انكشفت لابصار العدو فى وضح النهار !

ومما زاد الطين بلة أن مونكادا الذى عاش ثلاثين عاما وهو يحمــــل حياته بين يديه ، أخذ يستعد للقتال وكأنه يتأهب لحفلة عرس · فقــد أنزل الجنود الى أرض الجزيرة حيث قدم لهم الطعام والشراب ، ثم جعلوا يستمعون الى قس يعظهم ··· وأخيرا لما ذهبت السفن لملاقاة أســطول فيليبينو ، أمر مونكادا برفع الاعلام ودق الطبول ونفخ الابواق وكأنه فوق مياه البندقية فى حفلة « كارنفال » !

وكان بروسبيرو أدورنو قد ولى قيادة السفينة (سيكاما) التى تعد من أحسن سفن نابولى ·· وقد لحظ كل ذلك فخاف العاقبة !··

وتقدمت سفن نابولى نحو الجنوب ، وفى طليعتها السفن الست الكبيرة بينما السفن والزوارق الاخرى فى المؤخرة·وكأنما كانت تعبر عن نفس مونكادا التواقة الى القتال··فسارت بسرعة مضاعفة ، وقد وقف الحراس يعملون سياطهم فى ظهور الأسرى الذين يجدفون

حتى اذا وصلوا الى أمالفى ، رأوا ثلاثا من سفن العدو قد انفصلت عن بقية السفن قاصدة الى عرض البحر · فحسب الاسبان أنها تحاول الفرار منهم ، وزاد الحراس قســوة على الأسرى بالسياط ليزيدوا فى سرعة السفن

غير أن بروسبيرو كان له رأى غير هذا ، وصارح بذلك المركيز دل فاستو الذى كان واقفا معه فى مؤخر السفينة سيكاما·ولم تكن للمركيز خبرة بالحرب البحرية فاختار لنفسه أن يكون أركان حرب لهذا القائد البحرى الشاب الذى يعرف شهرته !

وقال له بروسبيرو وهو يشير الى علم تكسر فى مؤخرة سفينة وسط سفن فليبينو :

ـ ليس هذا فرارا !··ان تلك السفن الثلاث انما تتبع اشارة صادرة عن سفينة القيادة ··· وموقع سفينة القيادة هذه يدل على أن هنــاك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

خطة مدبرة من قبل . ان تلك السفن الثلاث المنشقة عن بقية الاسطول انما تتخذ موقفها هذا مؤقتا . وفليبينو انما يكون منها قوة احتياطية ليضرب بها في الظرف الملائم !

أما مونكادا فلم ير سوى أن سفنه الست صارت تواجه خمس سفن فقط من قوة العدو . وقد شجعه ذلك فاندفع بسفنه نحو العدو ليباغته قبل أن يعمل مدافعه القوية ولم يرد أن يطلق عليه النيران كما نصح له ترانى ، بل أراد أن يهجم جنوده على العدو مباشرة

غير أن فليبينو كان واثقا من تفوق مدافعه على سلاح العدو ، وسرعان ما انطلقت النيران من سفينة القيادة ، وأطلقت على سفينة مونكادا قذيفة وزنها مائتا رطل ، وكانت الرمية مسددة فأصابت السفينة من أقصاها الى أقصاها ، وجاءت بالموت والخراب . وسقط مونكادا بينما أخذ جيرولامو داترانى يقفز هنا وهناك ويحاول عبثا أن يحل محل رجال المدفعية الذين خلت أماكنهم ، ثم أصيبت السفينة بقذيفة أخرى أطلقتها عليها سفينة قيادة العدو ، فوقفت مجاذيفها عن الحركة !

وتحرك بروسبيرو بسفينته « سيكاما » وكان لابسا درعه وقلنسوته وقد أمسك سيفا ، ثم هجم برجاله على سفينة للعدو وسرعان ما تغلب على جنودها واستولى عليها ، وتمكن من أسر سفينتين أخريين ، ولكن هذا النصر جاء بعد الاوان ، ذلك لان السفن المعادية الثلاث التى كانت واقفة على بعد ، عادت بأقصى سرعتها لتشترك فى القتال ، فبرهنت على أنها القوة الاحتياطية التى ادخرها فليبينو لمثل هذه الساعة . وأمل بروسبيرو ألا يعدو قصدها استعادة السفن التى أسرها . لكن لوملينو كان له قصد آخر ، هو أن يوجه ضربته الى الرأس ، أى الى سفينة القائد مونكادا ، وكانت برغم ما أصابها مشتبكة فى القتال مع سفينة فيليبينو!

ومضت سفن لوملينو الثلاث قدما نحو سفينة مونكادا . فأطاحت الاولى بدفتها ، بينما دكت الثانية وسطها ، واختلطت أصوات المجاديف المتكسرة بصرخات الأسرى الذين سحقت أضلاعهم من تلك الصدمة . وسقط الصارى الرئيسى على أولئك التعساء فوضع حدا لآلامهم، وكان بين من سحقهم : جيرولامو داترانى اذ كان لا يزال يدير مدفعية السفينة!

ثم ضربت السفينة الثالثة بمقدمتها مكان مقدمة سفينة مونكادا التى أصيبت من الطلقة الاولى فى المعركة

ولما رأى مونكادا أنه أصبح مستهدفا للاحاطة به من ثلاثة جوانب ، قفز والسيف فى يده من سطح السفينة الى أدناها ، وهو يستنفر رجاله بصيحة كالزئير ، ولم يلبث حتى أصابه رصاص بندقية فى ذراعه اليمنى ، وأعقبتها رصاصة أصابت فخذه اليسرى ، فسقط فى بركة من الدم ، وحاول أن يقوم من سقطته اذ سمع صوت العدو يقتحم سفينته ، لكنه لم يستطع وراح فى غيبوبة لم يفق منها الا بعد حين !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ورآه اسكانيو كولانا وهو يسقط فسارع الى نجدته ولكنه اصيب هو الآخر بطلقة صرعته من سفينة لوملينو !

وكان جنود البنادق يتناقص عددهم سريعا ، ولكنهم مع ذلك احتفظوا بمراكزهم بين مؤخر السفينة ورصيفها الأوسط ، بين الطلقات المتتابعة ، والنيران المتأججة ، وقعقعة السلاح وتكسر الأخشاب واصطدام الصلب والحديد . ثم اقتحم العدو هذا المكان أيضا اذ فتح ثغرة فى جنب السفينة عند ذلك الموضع !

وترك بروسبيرو السفينتين المأسورتين فى أيدى رجاله وراح ينقذ أميرا له ، ولمحه لوملينو فتحول بسفنه الثلاث عن سفينة القيادة التى قهرت ، ليشتبك مع السفن القادمة

وضاع أمل بروسبيرو ، برغم استبساله فى القتال ، لأن السفينتين اللتين اعتمد على نجدتهما بقيتا واقفتين فى مكانهما وتجاهلتا اشارات الاستغاثة التى وجهها اليهما ، ثم شرعتا توليان الادبار !

وجاءت سفينة فيليبينو نفسه لتنضم الى السفن التى تهاجم السفينتين الامبراطوريتين اللتين بقيتا تقاومان .. وعندئذ لمس دل فاستو ذراع بروسبيرو وقال له :

ـ لقد انتهى الأمر يا صديقى !.. ان أولئك الخونة قد فوتوا عليك فرصة النصر الأكيد . ولن يكسب الامبراطور شيئا اذا أنت مت هنا فى القتال !

ولم يجد بروسبيرو داعيا الى معارضة فكرة التسليم هذه ، فقال للمركيز :

ـ خير لنا أن نعيش حتى نموت يوما ما فى سبيل غاية أسمى !

ولما اقتحم جنود لوتريك ظهر السفينة سيكانا، حيث رتب بروسبيرو آخر خط للدفاع ، خفض علمه ليحول دون مذبحة لا جدوى وراءها !

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فى ذل الأسر

صار بروسبيرو ادورنو أسيرا فى يد العدو ، وهذا هو يعانى ذل الأسر بين الأسرى الذين يجدفون باحدى السفن ، عاري الجسم حتى وسطه ، وقد بدأ شعره الأشقر ، واحدى قدميه مربوطة بقيد ، وبدأ جسمه وقد لفحته الشمس ، وعلى ظهره آثار الضرب بالسوط !

كان يكدح طول نهاره بمجداف ، فاذا جن الليل نام فى مكانه على قطعة جلد من جلود البقر توضع على دكة الأسرى ، أما غذاؤه فلا يعدو ثلاثين أوقية من الخبز اليابس وملء وعاء من الماء !

تلك كانت حياة لا يطيقها رجل مثل بروسبيرو عاش مترفا ، ولكنه عرف بقوة صبره وايمانه ، فلم يدرك نفسه من الوهن مثل ما أصاب جسده . وبهذه الذخيرة من الصبر والايمان استمر يعمل مجدفا ، فى السفينة « مورا » ذات المجاديف الستة والخمسين ، وكانت من السفن الاحتياطية تحت امرة « نيقولا لوملينو » فى معركة امالفى السالفة الذكر !

وكان رفيقه كهلا أسمر البشرة قوى البنية ، ذا أنف أقنى ، وشفتين غليظتين حمراوين ، ولحية كثة سوداء . وقد فتح عينيه دهشة حين رأى بروسبيرو يقيد بجانبه . ونظر اليه بروسبيرو بدوره فعرفه من فوره . وعجب من تصاريف الأقدار التى جمعته هكذا فى الأسر مع القائد المسلم ياقوت ، أو « الريس ياقوت » الذى كان قد أسره فى معركة « جيولانا » الشهيرة ، وعرف فيه يومذاك أعظم القادة البحريين التابعين لخير الدين بارباروسا (ذى اللحية الحمراء) الذى نشر الرعب فى البحار !

ولما افاق القائد المسلم من دهشته قال له :

ـ أهذا أنت ؟ . . ما أعجب تصاريف القدر !

ثم ضحك حتى بدت نواجذه وقال : «هكذا الحرب يادون بروسبيرو !»

وكان الحداد منهمكا فى وضع الأغلال لبروسبيرو ، بينما وقف لوملينو يشرف على ذلك بنفسه وهو مقطب الجبين . وكأنما خشى بروسبيرو أن يشمت به أسيره السابق ياقوت ، فضحك وقال له :

ـ ان الأمر لا يعدو أن الحظ قد قلب لنا ظهر المجن يا سيد يا قوت ! فأصبحنا أسرى بعد أن كنا قادة

وبان الأسى على وجه لوملينو وهو يصغى الى هذا الحديث فقال ياقوت :

« ولكن فأس الحرب قد تعود الى الخشب الذى صنع منه مقبضها ! . .

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعلى أي حال . . اسمح لى بأن أرحب بزمالتنا الراهنة هذه واذا لم يكن بد من أن يكون زميلي غير مسلم مثلى ، فلا شك فى أننى أوثر أن يكون رجلا مثلك . على أنى أعود ثانية فأقول : ان أحكام القدر لا يسبر لها غور !

فقال له بروسبيرو مبتسما : « أحكام القدر ؟ . . أظن يا سيدي ياقوت أننا الآن بصدد أحكام البشر ! » . وقد قال ذلك وهو يعنى ما وضع له من أنه انما وضع الى جوار ياقوت بالذات بناء على رغبة فيلبينو دوريا ، الذى أبى الا أن يعامله فى الأسر معاملة العبيد المجدفين، وعاد بذاكرته الى معركة أمالفي ، ثم الى ختامها المحزن اذ وقع أسيرا مع تسعة ضباط آخرين فى يد قائد أسطول جنوا ، وكيف لمعت عينا هذا القائد حين لمحه بينهم . . ثم كيف وقف فيلبينو بمدخل القمرة شامخا بأنفه بينما أحد ضباطه يقدم له الأسرى بأسمائهم . حتى اذا قدمه له بدوره قال له هذا بلهجة السخرية والشماتة :

ــ مرحبا بك !. . لقد تحدثنا عن تسوية حساب بيننا فى آخر لقاء لنا ، وحلا لك أن تنذر وتتوعد !. . والآن سنرى كيف تنفذ وعيدك !

ثم التفت فيليبينو الى لوملينو وقال له : « هيا » فليؤخذ الآن ليوضع بين الأسرى الذين يجدفون فى السفن ! »

وقد أثار هــذا الحكم الصارم اشمئزاز زملاء بروسبيرو فى الأسر ، فصاحوا فى وجــه فيلبينو قائلين : « يا للعار ! » . بينمــا ذهب المركيز « دل فاستو » الى أبعد من ذلك وقال له : « انك تريد من هذا الحكم أن تجلب عليه العار ، ولكنك لا تجلبه الا على نفسك ! »

وانتفض فيلبينو اذ سمع ذلك . ولو أنه أطاع هواه فى هذه اللحظة لأمر بأن يوضع أيضا أسيرا على مجداف . ولكنه كان يعلم أن هذا المركيز هو الصديق الحميم للامبراطور ، ويجب اذن أن يترفق به لأن للامبراطور ذراعا طويلة المدى ، فكظم غيظه وقال له : « اذا كنت تظن أنى مدفوع بعامل الضغينة فثق بأنك على خطأ ! ان هــذا الرجل ليس أسير حرب عاديا . . . انه فى السنة المــاضية حين كان قائدا لأسطول حليفنا البابا هرب من الخدمة فهو مطلوب ليجيب أمام العدالة البابوية . وواجبنا نحو ملك فرنسا يتمشى مع واجبنا نحو حليفه قداسة البابا . وتأدية لهــذا الواجب يجب أن أعامله معاملة الهارب من الخدمة العسكرية ، أى معاملة المجرم ، الى أن يتاح لى أن أقدمه الى السلطات البابوية كى يكفر عن ذنبه فوق أعواد المشنقة التى تنتظره ! »

ثم قال وهو يهز كتفيه العريضتين ، ويبتسم ابتسامة خبيثة : « من ذلك ترى يا سيدى المركيز أنى ليس لى خيار فى هذا الأمر ! »

ولكن المركيز الشاب مضى فى تعاليه وجفائه قائلا له : « ان الذى أراه هو أنك بارع فى المراوغة!. . والا فان ادراكك لمعنى الواجب جدير بالازدراء من كل رجل شريف يا سيد دوريا ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فانتفض فيلبينو من الغضب وقال له : « ما دمت اسيرى يا سيدى المركيز فيحسن بك الا تتدخل فى شؤون غيرك ! »

وكان ذلك أقصى ما استطاع أن يعبر به عن غضبه !.. ثم ادار ظهره للمركيز وأمر لوملينو بنقل بروسبيرو الى السفينة « مورا »

ولم يطع لوملينو هذا الأمر الا بعد اعتراض ، فقد قال لفيليبينو : « ان بروسبيرو أدورنو انما استسلم لى ، وعلى هذا فالعرف الحربى يجعله أسيرى أنا ، ويجعل لى حق التصرف فيه كما أشاء »

ولكن فيلبينو رد عليه قائلا فى حدة : « ألم تسمعنى أقول انه مجرم وليس أسير حرب عاديا ، وان واجبى يقتضينى تسليمه الى العدالة ؟.. أم تريد منى أن أخون واجبى لكى تكسب أنت بعض النقود فدية له ؟ »

ولم يخف على لوملينو ما بهذا القول من رياء . ولكنه لم يستطع أن يكشفه ، لأن فرار بروسبيرو من الخدمة العسكرية فى أسطول البابا يجعل لحجة فيليبينو ظاهرا من الحق

وقد فعل المركيز « دل فاستو » كل ما باستطاعته لصالح صديقه بروسبيرو ، وكان المركيز قد عومل هو وبقية الضباط الأسرى معاملة حسنة، فتركوا أحرارا على ظهر سفينة فيلبينو بعد ان أعطوا كلمة الشرف بأن لا يهربوا ..! وقد بادر المركيز الى ارسال خطاب احتجاج الى المارشال دى لوتريك بوصفه القائد الأعلى للقوات المحاصرة لنابولى ، فأراد هذا أن يبدى جانب الشهامة ويكون له فضل على المركيز ، وأمر فيليبينو بأن يسلمه الأسرى الذين أسروا فى واقعة المالفى . غير أن فيلبينو كان مثل بقية أفراد أسرته ينشد الربح فى كل شىء ، فأجاب بأن هؤلاء الأسرى ملك الأميرال أندريا دوريا الذى يعمل تحت رياسته . وعندئذ ألح لوتريك فى طلبه وقال له : « ان أندريا ليس الا خادما لملك فرنسا الذى أعتبر أنا ممثله الأعلى فى ايطاليا . وبهذه الصفة أطلب مرة أخرى تسليم أولئك الأسرى دون ابطاء ! »

ولكن فيلبينو بقى على عناده وأجاب بأن التعليمات التى لديه تنص على أن جميع الأسرى الذين يأسرهم يكونون ملكا للأميرال أندريا دوريا ، وأن الأموال التى يفتدون بها تعد غنائم حرب له .. ولكنه حيال اصرار المارشال على ذلك الطلب سيكتب توا الى عمه ليتلقى أوامره فى هذا الشأن !

ووقفت المسألة عند هذا الحد ، وبقى الأسرى فى يد فيلبينو . على أنه لم يكن يرى اهمية لأكثرهم ولا للأموال التى سيقبضها عمه فدية لهم . ولم يكن لديه مانع من أن يرضى المارشال دى لوتريك بتسليمهم اليه ، لو أن هذا قبل أن يستثنى منهم بروسبيرو أدورنو !

كان فيلبينو ما زال يخشى انتقام بيت أدورنو ، ويرى فى بروسبيرو البطل الجرىء خطرا على سيادة بيت دوريا فى الجمهورية . على أن الضغينة وحدها كانت هى الحافز له الى زيارة السفينة « مورا » حيث يعمل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

بروسبيرو ، ليراه مقيدا بأغلاله ، مشتركا مع ياقوت في العمل على مجداف واحد !.. وكأنما أراد المبالغة في التشفي ، فقال لياقوت : « لعلك مرتاح الى زمالة صاحبك يا سيد ياقوت .. ان الذى أسرك فى وقت ما قد أصبح الآن رفيقك فى الأسر . وهذا هو انتقام القدر ! »

فنظر اليه ياقوت دون خوف وقال له : « ترى من أينا تسخر الآن ، وبأينا تشمت فى شهامتك هذه وفروسيتك ؟! »

فضاقت عينا فيليبينو من الغيظ وأجاب قائلا : «ان النظر اليكما وأنتما جالسان الى هذا المجداف لمما يدعو الى التسلية !.. وبودى لو يرى الأميرال أندريا دوريا هذا المنظر ..! »

فقال له بروسبيرو : « حسبك أنك جبان ونذل !.. »

فالتفت اليه فيليبينو غاضبا وقال له ويده على لحيته : « أتذكر الجبن والنذالة أنت أيها الخائن ؟! »

فضحك بروسبيرو ساخرا ورد عليه قائلا : « لم أجد ما أذكره فى هذه المناسبة غير الجبن والنذالة ، لأنك تفهمهما حق الفهم !.. ولا شك ان منظرى ومعى السيد ياقوت على مجداف واحد خليق بأن يذكرك بأنى أنقذت سمعة الأميرال أندريا دوريا فى معركة جيولاتا . واذا كنت قد حسبتنى من أجل ذلك أبله ، فانى أقرك على هذا الرأى .. ولكنى كنت فى عنفوان شبابى كما تعلم . ولم أكن قد خبرت الناس بعد . وكنت لا أزال أومن بالشهامة والفروسية وعرفان الجميل ، كما أومن بالنبل والشرف والصفات الحميدة الاخرى التى لا عهد لك بها !»

وهنا التفت فيليبينو الى الحارس الواقف الى جواره وقال له : « ناولنى سوطك ! »

ولكن لوملينو تدخل فى الأمر .. ولعله قد ثارت بنفسه عاطفة نبيلة . أو لعله كان يعرف مجرى الأمور والأحوال فى جنوا ويتنبأ بأفول نجم بيت فريجوزو ومعهم آل دوريا ، وعودة آل أدورنو الى الحكم والسلطان وبما يتبع ذلك من عواقب وخيمة لمن أساءوا اليهم وقت نكبتهم . وأيا كان الأمر فقد مد يده معترضا وقال : « ماذا أنت فاعل ؟! دعنى آخذ هذا السوط وسترى !

فأزاح لوملينو الحارس الى الوراء وقال وقد بدا عليه الغضب : « ان بروسبيرو أدورنو انما استسلم لى أنا ! ويكفى أنك ستطلب فديته لنفسك ولكنه لا يزال يعد أسيرى . لقد طاوعتك على وضعه هذا الوضع المهين على المجداف . وفى ذلك عار لنا كلينا ! »

فاستشاط فيليبينو غضبا وقال له : « ألم تسمع يا نيقولا ما قاله لى هذا الكلب ؟. »

ــ وسمعت أيضا ما قلته أنت له !

ولكن فيليبينو لحظه وهو ينظر مشدوها .. ثم ضحك ليخفى حيرته

www.ibtesama.com/vb Exclusive



بروسبيرو يعانى ذل الاسر بين الاسرى الذين
يجدفون بإحدى السفن ، عارى الجسم حتى الوسط

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقال : « أما كونه أسيرك أنت فهذه مسألة يمكنك أن تبحثها مع الأميرال أندريا . . ولكن اصغ الى يا صديقى »

ثم جذب لوملينو وانتحى به جانبا،ووقف الاثنان يتكلمان همسا بشكل يدل على الجد وبعدئذ عاد فيليبينو الى الزورق الذى جاء به ورجع به الى سفينته

وقال ياقوت بصوت مرتفع غير مبال أن يسمعه أحد : « عسى الكلاب أن تدنس قبره!.أجل وقبر أندريا العظيم الذى حكم على بهذا الجحيم !»

ثم نظر الى بروسبيرو وقال له : « هذا النذل قد انتقم لى منك بأشد مما يعلم . ولو أنى علمت ما خبأه القدر لى هنا لآثرت أن أموت فى القتال على ظهر سفينتى على أن أستسلم . وأحسبك أيضا كنت تؤثر ذلك ! »

فهز بروسبيرو رأسه ، وكان يبتسم ابتسامة تدل على أنه ينظر الى داخل نفسه لا الى ظاهر الناس . ثم قال لصاحبه : « كلا يا سيد يا قوت! انى بحاجة لأن أبقى حيا . . فهناك أشياء ثلاثة لا بد أن أنجزها قبل أن أموت ! »

فقال له ياقوت : « سوف تنجزها اذا كان مكتوبا لك ذلك !. . أما اذا مت فلا ضير عليك ان لم تؤدها كلها أو بعضها »

فتنهد بروسبيرو وقال : « أن الأمر لا يتعلق بى ، ولكن بغيرى ! »

فقال له ياقوت : « سواء أكان خاصا بك أم متعلقا بغيرك ، فالواقع يا صاحبى أن ما سوف تعمله ليس هو ما تنوى عمله ، ولكن هو ما قدر الله أن تعمله !. . ان المكتوب فى لوح القدر لا بد أن يكون ! »

فتنهد بروسبيرو مرة أخرى وقال : « أحسب أن الله قد كتب لى هذه الأشياء الثلاثة ، ولهذا أرانى فرحا بأن أبقى حيا ولو على هذا المجداف . . ! »

◻

ومكث بروسبيرو شهرا على هذا النحو ، يكد ويكدح فى مياه نابولى ، حتى نال منه التعب برغم قوة بنيته . وكان سوط الحارس ينزل على لهره بين حين وآخر فيترك فيه علامات وآثارا . ذلك أنه اذا كان لوميلنو ـد استطاع أن يحول دون ضربه بالسوط من يد فيلبينو فانه لم يكن ستطيع شيئا حيال الحراس الذين تعودوا أن يضربوا الأسرى بالسياط بحثوهم على التجديف !

وأخيرا جاءت سفن البندقية التى طال انتظار وصولها ، وكانت بقيادة لاندو » . وحلت محل أسطول جنوا الذى طلبت فى البداية لتكون ـدا له . وفى اليوم نفسه جاء زورق شراعى سريع يحمل خطابا الى فيلبينو وفيه أمر بالعودة توا ! وقد فرح فيلبينو بذلك اذ لم تكن ثمة مودة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

صادقة متبادلة بين الجمهوريتين المتنافستين جنوا والبندقية ، ولم يكن مرتاحا الى ذلك الحلف مع فرنسا الذى فرض عليه . وحوى الخطاب أوامر أخرى من الأميرال أندريا دوريا جعلته يطلب لقاء المركيز « دل فاستو » توا فى قمرة السفينة . وقد بعث اليه بهذا الطلب مكرها لأن العلاقات بينه وبين كبير أسراه هذا لم تكن ودية منذ البداية . ولكنه لم يجد بدا من لقائه والتحدث معه فان أوامر الأميرال أندريا كانت واضحة كما كانت تدعو الى الفزع !

وجاء المركيز توا بادى اللطف . فقال له فيلبينو :

ـ لقد تلقيت بهذا الخطاب أمرا بالعودة فورا بسفنى الى جنوا ..!

فبدا الاهتمام فى وجه المركيز وتساءل : « وهذا الحصار ؟. »

فقال فيلبينو : « ان سفن البندقية تكفى للحصار ، على أنه لا يمكن أن يستمر طويلا،واذا كان القوم فى نابولى يعانون المجاعة والطاعون فان جنود لوتريك ليسوا أحسن حالا ، بل الواقع أن هاتين الآفتين قد أخذتا فى الانتشار فى نواحى ايطاليا كلها . وقد سمعت بوقوع اضطرابات فى جنوا!»

وسكت لحظة ثم استطرد قائلا : « لقدحذرت لوتريك حين شرع يفتح السدود بألا يتدخل فى مجارى المياه ، ولكنه لم يستمع لنصيحتى ! انه كجميع الفرنسيين عنيد يدعى العلم بكل شىء ! »

فرفع دل فاستو حاجبيه حين سمع هذا الذم للفرنسيين،ولكنه لم يقل شيئا ، وواصل فيلبينو كلامه فقال : « لقد تلقى الآن درسا يعلمه ما لم يكن يعلم !.. فقد فاضت المياه على الأراضى وسممت الجو !.. وقد طالما نبهته الى خطر الصيف فى نابولى ، ولكنك لا تستطيع أن تعلم أحد الفرنسيين شيئا !.. وانى أحمد الله اذ بدأ عمى يعرف ذلك ! »

وهنا قال له « دل فاستو » فى هدوء : « أتسمح لى بالجلوس ؟ » . ثم جلس على كرسى هناك ، وكان بالطبع لا يحمل سلاحا ولكنه كان حسن الهندام يرتدى بذلة حريرية وفى وسطه حزام مرصع بالزمرد . وكان قد رخص له فى أخذ ثيابه ونقوده من نابولى مع حاجياته الاخرى ، كما سمح له بأن يتسلم ما يرد من الخطابات باسمه . وبعد أن بقى هنيهة ساكتا قال لمحدثه فجأة : « اذن .. قد أدرك السيد أندريا أنه يخدم سيدا غير جدير بخدمته ؟! »

فانزعج فيلبينو وقال : «كلا !. ان هذا لا يعنى أنه اعتزم تغيير سيده!»

فقال دل فاستو بلهجته الهادئة نفسها : « ان ذلك سوف يأتى لا محالة ! »

فقال فيلبينو : « هذا يتوقف على الظروف ! » فسأله : « أى الظروف تعنى ؟ »

فعبر فيلبينو الغرفة الى المنضدة وقال : « عندى خطاب لك .. ويحسن أن تبدأ بقراءته ! »

فأخذ المركيز الخطاب وفض خاتمه . ولما قرأه بان عليه الجد وقال :

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ـ ان السيد أندريا لا يطلب شيئا أعجز عن اجابته باسم الامبراطور !
ـ باسم الامبراطور ؟. ليكن كلامنا واضحا يا سيدى المركيز . هل خولك الامبراطور السلطة بشأن المقترحات التى فهمت أنك أرسلتها الى عمى ؟

فأخرج دل فاستو خطابا من جيبه وأعطاه اياه قائلا : « هذا الخطاب مكتوب بخط صاحب الجلالة . وقد تسلمته منذ أسبوع . وأنت ترى منه أنه يخولنى كل سلطة فى هذا الموضوع »

فقرأ فيلبينو الخطاب مسرعا ثم قال : « بشرط أن يرتبط صاحب الجلالة الى الحد المطلوب . إن عمى لا " يد الانتظار .. أولا الراتب والمبالغ الاخرى . لقد علمت بمطالبه ! »

فقال المركيز : « انها مطالب فادحة !.. غير أن الامبراطور شديد السخاء وهو لا يقتر على قواده وضباطه مثل ملك فرنسا الذى يبعثر أمواله على العاهرات وما الى ذلك !. فلا تشغلن بالك من هذه الناحية ! »

ـ وهناك الشرط المتعلق بغنائم الحرب ومسألة الأسرى .. ان ملك فرنسا يطلب لنفسه نصيبا فى الغنائم ، ويريد الأسرى جميعا لنفسه !

ـ أن الامبراطور ليس بائعا جوالا !.. وستكون الاولى والثانية كلها من نصيب السيد أندريا وحده !

فبان الجد على ملامح فيلبينو وقال : « تبقى مسألة جنوا وهى مسألة خطيرة ! »

فابتسم دل فاستو وقال : « انها خطيرة لدرجة أنى كنت أحسبك ستبدأ بها ! »

فاستاء فيلبينو من ذلك ، اذ لمح بارقة من الازدراء على محيا محدثه الوسيم ، وبدا له أنه يعلم أكثر مما يجب ، ثم قال له « دل فاستو » :

ـ ليس يخفى على أن طمع الفرنسيين قد جعل السيد أندريا عاجزا عن الوفاء بوعده لأهل جنوا،تلك الوعود التى أغرتهم بأن يقبلوا حماية ملك فرنسا لهم . وقد برهن هذا الملك على شدة طمعه وشراهته . وبذلك صار مركز عمك فى جنوا صعبا جدا !. بل أحسبه صار مركزا مزعزعا .. ولعلك تدهش من معرفتى بذلك ، ولكن لا حاجة بك الى الدهشة فلولا معرفتى بمجرى الأمور فى جنوا لما أقدمت على هذه المفاوضات الدقيقة . وانما شجعنى شعورى بأن السيد أندريا يريد استعادة مكانته لدى الشعب . وهو بالطبع لا يقدر أن يحقق هذه الغاية ما دام فى خدمة ملك فرنسا !

فقال فيلبينو وقد أزعجه هذا القول : « لا تفترض أكثر مما تبرره الظروف !.. وأؤكد لك أن عمى لن يعقد مع أحد أى اتفاق لا يضمن الاستقلال التام لجنوا .! »

فقال دل فاستو : « لن يطلب منه أحد شيئا كهذا يكون خطرا عليه !. »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فتفرس فيه فيلبينو مليا ، ليتبين أهو يقول ذلك جادا أم ساخرا ، ثم قال له مؤكدا :

ــ ان الجمهورية يجب أن تتحرر من كل سيطرة أجنبية !

فقال دل فاستو : « انى أدرك ذلك . . ولكن اذا لم يحررها الامبراطور فلن يحررها أحد ، لأنه لا أحد غيره يملك القدرة على ذلك ! »

فسأله فيلبينو : « هل ينوى الامبراطور أن يحرر جنوا ؟. هذه هى المسألة التى يقوم عليها الاتفاق . لأن على أن أصارحك بأنه ما لم يتعهد الامبراطور بذلك فلن يتم اتفاق بيننا ! »

ــ ان جنوا فى نظر الامبراطور لا تعدو كونها (رأس جسر) . فاذا أعطى حرية الميناء فان أهالى جنوا لهم أن يحكموا أنفسهم كما يحلو لهم . وسيعنى الامبراطور بألا يحكمهم أحد آخر !

ــ يجب أيضا الا تفرض على الجمهورية ضرائب لسد نفقات الجيوش الامبراطورية فى ايطاليا !

ــ أحسبنى قلت ان حرية الميناء هى كل ما يهم الامبراطور من جنوا فى مقابل حمايته لها .! فلم يقدر فيلبينو أن يخفى ارتياحه وقال : « ما دمت تقول ذلك باسم الامبراطور ، فانى من جانبى أقول باسم الأميرال أندريا دوريا : أنك تستطيع أن تعد المسألة منتهية ولا يبقى سوى التوقيع !

فقام المركيز وقال : « هذا بديع !. أحسبنا قد أنجزنا عملا سارا الآن يا سيد فيلبينو . . وأعتقد أنه لم يبق بعد ذلك مكان لمسألة افتداء الأسرى الذين أسرتهم فى معركة أمالفى ! »

وهنا غاض السرور الذى كان باديا على محيا فيلبينو ، وحل محله الانزعاج ، ثم قال له :

ــ يحسن بنا ترك هذه المسألة للأميرال أندريا . . لقد أقررت أنت نفسك بأن جميع أسرى الحرب يكونون ملكا له ! »

فابتسم دل فاستو ابتسامة لا تخلو من ازدراء وأجاب قائلا :

ــ يا سيد فيلبينو ان هذا القول قد يصلح لأن يوجه الى دى لوتريك ، ولكنه لا يصلح للامبراطور ولا لى !. ان هذا الاتفاق الذى نحن بصدده يجعل عملك فى خدمة الامبراطور ، فكيف يبقى خدام الامبراطور الآخرون أسرى لديه ؟ »

ففكر فيلبينو هنيهة ثم قال : « ربما كان الأمر كما تقول . . . وأحسب أن توقيع الاتفاق من شأنه أن يفك أسر هؤلاء السادة الذين حجزوا بكلمة الشرف منهم ! »

فأصر دل فاستو على رأيه وقال :

ــ يجب أن يكون الأمر كذلك . ولكن بين أسراك رجلا لا يصح أن ينتظر حتى يوقع الاتفاق . . انى أطلب انقاذ بروسبيرو أدورنو من حالته الراهنة ومعاملته كما تقتضيه رتبته !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فامتقع وجه فيلبينو حين سمع ذلك وسكت برهة ثم قال :
ــ انك لا تدرى ما تطلبه يا سيدى المركيز !. ان بروسبير أدورنو ليس أسير حرب عاديا .. انه مجرم كان قد ....

فقاطعه دل فاستو قائلا : « لقد ذكرت لى هذا من قبل ، فلا حاجة بك الى تكراره ! »

وتقدم نحو طرف المنضدة ونظر الى فيلبينو نظرة صارمة وقال له : « لن أدعك تشفى ضغينتك من ضابط فى خدمة الامبراطور ، ولا سيما اذا كان هذا الضابط ذا مقدرة عالية مثل بروسبيرو .! »

وكانت لهجة المركيز وهو يقول ذلك لهجة سيد يخاطب تابعه .. ولعل فيلبينو كان يحتمل هذه الغطرسه من الامبراطور نفسه ،لكنه كيف يقبلها ممن هم دونه ؟. على أنه سرعان ما كظم غيظه واكتفى بأن قال للمركيز :
« ان آل دوريا لم يصبحوا بعد فى خدمة الامبراطور ! »

فأجاب المركيز على الفور : «ولن تكونوا فى خدمته اذا عارضتم فى ذلك!» ثم ضرب المنضـــدة بقبضة يده وقال بحـــدة : « أأنتم الذين تستأجرون الامبراطور أم هو الذى يستأجركم ؟. لقد استمعت الى المطالب التى يحق لكم أن تنالوها ، ولا شك أنها ستتحقق لكم » . حسنا ولكن يجب أن تعلم أن لنا أيضا شرطا لا بد منه لاتمام الاتفاق !

واذا كان ذلك لم يذهب بغضب فيلبينو فانه على الأقل جعله يخشى افساد ذلك الاتفاق الذى يراه ضروريا لعمه الأميرال أندريا دوريا اذا أراد أن ينقذ مكانته وسلطانه فى جنوا .. فسكت هنيهة مفكرا ثم قال فى لهجة تنم عن الرجاء :
ــ لا تنس يا سيدى أن ذلك الأسير يختلف عن الأسرى الآخرين .. ان هذه المسألة مسألة واجب مفروض على . فمنذ سنة فر بروسبيرو أدورنو من خدمة البابا و ...
ــ هذه مسألة تتعلق بالبابا ولا تتعلق بك !
ــ لكنها مسألتنا أيضا ، ان البابا فى حلف مع ملك فرنسا الذى نحن فى خدمته !
ــ لقد قلت لك رأيى فى هذه المحاكمة ، فلا تكرهنى على أن أقول لك كلاما لا يسرك !. وأيا كان الأمر فقد انتهت علاقتكم بذلك الحلف ولم يبق الا توقيع الاتفاق كما قلت !
ــ ولكن علاقتنا بالحلف كانت قائمة وقت ارتكاب بروسبيرو أدورنو ذلك الذنب . وينتج من ذلك ...

فقاطعه المركيز وقال له بلهجة الأمر : « لا أريد أن أسمع كلمة أخرى ! انك انما تشين نفسك بهذه المراوغة .. ولا تظن أنى أجهل السبب الذى دفع السيد أدورنو الى ما تسميه فرارا من الخدمة ! »

ونظر اليه فيلبينو غاضبا وهو يتنفس بصـــعوبة ولكنه لم يلبث حتى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كظم غيظه واستبعاد هدوءه وقال : « انك تسيء بى الظن !. ان هذه المسألة فيما أعتقد مسألة واجب محض. وليست لى بواعث أخرى غير ما بينت !»
ـ اذن هى بواعث لا قيمة لها .!

وخفض المركيز دل فاستو من صوته ، لأن الذى يمسك بالسوط ليس محتاجا الى استخدامه دائما !.. ثم قال له : « هيا بنا يا سيدى . لا تدعنا نضيع الوقت عبثا .. أن الوقائع واضحة . وينبغى لنا الا ننسى أن والد بروسبيرو أدورنو قد اضطر الى الفرار من جنوا كيلا يغتال من جراء ولائه للامبراطور . وما دام الأمر كذلك فهل تتصور أن الامبراطور يرضى عن ذلك العمل الذى كنت تعتزمه ؟. أو أننى بالنيابة عن الامبراطور كنت أسكت عليه ؟.. دعنى أهمس فى أذنك بهذا .. لا تدفعنى الى لفت نظر الامبراطور الى قضية بروسبيرو أدورنو . فان ذلك قد يحدث أثرا سيئا .. وقد يثير غضب الامبراطور على أولئك الذين كانوا سببا فيما سميته فرارا من الخدمة العسكرية .. وماذا يكون مآل اتفاقنا فى هذه الحالة ؟ »

وكان هذا القول هو السهم الأخير الذى أرغم فيليبينو أخيرا على الاذعان فقال مستسلما : « سأتخلى عن هذه المسألة فيما يخصنى ! »
فقال له دل فاستو : « هذا خير لك ! »

وهكذا وضع فيليبينو جانبا كأس الانتقام العذبة ، وتجرع بدلا منها الكأس التى أرغمه عليها المركيز !

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مفاجأة فى الظلام

كانت السفن التسع تسير متتابعة فى قناة بيومبنيو ، وفى طليعتها سفينة القيادة . وقد هبت ريح خفيفة ساعدت الشراع وأراحت المجاديف بينما الشمس تنحدر صوب جبل جروسو وتضفى على التلال المحيطة لونا ذهبيا يبهر الانظار

وهناك فى السفينة « سينيورا » جلس المركيز دل فاستو والأسرى الثلاثة الآخـــرون فى معركة أمالفى ، وليس خلفهم فى ذلك الصف المستطيل من السفن سوى سفينة واحدة هى السفينة مورا التى تحت قيادة لوملينو ، وفيها بروسبيرو ادورنو بعد أن أعفى صباح ذلك اليوم من عمله الشاق المهين ، وأفردت له غرفة صغيرة تحت سطح مؤخـــر السفينة يدخل اليها من كوة فى القمرة ، وأعاره دل فاستو من ثيـــابه بذلة حريرية سوداء بوسطها حزام يتدلى منه سيف ، وقبعة أنيقة من اللون نفسه ، وحذاء من جلد قرطبة الناعم الذى ترك العرب سر صنعه للاسبان !

وبعد قليـــل ، انتقل المركيز دل فاستو اليـــه فى السفينة مورا ، واصطحبه فى جولة على سطحها ، حيث قص عليه بالتفصيل ما جرى فى شأنه بينه وبين فيلبينو ، فلما انتهى من ذلك قال له بروسبيرو :

ـ لقد برهنت على أنك صديق فى الشدة !

فقال المركيز : « اننى لم أقم الا بما فيه راحة لضميرى ! »

ولما وصلا الى مقدمة السفينة ، صـــعد دل فاستو الدرج المؤدى الى أعلاها قائلا : « ان الهواء هنا أنقى » . ثم أخذ يستنشق الهواء النقى فى ابتهاج ملحوظ ، بعد أن ترك الكرة المعطرة التى كان قبل ذلك يضعها على أنفه ليشمها بدلا من رائحة الأسرى وهو يتنقلون من مكان الى آخر بالسفينة . ثم التفت الى بروسبيرو قائلا :

ـ اذا كنت قد استطعت أن أحقق أعز رغبة للامبراطور فان الفضـــل فى ذلك يرجع اليك ، فأنت الذى نبهتنى الى الموقف الحرج لاندريا دوريا .. ولم يكن الامبراطور ليستطيع السيطرة على ايطاليا الا اذا سيطر على البحر الابيض المتوسط بواسطة دوريا الذى أثبت ببراعته ، وبالاسطول القوى الذى يقوده ، أنه سيد هذا البحر !

فضحك بروسبيرو وقال : « هذا حسن ! .. وما كان يمكن أن يكون

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أحسن من ذلك ٠٠٠ ان العالم سيرى الآن دوريا على حقيقته٠لقد خضع لاغواء المال وباع سيده ملك فرنسا وانتقل الى خدمة اسبانيا ، ويكفى ذلك لتمريغ سمعته فى الوحل ٠٠٠ هذا حسن جدا ٠٠!

فسأله المركيز : « أهذا كل ما يعنيك من الامر ؟ »

فأجاب بروسبيرو : « لقدكنت أنشد العدالة ، وهذه هى قد تحققت!»

فقال المركيز : الواقع أنه كان أشد اصرارا على نيل جنوا استقلالها التام منه على طلب المال !٠٠ وقد أوضح أنه ما لم يتحقق هذا الشرط فلن يقبل أى اتفاق معنا ! »

فقال بروسبيرو : « لقد تمسك بهذا الشرط نفسه حين دخـــل فى خدمة ملك فرنسا ، فهو بهذا انما يبرر الرشوة التى يقبضها ! »

فقال المركيز : « من يدرى ؟٠٠لماذا لا يكون مخلصا فى هذا الطلب؟٠ ولم لا يكون انقلابه على فرنسا ناشئا من نكثها بعهودها له ؟ »

ـ هذا ما سوف يقوله ، ولكن العـــالم لن ينخدع !٠٠ بل ان ذلك سيجعل شعار بيته : « الطاعة لمن يدفع ! »

ـ أهذا كل ما ترجوه ؟

ـ أحسبنى كنت أخالف طبيعة البشر اذا لم أرج ذلك ، فقد مات أبى مكسور القلب منفيا مطرودا من أعدائه الذين سلطهم عليه ذلك الامير ال!

ـ ربما لم يكن فى مقـدور دوريا أن يكبح جماحهم ٠٠ لقد كان آل فريجوزو يعملون لصالح فرنسا !

ـ وكان آل دوريا يعملون لصـــالح آل فريجوزو ٠ لان ذلك يلائم أغراضهم٠٠ان آل فريجوزو قد خلقوا من المادة التى تصنع منها الدمى!٠ أما نحن آل أدورنو فلسنا كذلك ٠ ومن هنـــا آثرهم دوريا علينا ، ولو استطاع لقطع دابرنا جميعا !

فقال دل فاستو : « هذه افتراضـــات لا دليـــل على صحتها ! » ٠

ولكن بروســـبيرو سارع الى الدفاع عن رأيه قائلا : « ان فيلبينو قد ربطنى الى مجداف كما لو كنت مجرما ، وكان يريد أن يســـلمنى الى السلطات البابوية ٠ وهذه حقيقة لا شك فيها كما تعلم ! »

فقال المركيز : « ان فيلبينو غير عمه ٠٠ وقد فعل ذلك ليشفى حقده عليك »

ـ انى لأعجب منك يا ألفونسو اذ تدافع عن دوريا كل هذا الدفاع !

ـ انى لا أحب أن أعتقد أنى استأجرت للامبراطور مغامرا طماعا قد يخونه حين يلوح بريق نفع مادى أكبر فى جهة أخرى !

ـ اطمئن ٠٠ فان الامبراطور من الغنى بحيث لا يحدث ذلك أبدا !

ـ وددت لو نطمئن اليه لاسباب أخرى !

ـ اذن ٠٠ أنت تطلب المحال !٠٠فكن مثلى وارض بالواقع ، وان كنت فى الحق أشك فى أن هناك ما يدعو الى اطمئنانى !٠٠ انك قد حلت دون

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حملى الى البابا ليقتلنى بالنيابة عن آل دوريا ،كما انك فوت على فيلبينو فرصة قتلى ضربا بالسياط وأنا مقيد على المجداف ٠٠ ولكن هذا لا يمنع أن أتلقى فيما بعد طعنة غادرة بين أضلعى فى ليلة حالكة الظلام !٠٠ ان آل دوريا سوف يغتالوننى بأية وسيلة فى أول فرصة تلوح لهم !

فقال له المركيز : « فى هذه الحالة يدفعون ثمن جرمهم غاليا ! »

فابتسم بروسبيرو ساخرا وقال : « حينذاك ٠٠ تنمو أزهار الانتقام على قبرى !٠٠ وانها لفكرة تبعث العزاء فى النفس على كل حال ! »

فوضع المركيز يده على كتف بروسبيرو متلطفا وقال له : « ما أظن ذلك يا بروسبيرو ٠٠ انى لا أركن الى رأى كرأيك هذا ، يكون صادرا عن عداوة شخصية ٠ ولكن كما أن ظل الامبراطور قد حال دون ارسالك الى روما مقيدا بالاغلال ، فهو كذلك سيظل باسطا حمايته عليك٠٠انك ضابط فى خدمته وسأذكر بذلك آل دوريا بالاسلوب الذى يجعل منهم حماة لك بدل أن يغتالوك ! »

وكان بروسبيرو يقدر لصديقه المركيز جميل وفائه وحسن عنايته ، لكن هذا لم يجعله يطمئن من ناحيـــة آل دوريا ، ولا غير من عزمه على اتخاذ حيطته منهم !

وكان من وسائل هذه الحيطة أن يستعين بالضابط « لوملينو » ٠٠ اذ تذكر موقفه النبيل حين تدخل ذات يوم ليحول دون فيلبينو وضربه بالسوط وهو أسير !

وتذكر شيئا آخر ٠٠٠ ذلك أنه لم يطلب منه حين فك اساره أن يعطى كلمة الشرف كغيره من الضباط الأسرى٠ففى استطاعته اذن اذا شاء أن يقفز ليلا من السفينة محاولا السباحة الى البر بينما تكون السفن راسية فى الميناء ٠٠ كما يمكنه أن يقدم التماسا الى لوملينو مؤيدا بصك منه بقيمة الفدية عن نفسه !

وقد وازن بين الأمرين ثم انتهى الى اتخاذهما معا،حين تصل السفينة الى هدفها ٠ ولم يكن هدفها جنوا بل خليج سبتزيا ٠ فهناك قلعة ليريسى المشرفة على رأس فى البحر ٠ وكانت هذه القلعة ملكا لاندريا دوريا وقد استقر فيها فى انتظار مستقبله !

وعند ذلك اللسان رست السفن عند الغروب ، وجاء الامر من سفينة القيادة بأن ينزل الضباط الى البر ومعهم الضباط الأسرى ، ليتوجهوا بهم الى الاميرال اندريا دوريا

وتسلم لوملينو هذا الامر مثل غيره ، وكان بروســـبيرو بين الذين أبلغوا اياه ٠ ولم يكن يتوقع سير الحوادث بهذا الشكل وكان لابد له أن يتخذ قرارا سريعا ٠ ولقد اتخذه ! وكان واقفا مع لوملينو عند مدخـــل القمرة حين أمر هذا أحد الحراس بأن يعد زورقا ذا ستة مجاديف٠وكان لوملينو قد استعد للنزول الى البر،فوضع على كتفيه عباءة سميكة اذكان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الجو باردا وقت الغروب ، بينما أضيئت المصابيح الثلاثة الضخمة التى فى مؤخر السفينة خلف القمرة ، غير أن هذه بقيت فى الظل ، وكذلك الرواق التى تحتها مباشرة • وفى ذلك الظل وقف الرجلان وكأنهما شبحان !

وقال بروسبيرو برقة وكأنه يتنهد : « انى أحس تطيرا من الذهاب الى ليريسى ! »

فسأله لوملينو : « ما الداعى الى التطير ؟• سوف تجد فراشا وثيرا تبيت فيه ! »

فقال بروسبيرو : « ذلك ما أخشاه !•• ان أحدا من آل أدورنو يجب ألا يستغرق فى النوم أكثر مما يجب اذا نام على سرير آل دوريا ! »

فنظر اليه لوملينو متفرسا ، ولكن العتمة جعلته لا يتبين التعبير الذى على ملامح وجهه ، ثم قال له : « هذه تهيؤات لا أساس لها ! »

فقال له :« ربما•! ولكن الحقد الذى جعلنى أسيرا على مجداف لا يمكن أن يكون قد زال أو نقص بعد تدخل ذى سلطان لاطلاق سراحى ! »

فقال لوملينو : « لا شك أنه كبح جماحه !• هذا اذا كان ذلك الحقد يهددك فعلا ••• غير ان آل دوريا ليسوا بالقتلة ! »

ــ ليسوا قتلة حتى الآن !•• ولكنهم قد يصبحون كذلك غدا •• انى أوثر أن أثق بك أنت يا سيد لوملينو •• وأنا أسيرك أنت ولست أسير فيلبينو • فلماذا تخشى المطالبة بحقوقك ؟

فغمغم لوملينو قائلا : « أخشى ؟ »

واستأنف بروسبيرو كلامه فقال :

ــ اذا كنت غير خائف فهيا اطلب فديتى التى هى حقك وحدك •• أم تريد أن أحددها أنا ؟• أيرضيك ألفا دوكات ؟

ــ ألفا دوكات ؟!•• رباه ! انك لا تقدر لنفسك ثمنا رخيصا !

ــ ولن يرخصنى أحد فى العالم !•• أتقبل هذا المبلغ فدية لى ؟

ــ مهلا مهلا يا صديقى !• من الذى سيدفع لى هذه الفدية ؟

ــ بنك سانت جورج ••• وسأسلمك أمر الدفع توا •• قبل أن أرحل !

فضحك لوملينو وتنهد فى آن واحد • ثم قال : « حقا !• ان مثل هذا الرحيل يسعدنى ••• ولكنى لا أقرك على قولك انى أخشى المطالبة بحقى •• فان أندريا دوريا ليس بالرجل الذى يمزح معه ! »

ــ أتعنى بذلك أنك لا تقبل ، وأن على أن أذهب الى القلعة ؟

ــ أحسب أن ذلك أمر لابد منه مع الأسف !

ــ هذا شىء يوسف له حقا !•• لكن انتظر لحظة !

ثم عاد بروسبيرو الى حجرته القريبة وكأنه نسى فيها شيئا••وسمعه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لوملينو يقول مندهشا : « ماذا هنـا ؟ » ·· فتبعه لوملينو نحو الظل وسأله : « ماذا ؟ »

فأجاب بروسبيرو : « اني لا جد ··· » ثم سكت ولم يتم عبارته ، ومضى فى بحثه خلال الغرفة !·· فقال له لوملينو : « انتظر حتى آتيك بمصباح » · ثم انثنى محاولا مغادرة الغرفة ، وسرعان ما وجد هـــذا عنقه وقد أحاطت به ذراع بروسبيرو ، بينما صارت احدى ركبتى هذا فى أسفل عموده الفقرى · وقال له بروسبيرو :

ـ ان ما يجب عمله ، يحسن أن يعمل فى الظلام !

وأصبح لوملينو فى قبضته بلا حول ولا قوة ، ثم شعر بيده تتحسس عباءته بحثا عن خنجره،وكان قد كاد يختنق من ضغط ذراعه فعجز حتى عن الصياح !

وغمغم بروسبيرو قائلا : « يؤلمنى أن أعاملك هكذا !·· وقدكان خيرا لك لو أخذت الفدية ·· والمهم علىكل حال أنى لن أذهب الى ليريسى !»· ثم سحب فريسته الى الوراء نحو الكوة التى تؤدى الى الحجرة السفلى ، وكان بروسبيرو قد فتح تلك الكوة حين دخل حجرته · ومضت ثوان كأنها أعوام وهو يبذل كل قوته فى سحبلوملينو حتى أرقده علىالارض عند حافة الكوة ، ومال عليه لحظة ليستوثق من أنه لا يزال حيا يتنفس، ثم جرده من سيفه وعباءته ، وربط يديه بحزامه ، ولم يكن لديه متسع من الوقت ليكمم فاه أيضا ، ثم أدلاه برفق على السلم وتركه ينزلق فى المسافة القليلة الباقية ليستقر فى القاع كتـلة جامدة · وبعدئذ أغلق الكوة وارتدى عباءة لوملينو وتمنطق بسيفه ··· ولم يستغرق ذلككله من البداية الى النهاية سوى ثلاث دقائق !

وكان الحارس ينتظر على الرصيف الذى بأســـفل السفينة ، فرأى شخصا طويل القامة يرتدى عباءة وقلنسوة وهو يخرج منالقمرة ويهبط الدرج فى بطء · وكانت العباءة حمراء كما بدت فى الضوء الخافت·فقال له وهو يحسبه لوملينو :

ـ كل شيء أعد الآن يا سيدى الكابتن !

فلوح له بيده وقال له بصوت مكتوم : « الى الامام اذن ! »

وهبط الحارس الى الزورق الذى كان ينتظر ، ومضى بروسبيرو وراءه على مسافة منه · ثم انتظر الحارس وسأله : « والسيد بروسبيرو ؟ »

فلم يجب بروسبيرو الا بأن أمره : « هيا ! »·وربما استغرب الحارس ذلك ولكنه لم يسعه الا الطاعة !

وأعملت المجاديف ، وابتعد الزورق عنالسفينة متجها الى الشاطئ· وفى وسط الطريق على مسافة ربع ميل من سـفن فيلبينو التى كانت لا يرى منها فى الليل سوى مؤخرها ، مد الرجل ذو العباءة يده وأمسك ذراع الحارس وأمره قائلا : « دع الزورق يقف ! » · وقبـــل أن يفيق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الحارس من دهشته وقف بروسبيرو أمامه مكررا الأمر بالوقوف ، فى حين ترك العباءة تسقط من فوق كتفيه • ولم يكن وجهه واضحا فى الظلمة ولكن الحارس بدأ يشك فى أمره ، وأخذ يميل الى الامام متفرسا فيه ، ثم وقف على قدميه وهو يسب ويصخب !• وكان ذلك ما أراده بروسبيرو ، فما كاد الحارس يقف حتى دفعه بيده فجأة الى الماء فسقط فيه قبل أن يقول كلمة أخرى ، على حين كف الأسرى عن التجديف من شدة الدهشة التى اعترتهم !

ووقف بروسبيرو لحظة حيث كان الحارس واقفا ويده على دفة الزورق، ثم قال للأسرى :

ـ الآن يا فتيتى •• هيا الى الحرية !•• اثنوا ظهوركم وجذفوا كما لم تفعلوا قط من قبل •• لاننا لا نلبث قليلا حتى نطارد !•واذا أدركونا عدنا الى الجحيم • فهيا جذفوا بأقصى قوتكم !

وكان ذلك كافيا لايضاح الموقف•فأخذ الأسرى الستة ـ وكانواكلهم من الاسبان ـ يصيحون صيحة الدهشة والفرح•وكان الحارس لا يزال يسبح فى الماء جاهدا وهو يتوسل حينا ويسب حينا آخر • فصاح به أحد الأسرى فى نشوة الفرح بالحرية : « اطو سوطك الآن يا ابن الكلب ! » • وصاح به آخر : « اغرق وعليك اللعنة يا ابن الزنا ! » • وهكذا جعلوا يصيحون به حتى ابتعدوا ومضوا نحو عرض البحر !

ونظر بروسبيرو خلفه ، فرأى من بعيد السفينة « موزا» وعليها مصابيح تتحرك !

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

مدينة الموت

واستمر الأسرى فى التجذيف طول الليل يحدوهم الأمل فى الحرية، فكانوا يبذلون من الجهد أشد مما كانوا يبذلونه تحت سوط الحارس ٠٠ ولما صار الزورق على بعد ميل فى عرض البحر كما قدر بروسبيرو ، أدار دفته غربا ليسير بمحاذاة الشاطىء ، وكان يريد من ذلك أن يصل الى جنوا ٠ ولم يغفل عن الاخطار التى تنتظره هناك ، ولكنه لم يكن يقدر أن يحصل على الموارد اللازمة له الا من تلك المدينـــة ٠ وقد وجد فى حزام السيف الذى جرد منه لوملينو ست دوكات ، فكان لزاما عليه أن يستعير هذه النقود لسد حاجاته المباشرة ٠ وكان ينوى اللحاق بأمير أورانج ، عن طريق فلورنس ، حتى تتاح له زيارة أمه

وحينما انبلج الصبح ، كان الزورق قد اقترب من التلال التى تحيط بقرية « لافانتو » وكان البحر خلفهم خاليا ولا أثر فيه لمطارد !٠ وبعد قليل رسا الزورق على شاطىء القرية ، وهبط بروسبيرو الى البر حيث مضى الى حانة قريبة فأيقظ صاحبها من نومه ، كما أيقظ بقالا مجاورا لها ، وعاد الى الزورق بعد قليل يصحبه غلام يحمل خبزا ونبيذا وستة قمصان وست قبعات للأسرى الذين حررهم من العبودية ، كما أحضر مبردين للاستعانة بهما على فك قيودهم !

ولما خرج الزورق من الميناء أشار أحد النوتية الى الوراء منزعجا اذ كان قد بدا شراع عند الأفق، وكانت احدى السفن مسرعة غربا تساعدها ريح هبت بالنهار

ولم يشك بروسبيرو فى أن سفنا قامت لمطاردتهم ، ولعل هذه واحدة منها ٠٠ على أنه سارع الى استغلال تلك الريح فأمر رجاله ببسط الشراع المثلث ، واذ مضى القارب بعـــد ذلك سريعا بقوة الريح ، جلس الرجال يأكلون ويشربون ثم أخذوا يبردون الاغلال التى قيدوا بها ، ولما انتهوا من ذلك كانوا قد وصلوا الى مياه قرية « بوناسولا »٠٠ وقد بدت بيضاء أمام أشجار خضراء قائمة على تل وراءها !

وكانت السفينة ما زالت تبدو خلفهم على مسافة تقرب من ثلاثة أميال، وهى تزداد فى سيرها سرعة ، وفى ذلك ما يهددهم بفشـــل مغامرتهم الجريئة بعد ساعة ، وعلى هذا ضاعف الأسرى من نشاطهم فى التجذيف! وفكر بروسبيرو هنيهة ثم قال لرجاله : « يجب أن ننزل الى البر توا »٠

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فسرهم ذلك جميعا . وهناك على رمال الشاطيء الذهبية ، اقتسم معهم ما بقي لديه من مال قليـــل فخص كلا منهم نصف دوكات ، ثم تركهم يمضون في سبيلهم فرحين مغتبطين ، وقصد وحـــده الى القرية حيث استأجر بغلا ، قطع عليه حوالى عشرين ميلا على الشاطيء حتى وصل الى شيافارى . وفيها استبدل بالبغل جواد بريد أوصله الى أسوار جنوا عند الغروب !

ولما اقترب من باب « بورتا دل اركو » كانت الاجراس تدق من أبراج الكنائس فأسرع حتى يدخل من ذلك الباب قبل أن يغلق ، لكنه اضطر الى التمهل لسماعه جرسا آخر أشد وقعا على نفسه ، كان يدقه من خلفه رجل يقود بغالا تجر عربة ، ووراء هذه العربة رجلان يحملان آلات عجيبة تشبه المقابض الحديدية ، ولما مرا به نظرا اليـه شزرا وقالا له : « ألم تسمع الجرس ؟ » . ثم مضيا وراء العربة دون أن ينتظرا جوابا منه !

وكان هناك حارس مضطجع على عتبة دار الحراســة وفي يده رمح ، لكنه لم يتحرك من مكانه وتركه يدخل من الباب دون أى اهتمام به !

ومضى بروسبيرو فوق جواده فى طريق فيا جوليا ثم طريق مارابسان دومنيكو ، فطريق الكامبتو .. ومضى بعد ذلك فى شوارع ضيقة قاصدا الى « سان سيرو » حيث يقطن سيبيونى دى فيشى الذى عقد عليـه كل آماله !

على أنه كلما تقدم فى طريقه كان يزداد شعورا بأنه فى جو غير طبيعى ، فالشوارع كلها خالية من السابلة بشكل لم ير له مثيلا من قبل ، وكان القليلون الذين صادفهم فى طـــريقه يمشون مسرعين كحيوانات برية يطاردها صياد !. وهكذا بدت المدينة فى سكون المقابر ووحشتها ، ولم تكن هناك أضواء تبدد ظلام المساء ، فالفنادق والمنازل كلها مغلقة الابواب والنوافذ ، فيما عدا فندق صغير بالقرب من « سان دومنيكو » كانت تنبعث منه مع الضوء ضجة ضحكات مفتعلة !

ولما صار بميدان الكامبتو ، حيث كان السكون شاملا أيضا ، جفل جواده بغتة وحاد قليلا عن طريقه ليتفادى رجلا ممددا على الارض . فجذب بروسبيرو الزمام ونزل الى الارض وانحنى على ذلك الرجل واذا به يجده جثة هامدة ، فتراجع الى الوراء ووقف فى مكانه !.. ثم رأى رجلا يمشى فى الميدان مسرعا فصاح به : « هنا رجل ميت ! » . ولكن الرجل مضى فى طريقه وهو يقول : « دعه حيث هو الى صباح غد ! »

وظن بروسبيرو ان الرجل يسخر منه ، وجعل يسائل نفسه : « أليس هنا رجال شرطة يسيرون ليلا فى الشوارع تحت الحكم الفرنسى ؟ »

ثم خطر بباله أن يصيح ليوقظ السكان ، لكنه خشى أن يجلب على نفسه المتاعب ، فركب جواده ثانية واستأنف المسير !

وأخيرا وصل الى « سان سيرو » حيث قصر آل فيشى . وكان القصر

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فى ظلام دامس ، والابواب مغلقة كلها !.. فأخذ يقرع الباب مرة بعد أخرى حتى سمع أخيرا وقع أقدام تقترب ثم صوت مزلاج يرفع من وراء الباب ، وفتحت فوهة ضيقة بالباب الضخم ورفع من ورائها مصباح حتى حاذى وجه بروسبيرو وسمع صوت شيخ يقول له : « ماذا تريد ؟ »

وكان الشيخ ينظر اليه من وراء المصباح بعينين يتجلى فيهما الغيظ . واستطرد قائلا :

ــ من أنت ؟.. ولماذا تقرع الباب ؟

ــ انى أريد رؤية السيد سيبيونى . هل هو بالدار ؟

ــ بالدار ؟ !.. السيد سيبيونى ؟ ! كيف يكون هنا ؟.. وكيف تسأل هذا السؤال ؟

ــ يحسن بك أن تجيب أولا عن سؤالى

ــ ان السيد سيبيونى قد ذهب منذ أسابيع .. مثل جميع الآخرين!

ــ ذهب ؟.. والى أين ذهب ؟

ــ وما يدرينى ؟.. ربما ذهب الى لافانيا ، أو الى بيته الريفى فى اكوى . وربما الى أبعد من ذلك .. لكن كيف توقعت أن تجده هنا ؟.. هل جئت من العالم الجديد .. أم من أين جئت ؟

ثم خرج من الفوهة الصغيرة التى بالباب ورفع المصباح الى أعلى وأشار الى نقطة على الباب وقال : « ألا ترى هذه العلامة ؟ »

ونظر بروسبيرو الى حيث أشار الرجل فرأى علامة الصليب مرسومة باللون الاحمر بشكل ردىء على الباب ، فسأل الرجل : « ماذا تعنى هذه العلامة ؟ » . وشد ما كانت دهشته ، بل شد ما كان فزعه اذ أجابه الرجل :

ــ انه الطاعون ياسيدى !.. لقد سلطه الله علينا بذنوبنا . ويقال انه انتقل الينا من نابولى حيث أرسله الله أولا ليعاقب عصابات الكافرين الذين انتهكوا حرمة روما والأب المقدس . ولقد هرب كثيرون كما هرب السيد سيبيونى ، وكأنما يمكن الفرار من عقاب الله !.. وأغلق السيد تريفولزيو وأصحابه الفرنسيون قصر الحكومة على أنفسهم وكأن جدران ذلك القصر لاينفذ منها غضب الخالق !

وبقى بروسبيرو ساكتا وقد فغر فاه من الدهشة والفزع ، بينما استطرد الرجل قائلا :

ــ حقا أيها السيد لقد جئت الى جنوا فى وقت نحس !.. ونحن هنا ليس معنا سوى الموتى الذين لايبالون شيئا ، والفقراء أمثالى الذين لايجدون لهم مكانا آخر يفرون اليه . اذهب أيها السيد والله معك . اذهب من هنا بعيدا !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبقي بروسبيرو برهة ذاهلا ، ثم امتطى صهوة جواده أخيرا ، ومضى فى طرق ضيقة وعرة نحو الشاطىء !

وكان عليه أن يعيد جواده الى المكان الذى استأجره منه على مقربة من الفندق الذى فى « شيافارى » . ولكى يبيت فى ذلك الفندق أيضا بعد أن يئس من وجود الصديق الذى كان يعتمد عليه ، ولم يبق لديه شك فى أن أصدقاءه الآخرين قد فروا أيضا من المدينة !

ولم يصادف أحدا فى طريقه ، لكنه كان يسمع من بعض البيوت التى مر بها ولولة تشق سكون الليل !

ولما اقترب من الفندق سمع ضجة أصوات وغناء . وكان عهده به انه لايرتاده الا المنعمون الذين لهم صلة بأعمال الميناء ، كالتجار وضباط الملاحة وأصحاب السفن ، فعجب اذ وجد ان رواده فى هذه الليلة كلهم من الطبقة الدنيا بين مساعدين لحراس الأسرى فى السفن ونوتية عاديين وحمالين واشباههم ، وقد أخذوا جميعا يحتسون الخمر ويصخبون ويضحكون كضحك المردة والشياطين فى الجحيم !

وسكت القوم حين رأوه يدخل ، وكفوا بغتة عن الضحك والغناء والموسيقى ، وحملقوا جميعا فى هذا الوجيه الذى دخل عليهم ، اذ كان لايزال يرتدى بذلة دل فاستو الحريرية السوداء وعليها عباءة لوملينو الحمراء !

ولكنهم لم يلبثوا قليلا حتى عادوا الى ماكانوا فيه من مرح ، واجتمعوا حوله حاملين كؤوسهم فى أيديهم ، وأخذوا يرحبون به ويمازحونه ، فصاح بهم قائلا : « الى الوراء !.. لا تحبسوا عنى الهواء !.. فى أى ركن من أركان الجحيم دخلت ؟ ! »

وعندئذ ضحك بعضهم وزمجر الآخرون ، بينما شرع واحد منهم أكثر جرأة فى جذبه من عباءته !.. وفى هذه اللحظة جاء « ماركانتونيو » صاحب الفندق فاقتحم الجمع ، وعرف بروسبيرو من اول نظرة القاها عليه ، فصاح قائلا : « سيدى بروسبيرو ! »

فسأله : « أى طائفة من الناس جمعت عندك الليلة ؟ »

ــ انهم الزبائن الذين تركهم لنا الزمن .. لقد عدت الى المدينة فى وقت نحس ياسيدى .. ولكن تعال معى .. عندى غرف فى الطابق الاعلى .. وكل بيتى تحت تصرفك . تعال ياسيدى

وقاده ماركانتونيو وهو يزيح عنه الجمهور الصاخب ، وكان بعضهم يقول النكات فيضحك الآخرون . وكانوا يقولون ان الطاعون سوف يذهب بكبريائه .. وانه متى ورم جسمه تذكر ان مآله الموت مثل أفقر الناس !..

وسارت أمامه خادمة حسناء ، وفى يدها مصباح مضىء ، وتبعه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ماركانتونيو . ثم أدخله غرفة مناسبة ذات أثاث حسن ولكن كان الهواء مكتوما بها لطول اغلاقها رغم حرارة الجو !

واخذت الفتـــاة تشعل من المصباح الذى بيدها مصابيح أخرى فى شمعدان على المائدة . ثم مسح ماركانتونيو وجهه الاحمر وقال : « نسأل الله الرحمة بنا !.. لقد ثقلت علينا يد القدر ! »

فقال بروسبيرو : « أهكذا تصبح جنوا داعرة فى ظل الموت ؟ !.. ان عقول الناس قد انقلبت .. وأحسب انهم صاروا خنازير ! »

ــ التمس لهم عذرا ياسيدى !.. لقد جنوا من الخوف فهم يحاولون دفعه عنهم بالسكر والعربدة والفجور !.. ساعدنا الله جميعا !.. لقد ساءت الاحوال ياسيدى منذ جاء السيد دوريا بالفرنسيين ليحكمونا !.. ان جميع الذين ساعدوه على احداث ذلك الانقلاب يلعنون أنفسهم الآن ، ويتمنون لو عاد الزمن الذى كان فيه والدك هو الرئيس ــ رحمه الله ــ

وجيء له بالعشاء وفتح النوافذ على مصراعيها رغم الاعتقـــاد بأن فتحها يؤدى الى دخول الطاعون !

وتركت الفتاة « يوفيميا » لتقوم على خدمته ، وكانت فى عنفوان الشباب ، ممتلئة الجسم ، ذات شعر أسود ، وشفتين قرمزيتين كثيرتى الابتسام ، وعينين ناعستين فيهما اغواء . وقد صبت له الماء ليغتسل وأضافت اليه قليلا من الخل ذاكرة ان فى ذلك وقاية له من العدوى . ثم قالت له : « ينبغى لك أن تقى نفسك ، وسأعاونك على ذلك » . ثم جاءت بجمرات من النار فى موقد ، ووضعت به بعض الاعشــــاب العطرية لتبخر الغرفة ، وقالت له : « لست أخشى على نفسى من العدوى لأنى أحمل تميمة تقينى منها ، وما كنت لأرضى أن أبيعها بكنوز العالم طرا .. لكن سيادتك تستطيع أن تطلب منى أى شيء آخر ! »

وقامت على خدمته وهو جالس الى المائدة بمثل ذلك الاغواء ، وكررت ما قاله صاحب الفندق من ان الطعام لايليق بمقامه ، مع انه كان فى الواقع طعاما جيدا . حتى اذا تناول عشاءه حثته على احتساء مزيد من النبيذ وضربت له المثل بأن ملأت لنفسها كأسا ، وتجرعتها مؤكدة ان فى ذلك وقاية من الوباء !

وحاولت جهدها أن ترفع الكلفة بينه وبينها ، حتى لقد صارحته بأنها مالت اليه !.. ولكنه غمغم قائلا لها وهو يغالب النعاس : « شكرا لك ! »

وكان الطعام أشبه بمخدر لجسمه الذى أضـــناه السفر والمؤثرات

وعندئذ مضى الى سريره ونام نوما عميقا ، ولم توقظه منه الضجة التى استمرت بالطابق الأدنى حتى مطلع الفجر !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

جنة الغرام

ولم يكن بروسبيرو يدرى حين سخر من الفتاة « يوفيميا » أنها سيكون لها أثر شديد فى مجرى حياته !

وقد قضي النهار التالى فى التنقل بين بيت وآخر من بيوت الطبقة الأرستقراطية فى المدينة ، وبدأ بزيارة بيت « سبينولا » اذ كانت صلته به تبرر الالتجاء اليه .. ولكن جميع تلك البيوت كانت موصدة الأبواب . واذا كان ببعضها أحد ، فمن الخدم لحراستها أثناء غياب أصحابها !.. ولجأ فى النهاية الى بنك « سان جورج » حيث كشف عن شخصيته لمديره السيد « تاديو دل كامبو » الذى يعرفه . وكان هذا قد بقى فى مركزه برغم الوباء . فرحب به وأقرضه خمسين دوكاتا رآها كافية لحاجاته الضرورية ولنفقات السفر الى نابولى كما اعتزم !

وفيما هو عند مدير البنك ، كان ثلاثة من الجنود الفرسان يسألون عنه فى الفندق بعد أن تتبعوا أثره الى « بونا سولا » ثم الى « شيافرى » حيث علموا فيها أنه استأجر جوادا وذهب به الى جنوا ..!

ولم يكن ماركانتونيو صاحب الفندق يدرى شيئا عما جاءوا من أجله ؛ وعلى هذا قال لهم : « ان السيد بروسبيرو وصل الليلة الماضية ! » فنزل الجنود الثلاثة عن جيادهم مسرورين بهذا النبأ وقالوا : « ان الطير قد وقع فى الفخ أخيرا ! » . وهنا فقط أدرك صاحب الفندق ما هم بصدده فلما سألوه : « أين بروسبيرو الساعة ؟ » .. أجاب قائلا :

ــ لست أدرى أين هو الآن .. ولعله غادر المدينة !

وكانت يوفيميا واقفة خلفه حينذاك فتطوعت للوشاية ببروسبيرو قائلة لهم : « انه سيعود حتما .. وسيبيت هنا ! »

وهمس ماركانتونيو فى أذن الفتاة متوعدا اياها بالضرب المبرح . ولكنها لم تعبأ بوعيده وقالت لهم :

ــ ألا تدخلون وتنتظرون عودته ؟ عندنا نبيذ جيد !

وقد شغلوا بالنبيذ والفتاة ، ولم يعيروا صاحب الفندق التفاتا . غير أن يوفيميا كانت ترقبه ، فلما رأته يتسلل الى الخارج أدركت أنه يريد أن ينذر بروسبيرو حين يجىء بما ينتظره كيلا يدخل .. وكان هذا ما اعتزمه الرجل ، فما كاد يلمحه من بعيد خارجا من بنك سان جورج

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حتى سارع اليه وأخبره بقدوم أولئك الجنود الثلاثة قائلا له : « لا شك أنك تدرك قصدهم ! »

وكان بروسبيرو يعرف ما يريدون ، وأراد أن يشكر لصاحب الفندق اخلاصه ويقظته ، ولكن الرجل أسكته قائلا : « أن يوفيميا بنت الزنا قد أغرتهم بانتظارك . . فهيا اذهب بعيدا عن هنا فورا ! »

وفى هذه اللحظة كان الجنود الثلاثة قد لمحوه فخرجوا من الفندق مسرعين ليدركوه ، ثم جروا فى أثره كالكلاب فى أثر الصيد ، لكنهم كانوا متعبين من ركوب الجياد على حين كان هو قد استراح وغدا أسرع منهم جريا !

واستمرت المطاردة الى الكاتدرائية ، ثم الى ميدان القصر حيث كان أبوه صاحب الأمر والنهى منذ عام واحد !. ثم مضى فى أزقة ضيقة متصاعدة نحو كارنيانو . وقد اختار تلك الأزقة المتشابكة اذ وجدها خير سبيل لتضليل مطارديه . على انها مع خلوها من السابلة لم تخل من أحد هنا وهناك كان ينظر اليه متعجبا وهو يجرى ، حتى اذا جاء مطاردوه دلهم على الطريق الذى سلكه !

وبدأ يشعر بالتعب ويفكر فى أن يعود أدراجه ويهبط التل ، واذا به قد حاد مع الطريق الى ميدان صغير وبقعة خضراء بها أشجار تطل عليها بيوت صغيرة كلها مغلقة الأبواب والنوافذ ، وبينها كنيسة صغيرة اغلق بابها كذلك . فتريث اذ بدا المكان مألوفا له . وكانت هناك أربع طرق تتفرع من تلك البقعة ، أضيقها الطريق الذى عن يمينه ، وهو طريق مرتفع تؤدى اليه ست درجات تحت قناطر (بواس) فسارع الى ارتقائها حتى وصل الى قمة الطريق ، ومن هناك سلك طريقا ضيقا تظلله الأشجار وعلى جانبيه أسوار عالية للقصور القائمة فوق مرتفعات كارنيانو . وكان السور الذى عن يمينه مغطى (بالعليق) فلما رآه أثار فى نفسه ذكرى مضى عليها عام . . هى ذكرى مطاردته للجنود الفرنسيين والرعاع فى اليوم الذى فتحت فيه جنوا أبوابها للمحتلين . وقال لنفسه : « أن أهل هذه الدار مدينون لى بانقاذهم من أولئك الطغاة المعتدين ، وما أظن أنهم يتنكرون لى الآن ! »

ومضى مسرعا الى باب الدار ، لكنه وجده موصدا ، فوقف يتلفت حواليه ويتأمل السور الذى تدلى النبات الكثيف فوقه وكأنه سلم من حبال أنزله له القدر ليتسلقه . . وان هى الا لحظة واحدة حتى تسلقه ثم هبط قفزا الى داخل الدار !

ووقف بروسبيرو ينفض التراب عن ملابسه ، ويتأمل الحديقة التى هبط فيها والقصر الواسع الذى وراءها وقد بدت طبقات الرخام الأبيض والأسود على واجهته ، كما بدت الحديقة حاوية أنواعا مختلفة من الورود والأزهار . . ولكن جمال المكان كان يشوبه اهمال ظاهر ، فقد نما العشب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فوق الأرض ، وكانت أوراق الشجر تغطي دروب الحديقة

وفيما هو كذلك فوجىء بسماعه صوتا خفيفا من خلفه ، فلما التفت ليرى ما هناك ، وقعت عيناه على اجمل منظر شهده فى حياته كما صرح بذلك فيما بعد !

لقد رأى فتاة قادمة نحوه فى سكون دون أن تبدى دهشة أو خوفا !. وكانت طويلة القامة فى اعتدال ، ترتدى ثوبا حريريا مفضضا . ولها وجه مستطيل شاحب اللون تنم ملامحه عن سكينة وثقة . وكانت من الجمال والفتنة بحيث حسبها من الملائكة لا من البشر . . وأدرك من أول نظرة أنها الحسناء ذات الرداء الأبيض التى أنقذها من أيدى الأشرار منذ عام !

وكانت معها سيدة مسنة ترتدى ثوبا أسود ، وقفت وراءها كالديدبان! وقالت له الفتاة الحسناء :

ـ لقد اخترت طريقة عجيبة للدخول !. أم تراك قد سقطت من الجنة؟

فأجابها وفى صوته ما ينم عن فرط تأثره : « بل أحسبنى سقطت الى الجنة ! »

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت : «بل ربما الى الطريق المؤدى اليها . . من الخطر أن يقفز الانسان الى مكان دون أن يدرى أين تقع قدماه . . ماذا تريد هنا ؟ »

وكان صريحا فقال لها : « انى هارب من الموت ، وقد جئت أحتمى بهذه الدار ! »

ـ ولكنك وقعت بين ذراعى الموت !. . يا لك من بائس !. ان هذا البيت موبوء !

ـ موبوء ؟! ولكن لا . . ان الطاعون لا يمكن أن يمسك أو يقترب منك !

ـ أتحسبه يميز بين الناس ؟. ولكن لعله يفعل . . . فقد أصبت به . ثم شفيت منه . ولكن ربما يكون من الخطر الاقتراب منى . . ان كل شيء هنا مسمم !

ـ فليكن !. . ان ذلك لا يجعلنى آسف على أنى جئت الى هنا !

ـ بل ينبغى لك أن تأسف اذا كنت تريد الحياة !

ـ لقد وجدت حياتى هنا !

ـ لكى تموت غدا كما أخشى ؟!

ـ لا ضير على من ذلك !. . فانى أكون قد حييت يوما . . يوما فى مدى ثلاثين عاما !

ـ أحسب أننا نلعب بالألفاظ !. . ولعلك تحسبنى أمزح لكى أقتص منك على دخولك بغير اذن ، ولهذا تجيبنى بالأسلوب نفسه !

ثم أخذت تتفرس فى وجهه ثم قالت : « أحسبنى رأيتك من قبل !. . من أنت ؟ »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وكان واقفا أمامها بقامته الفارعة ، مرتديا بذلة «دل فاستو» الفاخرة، فقال لها :

ــ اسمى بروسبيرو أدورنو يا سيدتى . وأنا فى خدمتك !

وقد أزعجها ذكر هذا الاسم ، ولكنها احتفظت بهدوئها وقالت : « لقد سمعت عنك ! »

فقال لها : « عسى الا تكونى سمعت ما يسوء ؟ ! »

فسألته : « ألست الضابط الذى فر من الخدمة فى أسطول البابا ؟ »

فأجاب فى هدوء : « هذه هى الفرية التى يعبرون بهـا عن فرارى من القتلة ! »

ــ فسألته فى دهشة : « أى قتلة تعنى ؟ » . فأجاب بقوله :

ــ أعنى القتلة انفسهم الذين أفر منهم الآن .. القتلة من آل دوريا !

فقالت له : « قتلة من آل دوريا ؟ .. ما هذه القصة التى تقولها ؟ »

فقال لها : « أقول الحقيقة يا سيدتى !. ان ذلك البيت النبيل لا يرتاح الى وجودى على قيد الحياة ! »

فقطبت جبينها وبانت عليها الدهشة ، ثم وضح لها الأمر فقالت :

ــ لقد تذكرت الآن !.. انك انت الذى انقذتنى فى السـنة الماضية من بعض الجنود الفرنسيين فى هذه الحديقة !

ــ كنت آمل أن يكون الأمر كذلك

ــ كنت تأمل ؟ الا تذكر أنك أنقذت امرأتين هنا من الاهانة ومما هو شر منها فى اليوم الذى دخل فيه الفرنسيون جنوا ؟

ــ أجل انى اذكر ذلك .. وكان هنا رجل ممدد على العشب ، وهنـاك رجل شيخ جرح فى رأسه . وأنت ..

ثم سكت لأنه لم يرد أن يعترف بأنه لم يتذكر وجهها تماما !

وفى هذه اللحظة سمعا أصواتا فى الزقاق وغمغمة خارج الباب فسكتا لينصتا . ثم ارتفعت صيحة أعقبها ضجيج . فقال بروسبيرو همسا :

ــ ان هذا النبات الذى ساعدنى على القفز قـد حمانى الآن .. وانى لموقن أن الكلب الذى تعلق به منذ لحظة قد دقت عنقه

وكانت قد فارقها هدوؤها فقالت له :

ــ تعال معى .. انى لا أقدر أن آخذك الى داخل الدار خوف العدوى ولكن المضيفة (السلاملك) آمن لك . وما دام سوء حظك قد جاء بك الى هنا فيجب أن تقبل هذه المجازفة .. والله فى عونك !

ــ انى يا سيدتى لا أعد حظى سيئا من أجل ذلك ، بل أراه أسعد من كل ما كنت أتصور !

ومشى بجانبها ، والسيدة المسنة على مسافة قريبـة منهما . وبعـد خطوات وصلا الى باب الحديقة الموصد وكان هناك من يقرعونه ويصيحون : « افتح ! افتح ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فنظرت اليـــه الشابة متسائلة ورد عليهـــا بابتسامة وسألها : « هل الباب متين ؟ »

ــ ليس متينـــا الى الحد الذى يثبت معـــه حتى تصل الى المضـــيفة (السلاملك) وأشارت الى سياج من الأشجار وأمرته قائلة : «أدخل هنا!»

ــ الى متى يمكن هذا المكان أن يخفينى عن الأنظار ؟. هل معك رجال فى الدار ؟

ــ رجلان وأنت !. ولكن احد الرجلين شيخ ضعيف ، والثانى مريض بالطاعون فى فراشه !

فقال لها : « اذن . . لا بد لى من أن أواجه وحدى ثلاثة من الأعداء ! »

وتحسس بيـــديه سيفه وخنجره ثم قال لهـــا : « ستتاح لك بعض التسلية فيما أظن ! »

فضغطت بيدها على ذراعه وقالت له بصوت مرتعش : « سيحين الوقت لذلك اذا اكتشفوا مكانك . ولكنهم لن يجدوك اذا اختبأت ! »

واشارت مرة أخرى الى ذلك السياج ، بينما الضربات تتوالى على الباب ثم انقطعت بغتة وحل محلها سباب ، ثم صوت حوار ، فوقع أقدام تبتعد مسرعة !

وانصت بروسبيرو والشابة الحسناء حتى بعدت أصـــوات الجنود ، فابتسمت ابتسامة هادئة . ثم سألها : « ما الذى أفزعهم ؟ »

فقالت : « لقد رأوا علامة الصليب على الباب . . وكنت عازمة على أن اريها لهم لو انهم اقتحموا الباب . . . ان أكثر الناس لا يحتملون رؤيتها !»

وتنهدت ثم نظرت اليه نظرة حزينة وقالت : « لعلى أوفى ببعض الدين الذى فى عنقى لك . وانى لأحمد المصادفة التى اتاحت لى ذلك ! »

فقال لها : « ليس فى الأمر مصادفة سوى أنى سلكت هـــذا الطريق . ولمـــا وجدت نفسى أمام هذه الدار فكرت فى أن أطالب بالوفاء ! »

ــ وددت لو استطعت أن أوفى بأكثر مما يتاح لى الآن . ولكن ليس من الحكمة الوقوف هنا . . فان الهواء غير مأمون !

ــ وهل الأمان هو كل شىء ؟

ــ ألم تأت الى هنا طلبا للأمان ؟

ــ ولكن ذلك كان فى حياتى الماضية . أما الآن فقد ولدت من جـــديد بعد أن رأيتك . فقطبت جبينها وقالت : « سيدى . . ما دمت لا أقدر أن أعرض عليك الضيافة فى بيتى فلا عذر لى فى ابقائك هنا !

ــ لا عذر ؟! أجل !. ولكن هناك سبب . . فانى اذا ذهبت من هنا فذلك لكى أفقد حياتى التى انقذتها أنت الآن . . لا أمان لى فى جنوا !

ــ وما الذى يحول دون خروجك منها ؟

ودقت ساعة الكنيسة فى تلك اللحظة فقال لها : « هذا هو الجواب . . ان أبواب المدينة ستغلق الآن . ولا بد لى من البقاء حتى غد على الأقل ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ولم تجب الفتاة وانما رسمت على صدرها علامة الصليب،ووقفت هي والمرأة المسنة حانيتي الراس وأخذتا تتمتمان بالصلاة لمناسبة الغروب، وكشف بروسبيرو رأسه وصحبهما في صلاتهما !

ولما انتهت الصلاة نظرت اليه الفتاة في الغسق وبينت له الموقف قائلة : « لست اقدر أن آخذك الى داخل الدار لأن العدوى فيه شديدة الخطر، واحد الخدم راقد هناك يجود بروحه متأثرا بالوباء . ولكن المضيفة التى اتخذتها مسكنا منذ شفائى قد يكون الهواء بها أنقى مما بالدار. فاذا رأيت ان تجازف في حالتك الراهنة فأنا أضع ذلك المبنى تحت تصرفك ! »

فقال لها : « ان الخطر ماثل فى جنوا كلها فأنا بذلك لا أجازف بشيء ! »

ونادت الفتاة « بونا » التى كانت تتبعها،وجعلتها تتقدمها لتوقد الضوء ثم قادته الى غرفة مستديرة ذات اثاث فاخر . وقد علق بالسقف مصباحان جميلان

ثم ذهبت بونا الى الدار لتجيئه بالمسموح به من الطعام ، وهو البيض والنبيذ . ولما عادت حذرتها سيدتها من أن تخبر احدا بوجود هذا الضيف ثم دعت بروسبيرو الى الجلوس والراحة فقال لها : « لقد وجدت محرابا فى معبد ! »

ـ لعلك تقصد معبد اله وثنى !

ثم أخذت تذكر له طرفا من معيشتها ، فعلم انها وحيدة من سلالة بيت موناالدى ، وقد مات أبوها ، ولا يعيش معها فى هذا القصر الفسيح الا مربيتها بونا والرجلان اللذان اشارت اليهما ، كما ذكرت له أن هذا القصر الذى تسكنه ملك خالها المركيز دى فنارو . . وقد مرض قبلها بالطاعون ومات به فى « بادوا » ولم تجرؤ أرملته على العودة الى جنوا خوف العدوى . ثم قالت له : « انى مدينة بحياتى لبونا الوفية مربيتى منذ صغرى فقد سهرت على تمريضي حتى شفيت من الطاعون . ولم تصب هى به لاكتسابها مناعة ضده منذ اصابها فى صغرها !

ولما همت بالإنصراف قال لها : « عبثا أبحث عن الكلمات التى تعبر عن شكرى لك ! »

فقالت له : « لا تنس انى أؤدى بعض دين لك فى عنقى ! » . . ثم حيته وانصرفت ، وتبعها بنظراته حتى اختفت ، ثم بقى هنيهة لا يحيد ببصره عن الموضع الذى اختفت فيه !

وقبل أن ينام فى تلك الليلة وضع اغنية شعرية وصف فيها كيف هرب من الموت الى الحياة !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

غرام وانتقام

استيقظ بروسبيرو أخيرا وهو يشعر بألم فى رأسه وثقل فى جسمه . ووجد على صدره بقعا عرف أنها بصمات أصابع الطاعون ، يتركها حيث يحل !

ونظر حوله محاولا أن يتذكر أين هو ، فالتقى نظره بنظر شيخ عجوز نحيل يقف بجانب السرير ، فقال له : « كم الساعة ؟.. من أنت ؟ »

فقال له الشيخ وقد بدا عليه الارتياح : « الحمد لله !.. لقد عادت اليك الروح أخيرا .. ولكن يجب أن تظل راقدا ولا تقوم ! »

ثم تحسس جبينه بيده وقال له : « لقد ولت الحمى !. وكل شىء سيكون على ما يرام يا سيدى ! »

فحملق فيه بروسبيرو ثم قال : « ولكن ما هذا الألم الذى أعانيه ؟.. كم الساعة الآن ؟ »

ــ لقد اقترب الظهر .. واليوم يوم مولد القديس سانت لورنس .. اليوم العاشر منأغسطس. ففكر بروسبيرو هنيهة ثم قال : « لقد نسيت السنة يا سيدى ! »

فضحك الرجل وقال : « ما دمت تمزح هكذا .. فهذا دليل على أنك قد شفيت تماما ! »

فسأله : «مم شفيت؟» . وأجابه الشيخ وهو يبتسم : « من الطاعون طبعا !.. لقد مكثت هنا أسبوعين وأنت بين الحياة والموت . ولكنك فتى قوى البنية وقد قهرت الوباء ولله الحمد ! »

ــ الطاعون ؟ ! هل قلت أنى مكثت هنا أسبوعين ؟! .. من أنت أولا ؟

ــ أنا أمبروجيو خادم المادونا(العذراء)

ــ المادونا ؟.. من تعنى ؟

وفى هذه اللحظة سمع حفيف ثوب ، ثم دخلت الحسناء ربة الدار فقال لها امبروجيو : « لقد استعاد وعيه ! ألم أقل لك أنه سوف يشفى ! »

ولما رآها بروسبيرو أمامه بكل فتنتها قال لها :

ــ لقد استغللت كرمك يا سيدتى . فانى كنت قد رجوت أن تأوينى ليلة واحدة واذا بى قد مكثت أسبوعين !

فارتاعت من ضعف صوته وقالت له همسا : « صه !.. يجب أن تستريح . وسنتحدث معا حين تستعيد قواك ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد استرد قوته بأسرع مما كان يرجوه ، والفضل فى ذلك لحسن التغذية وعناية امبروجيو وبونا . وكانت الفتاة صاحبة الدار تزوره كل يوم ومعها أزهار يانعة تزين بها غرفته ، فيحرص على أن يرمقها بنظره لا يحيد به عنها كيلا يفوته شيء من فتنتها .. لكنه كلما أراد أن يفتح معها باب الحديث كانت تسكته خوفا عليه من التعب ، وتعده بأن تتركه يتحدث كما يشاء حين يشفى تماما .. وكان ذلك وحده كافيا لأن يتوق الى الشفاء وأن ينفض عنه كل أثر للمرض بأسرع ما يستطيع !

وأخيرا جاءت اليه يوما وقد عاد أشبه ما يكون به يوم تسلق سور الحديقة .. وكان امبروجيو قد حلق له لحيته وساعده على ارتداء بذلته . وما أن دخلت الغرفة ووجدته قائما حتى انبته على تركه الفراش قبل الأوان ، فابتسم لها وتقبل تأنيبها راضيا . ثم قالت له : « لقد صبرت على مرضك صبر الشهيد ! »

ــ صبر الشهيد الذى دخل الجنة !

ــ ان الطريق اليها يمر بأبواب الموت وقد أغلقت دونك !

ــ كلا !.. بل الطريق اليها كان بتسلق سور !

فقالت له : « ما أعظم ثروتك من الكلام !. لكأن الألفاظ عندك خرز تصوغه قلائد ! »

فنظر اليها وقال : « انى مدين لك بفضل لا يقدر !. ومع ذلك لست أعرف اسمك .. لا بد أنه جميل مثلك ! »

فقالت : « ان أصدقائى يسموننى جيانا !

فقال لها : « اذن .. دعينى أنا أيضا أهتف بهذا الاسم .. انك لى أكثر من صديق .. واننى .. اننى بمثابة طفلك الذى حنوت عليه .. ولقد أنقذت حياتى مرتين ! »

فابتسمت وهى تنظر اليه فى حنو ، وقالت له :

ــ فليكن ذلك يا بنى !. بشرط أن ترعى واجبات البنوة !

فقال لها : « سأكون لك الابن البار المطيع ! »

ومكثت معه مدة أطول فى ذلك اليوم .. وفى اليوم التالى تناولت معه طعام الغداء فى المضيفة ، وكانت بونا وامبرجيو يقومان على خدمتهما !

□

وانقضت على هذه الحال سبعة أيام وهو يخيل اليه انه فى حلم من الأحلام السعيدة . وكان ذلك القصر الهادىء بمثابة واحة وسط المدينة الموبوءة . وكانت تصل الى سمعهما انباء الحالة السياسية ، وقد بدأت الحرب تميل كفتها ضد فرنسا لصالح الامبراطور شارل الخامس امبراطور اسبانيا . وشاع أن الأميرال اندريا دوريا خرج على طاعة ملك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فرنسا ، وأنه مكث فى قصره بليريسى ينتظر حتى تجهز سفنه الحربية بالعتاد والرجال . وكانت ايطاليا كلها ترقبه وتتساءل عما يعتزمه !

وضحك بروسبيرو حين سمع ذلك وقال لصاحبته : « انى اعرف ما يعتزمه .. سيقبض أجره من الامبراطور ويعيد جنوا الى حماية أسبانيا

فقالت له : « الا ترى أن حكمك عليه انما يصدر عن بغضك اياه ؟ »

ـ وهل تلومينني اذ أبغضه بعدما قلته لك ؟

ـ لعلك لا تريد أن تعلم وجهة نظر الأميرال ... ان ملك فرنسا قد حنث بعهوده له فيما يتعلق بجنوا !

هذا ما يقوله دوريا ليبرر تقلبه .. أفتصدقينه ؟

ـ انه لم يخطىء نحوى حتى يتأثر رأيى بذلك !

فقال لها : « هنـاك مثل يقول : ان ما يريده الشعب يريده الله . فهل أهالى جنوا يصدقونه ؟ »

ـ انهم يصدقونه حين يطرد الفرنسيين من جنوا وبذلك يصلح خطأه الماضى !

ـ اذن ثقى بأنه سيطردهم !.. لكى يستعيد ثقة الشعب به ويصبح رجل الدولة من جديد !

ـ انك تقسو فى حكمك عليه !

ـ الأنى أعده بلا مبدأ ؟. أليس لى الحق فى ذلك ؟. ألم يحنث بعهده لى حتى أضطر أبى الى الهرب ومات يأسا وكمدا ؟!

ـ لقد كان ذلك من عمل آل فريجوزو !.

ـ ان آل فريجوزو ليسوا شيئا مذكورا دون معاونة دوريا لهم ... وما كانوا ليفعلوا شيئا وحدهم . تصورى انه جعل من « أوثافيونى » رئيسا للدولة !.. ما أبدعه من رئيس ! تصورى أنه قد اجتمع على جنوا هذا الرئيس والطاعون والأميرال دوريا !

فوضعت يدها على ذراعه كيلا يسترسل فى الكلام وقالت له :

ـ انى أدرك شعورك ولكن ...

وأرادت أن تقول شيئا ثم امسكت .. وبعدئذ قالت له : « لست أرى معنى لأن تجعل الانتقام غايتك من الحياة ! ان الضغينة تفسد القلب ! »

فلم يزد على أن تنهد ... ثم قال لها : « انه واجب فى عنقى لآل بيتى المنفيين فى الخارج ! »

فقالت له : « لقد نفوا لأنهم كانوا ضد حكم الفرنسيين .. وسيعودون متى زال هذا الحكم .. اليس هناك مجال للصلح ! »

فصعد الدم الى وجهه وقال : « الصلح ؟ » . لكنه كتم شعوره وقال : « يجب أن يكفروا عن سيئاتهم نحونا أولا ..! »

وسكت لحظة ثم قال لها : « لا ينبغى لك أن تشغلى نفسك بشجونى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ياجيانا .. اني قادر على حمل همومى وحدى ! »

وكان وهو يقول ذلك يشعر بأن واجبه ليس هنـا فى الراحة والحب . ولكن واجبه فى نابولى مع أمير أورانج ، بوصفه ضابطا من ضباط الجيش الامبراطورى . وأن خروج دوريا على ملك فرنسا وسحب أسطوله قد يتطلب قائدا بحريا .. على أن واجبه الأول نحو امه ، فعليه أن يزورها فى فلورنس . وقد صارح جيانا بذلك فى اليوم التالى ، ولم يبالغ اذ قال لها : لكأنى أنتزع روحى من جسدى ! »

وكان الوقت مساء ، وقد جلسا وحدهما فى السلاملك . فلم تجب على ما قاله وانما أمسكت عودا وأخذت تغنى الأغنية التى كان قد ألفهـا ليلة جاء الى تلك الدار أول مرة .. فأخذ يستمع اليهـا بمزيج من الدهشة والفرح والحزن معا !

ثم تركت العود جانبا وقالت له : « انها ألفاظ جميلة صغت منها عقدا .. ألفاظ زاهية كالخرز الزاهى ! »

فهز رأسه وشحب وجهه وقال بلهجة الجد : « كلا يا جيانا !.. انهـا ليست ألفاظا ولا خرزا ! انها لآلىء !.. ان اللآلىء صنو الدموع .. وما هذه الأبيات الا دموع طاهرة نقية كأصدق ما تذرف الدموع !.. ولكن كيف وقعت على هذه الأبيات من الشعر ؟ »

ــ لقد وجدتها مكتوبة على رقعة من الورق فى صباح اليوم الذى مرضت فيه . وكان عنوانها « الى السيدة ذات الثوب الفضى » . وحسبتها أولا خطابا منك كتبته الى ..

ــ لقد كانت كذلك فى الواقع . ثم ماذا ؟

ــ ثم قرأتها فتمنيت لو كانت موجهة الى !

ــ تمنيت ؟ !

وكأنما أدركت أنها اقرت بأكثر مما تريد ، فبان عليها الفزع ، وغاض الدم من وجهها ، وأرخت بصرها .. فقال لها برقة : « يا جيانا اذا كان ذلك حقا ، وأسأل الله أن يكون كذلك ، فلن نحتـاج الى كلام !.. لقد صرت لك وصرت لى منذ الساعة السعيدة الاولى التى التقينا فيها ! »

فقالت له دون أن ترفع بصرها اليه : « لقد كان أول شعور لى هو أن الأغنية كاذبة .. وانك لم تهرب كما ورد فيها من الموت الى الحياة .. ولكن هربت من الموت الى الموت . ولما ولى عنك الخطر صار خوفى أشد من قبل .. فقد خفت أن تكون تلك الأغنية ليست أكثر من نزوة ! »

فغمغم قائلا : « يا مهجة القلب .. ليس لى من الفن ما أعبر به عن كل عاطفتى !.. ولكنى سأحاول .. واذا كان لى أن أؤلف الأغانى فانى سأغنى الآن كما يغنى البلبل من النشوة ! »

ــ ولكنك تريد الرحيل ؟

ــ وا أسفاه !. على واجب أؤديه .. والى أن انجزه لست ملك نفسى ،

www.ibtesama.com/vb Exclusive



وأمسكت جيانا عوداً وأخذت تغنى أغنية كان قد ألفها بروسبيرو ،
فأخذ يستمع اليهـا بمزيج من الدهشة والفرح والحزن معاً

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومتى أتممته عدت اليك . أفتنتظرينني يا جيانا ؟

فرفعت نحـوه بصرها ببطء وقالت له : « أنتظـرك ؟. حتى تأخذ بالثأر ؟. أنتظر حتى تعود الى وقد لوثت يداك بالدم ؟ أهـذا ما تدعو الله به ؟

فارتاع من قولها هذا وأجاب قائلا : « هل أجرؤ على المجيء اذا كان ذلك مقدرا لى ؟

فسكتت برهة ثم قالت له : « لقد قلت لى انك تحبنى يا بروسبيرو »

ــ بل أنا أعبدك كما تعلمين !

ــ وقد قلت ان لى حقا عليك . . بل طلبت الى يوما أن اعدك ولدى لأنى انقذت حياتك مرتين فكأنى ولدتك مرتين !

ــ أجل !. وحياتى قد أصبحت ملكا لك . . فافعلى بها ما تشائين !

ــ أأنت صـادق فى هـذا القول ؟. اذا كنت صادقا يا بروسبيرو فانى أريد منك أن تترك فكرة الانتقام !

ــ ولكن شبح أبى يطاردنى فى هذه الحالة !

ــ ان الموتى فى سكون وامان ولا تزعجهم اخطاؤنا !

ــ ولكن هناك أحياء . . واذا لم أنتقم من آل دوريا فان كل فرد من بيت أدورنو سينظر الى نظرة احتقار . . فهـل ترضين الزواج برجل محتقر ؟

ــ بل أكون فخورة بذلك !. لأنه يكون رجلا شجاعا . . اما الانتقام فهو مكروه من الله !

فابتعد عنها قليلا وقال لها : « لقـــد حطمت قلبى يا جيـانا !. لشدما يؤلمنى أن أرفض أول رجاء لك ، وانا الذى أود لو أضحى حياتى فى سبيلك ! »

ــ انى أطلب اليك ما هو أقل من ذلك كثيرا !

ــ بل ما هو أكثر !. . انك انما تطلبين أن أضحى بشرفى !

ــ كلا ! بل أطلب أن تضحى سوء فهمك للشرف !. ان الانتقام لا شرف فيه !. على أنه اثم كبير

ــ قد يكون كذلك ولكنى أقسمت امام نعش ابى لأنتقمن له !

ــ يستطيع أى قسيس ان يحلك من هذا القسم !

ــ ولـكنى لا أقدر أن أحل نفسى منـه !. آه يا جيانا !. يا عزيزتى جيانا !

وارتعشت شفتاها تأثرا من توسله . . ثم قالت له : « لا تطلب منى ما لا طاقة لى به !. فكر فى الأمر عسى الا نكون قد التقينا لنفترق !

ــ هذا لن يكون !. أتحسبين أن لقاءنا كان مصادفة ؟. لقد أراده لنا القدر !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ـ اذا كان الامر كذلك فلا تفعل شيئا ضد مشيئة القدر .. ان الامر فى يدك يا عزيزي !

ـ أتخيرينني بين هذا وذاك ؟

ـ وا أسفاه !. انني لا أستطيع غير ذلك !. ولكنى سأدعو الله أن يلهمك الصواب فى الاختيار !

ونهضت جيانا فتقدم نحوها يريد أن يعانقها ولكنها ابت قائلة له : « لم يحن الوقت لذلك يا عزيزى ! طهر روحك أولا من ذلك الشر .. ثم اطلبنى حين تشاء ! »

فرمقها بنظرة حزينة وقال لها : « انك تدفعينني الى اليأس !. يا ليتك تركتنى لأموت !

ـ سأذهب الآن لأصلى لك ولنفسى يا بروسبيرو !.. واذا استطعت أن تختار بين فكرة الانتقام وبينى ، فأخبرنى قبل أن ترحل ... والا ... فالله فى عوننا !. انى أعلم أنى وقتئذ سأحتاج الى التماس القوة منه جل شأنه !

ومضت تريد الخروج فاندفع وراءها قائلا :

ـ جيانا !.. سأراك قبل أن أرحل

ـ لنوفر على نفسينا الألم فان عندنا الكفاية منه الآن !

ـ أأنت قاسية الى هذا الحد ؟ !.. كنت أحسبك أرق من ذلك كثيرا .. بل حسبت أنك الرقة مجسمة !

ـ ان ما طلبته منك ليس قسوة !. فكر فى الامر يا بروسبيرو .. قد يساعدك التفكير على أن تنظر الى المسألة بمثل ما أنظر اليها !

وخرجت على أثر ذلك ، فلم يحاول منعها أو اللحاق بها !. ولكنه بقى ينظر اليها وهى تمضى فى الحديقة كما فعل ليلة وصوله الى الدار .. على أن الفارق كان كبيرا بين الحالين ، ففى المرة الاولى كان ينظر اليها فى عجب ونشوة .. أما فى هذه المرة فان فى نفسه مزيجا من الألم والكدر معا ، لا يدرى أيهما اشد من الآخر !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

نصر باهر

غادر بروسبيرو دار جيانا فى صباح اليوم التـالى ، ولم يرها قبـل رحيله فى ذلك اليوم ، فلما بلغ باب الحديقة أخرج رقعة مكتوبة وسلمها الى امبروجيو ليسلمها الى سيدته ، وكان قد كتب على هذه الرقعة اغنيته العشرين وعنوانها : « وداعا يا سعادتى ! »

ومضى فى طريقه مستقلا الجواد الذى أعد لسفره عليه ، وكان قلبه يخفق بشدة ، وصدره يغلى بالرغبة فى الانتقـام من آل دوريا ، وقد أضاف فشله فى حبه ، جريمة جديدة كبرى الى جرائمهم العديدة فى حقه وحق ذويه !

وفكر فى موقف جيانا منه ، ولم يلبث حتى ولى عنه كدره منهـا ، وأيقن أنها تطلب اليه ما طلبته الا لنبلها وطهر نفسها ، فزاد ايمانا بأنهـا ملك هبط من السماء !

ولم يصادف فى طريقه أى حادث ، حتى وصل فى مساء يوم من أيام أغسطس الى مدينة فلورنس ، فقصد الى بيت متواضع كانت أمه قد سكنته وعاشت فيه على احسان آل شروتزى ، عيشـة لا تليق بمن كانت مثلها منبتا ومركزا !

وقد استقبلته بحنان وقالت له :

ـ لقد مكثت أنتظرك أسابيع بعد أن جاءتنى رسالة من الفونسو أنبأنى فيها بفرارك . ولما انقضت أيام عديدة بدأت أقلق !. ثم أخذت تحدثه عن سوء معيشتها ، وتأثرها بسوء معاملة فليبينو له. واختتمت حديثها قائلة : « ان ما أصابك يتصل اتصالا وثيقا بحياتك كجندى ! . أما الذى أصابنى فلا ذنب لى فيه سوى اننى تزوجت رجلا ضعيف العزيمة وولدت ابنا نشأ مثل أبيه ! »

وقد سكت على لومها له ، ولكنه دافع عن ذكرى أبيه . . . وأراد أن يرضيها فقال لها :

ـ انى منتظر فرصة مواتية لأنتقم من آل دوريا

فقالت له : « ان الرجل ذا العزيمة لا ينتظر الفرص بل يخلقها خلقا ! »

ولما حدد موعد رحيله بعد يومين ضمته الى صدرها وبكت بكاء مرا !

ثم ذهب الى ليجهورن ، واستقل منهـا سفينة الى نابولى . . وقد تفادى السفن التى تحاصرها بالسير فى ظلام الليل . على أن الحصار لم

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يكن محكما فقد بدأ ينهار ، واذا كان « لوتريك » قد أصر على بقائه بعناده المعهود فان جنوده كانوا قد انتشر بينهم الطاعون فقل ضغطهم على المدينة . وكانت سفن البندقية قليلة الجدوى تحت قيادة «لاندو» الذي كان عليما بضعفها فأغراه ذلك بالتهاون !

واستقبله أمير أورانج فى قلعة « نوفو » بالترحاب والدهشة معا . وقال له :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب .. فهناك سفن قد شحنت بالزاد والمؤونة فى « بيومبنيو » لتفرغ حمولتها فى نابولى كى تقضى على المجاعة بها . وقد جمع الضابط دون رامون فارجاس أسطولا صغيرا من السفن الحربية لحماية تلك السفن ، وزودت خمس منها بالرجال والعتاد ، ولكن ذلك الضابط لا خبرة له بالبحر ، وليس لمثل هذه المهمة غير ضابط بحرى كفء مثلك يا بروسبيرو . فاذا استطعت أن تقتحم الحصار البحرى المضروب على نابولى فانك تؤدى بذلك خدمة جليلة للأمبراطور وقضيته . لأننا متى قويت جيوشنا بتلك المواد الحربية أمكننا أن نصمد حتى يفت فى عضد الفرنسيين تماما !

وقبل بروسبيرو تلك المهمة بغير تردد .. وبعد يومين كان مع « فارجاس فى « بيومبنيو » .. ووجد كل شىء على ما يرام .. وكان فارجاس قد أضاف فى آخر لحظة سفينة سادسة الى تلك السفن الخمس التى ذكرها أمير أورانج . وكانت سفن المؤونة ستا كذلك مشحونة بالقمح وغيره من الزاد الى أقصى ما تحتمله حمولتها !

وبهذا الأسطول غادر بروسبيرو ذلك الميناء توا ، وساعده الريح حتى وصل الى جزيرة بروسيدا فى شمال نابولى ، فاعتصم بها ليلا حتى لا تشعر به سفن البندقية . وكان مرساه بالجانب الشمالى من تلك الجزيرة مخبأ صالحا لسفنه . ثم سمح للمجذفين بالنوم خمس ساعات. أما هو فنزل الى البر ووقف برأس روشيوزا يستعرض ذلك الخليج الفسيح ويدرس المضايق التى بين تلك الجزيرة والارض الرئيسية . ومكث هناك كأنه ديدبان حتى الساعة التاسعة صباحا اذ أبصر أسطول البندقية الذى يحاصر نابولى وهو يسير حول رأس بوزيلينو . وعد عشر سفن قدر معدل سرعة كل منها بما لا يزيد على ميلين فى الساعة !

ولما عاد الى سفنه ، دعا فارجاس ووضع تحت قيادته ثلاثا من سفنه وأوضح له خطة العمل بالتفصيل

وبعد ساعة تقريبا ، أى حوالى الساعة العاشرة صباحا ، ابصر أحد الضباط الذين يعملون تحت امرة لاندو ، سفينة نقل تحرسها ثلاث سفن حربية خارجة من مضيق بروسيدا ، فعجب من ذلك وقال لنفسه : « اذا كانت هذه السفن اسبانية قاصدة الى نابولى فان تهورها يدعو الى الاعجاب حقا ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفى تلك اللحظة صدرت اشارة من سفينة القيادة بالتحرك لملاقاة تلك السفن ، فأعمل الأسرى مجاذيفهم ، وسارت سفن البندقية نحو بروسيدا وقد أخذت تكون نصف دائرة لتحيط بالسفن الاسبانية القليلة !

وكانت سفينة النقل الاسبانية تقترب من رأس ميزنو ، وقد انحرفت نحو الشرق كأنما لمحت سفن العدو بعد فوات الوقت ، بينما سارت وراءها السفن الحربية الثلاث فى اضطراب ظاهر ، ومضت فى جنوبى بروسيدا قاصدة الى مضيق ايشيا للفرار عن هذا الطريق

واخذ « لاندو » فى مطاردتها ، ولكنه خشى أن يكون فى الأمر مكيدة ، اذ ربما تقوده تلك السفن الاسبانية حول الجزيرة وهى سابقته بمسافة ، ثم تمضى الى الخليج توا عبر مضيق بروسيدا .. وبذلك تجد الطريق مفتوحا أمامها الى نابولى .. وقد حسب أنها فكرة شائقة حقا ولكى يفسدها على العدو ترك أربعا من سفنه تحت قيادة ضابط بحرى قدير يدعى فيليسيانى ليقوم بالطواف فى البحر ، بينما واصل المطاردة بالسفن الست الاخرى !

ودخلت سفينة النقل فى المضيق الذى بين الجزيرتين ثم أسرعت بمساعدة الريح على طول شاطىء ايشيا ، سابقة السفن الثلاث التى تحرسها بمسافة غير قليلة . ولما وصلت سفن البندقية الى مدخل المضيق كانت السفن الامبراطورية قد غابت عن النظر ، فكان من الواضح أنها اتجهت نحو شمال بروسيدا . ومعنى ذلك أنها كانت تنفذ الخطة التى توقعها لاندو اذ تستدرج سفنه حول الجزيرة ثم تجرى الى نابولى . فحمد لاندو لنفسه ذكاءه ، وعزم أن ينقض على مؤخرتها بينما يقطع فيليسيانى عليها الطريق من أمام ، وبذلك يسهل عليه أسرها !

وفى الوقت نفسه دخلت سفن فيليسيانى القناة الشرقية ، وكان قد لازم شاطىء الجزيرة كى يستر سفنه عن أنظار العدو . فلم ير السفن الثلاث التى سارت حول رأس شيوبيتو حتى كادت تنقض عليه . وقد أيقن من أول نظرة أن هذه السفن ليست هى التى راح لاندو يطاردها ، لكنه تذكر أن سفنه تزيد عليها عددا .. فأمر على الفور باعداد المدافع الثقيلة للضرب وقد جعل وجهتها نحو البر !

ولعل هذه الخطة كانت تنجح حيال عدو أقل عزما وسرعة من بروسبيرو . ولكنه أمر باطلاق المدافع من سفنه الثلاث دفعة واحدة على سفن البندقية ، مع جعل هدفها واطئا . وكان لا يفرق بين الاسطولين سوى مسافة ثلاثمائة ياردة تقريبا ... وكانت النتيجة مروعة فقد أصيبت سفينة فيليسيانى نفسه وفتحت ثغرة كبيرة فى سفينة ثانية فأقعدتها عن الحركة . وانقضت سفن بروسبيرو الثلاث على السفينتين الباقيتين !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

واجتمع أهالى الجزيرة ليشهدوا القتال من المرتفعات الواقعة بين روشيولا وشيوبيتو ، واذا بالسفن الست المحملة بالمؤونة قد جاءت حول الرأس الاخير تتبعها السفن الحربية الثلاث التى تحت قيادة فارجاس . ومضت هذه السفن فى طريقها قدما نحو ميناء نابولى طبقا للخطة المقررة من قبل .. ثم جاءت سفينتان من السفن الحربية الثلاث فاشتركتا فى القتال الدائر ووصلت الى نتيجة حاسمة . أما السفينة الثالثة فاشتبكت مع احدى السفينتين التابعتين للبندقية وكانت قد تهيأت للقتال بعدما أصابها من ضرر . أما سفينة فيليسيانى فقد أخذت تغوص فى الماء !

وكان لاندو لا يزال وراء الجزيرة على بعد ميلين أو أكثر ، لكنه لم يعد يضحك ساخرا ، فقد سمع طلقات المدافع ، وأدرك أنه خدع شر خدعة .. فأعمل سياطه فوق ظهور الأسرى ليسرعوا فى التجذيف ، واسرع بسفنه حول رأس شيوبيتو .. وهناك وجد نفسه أمام ست سفن أمبراطورية واقفة فى صف واحد ، بينما لم ير من سفن فيليسيانى الاربع سوى ثلاث سفن مصابة وقد وقعت فى أيدى الأعداء . وفى الوقت نفسه رأى سفنا تجرى نحو ميناء نابولى دون أن يعوقها حائل ، فأراد اللحاق بها وأصدر أمره بالتجذيف ، لكن الأسرى كانوا قد استنفدت قواهم ودميت ظهورهم من وقع السياط ، فلم يلب نداءه أحد منهم وانكفأ أكثرهم على المجاذيف وقد كفوا عن الحركة . أما الأقوياء منهم فقد هرعوا الى جرادل الماء ليطفئوا ظمأهم

أما بروسبيرو فلم ير داعيا للاشتباك مع سفن لاندو ، بعد أن وصلت سفن المؤونة الى بوزيلينو ولم يبق شك فى أنها ستدخل ميناء نابولى . غير أنه لم يرد أن يدع للعدو أية فرصة ، فأمر بالاتجاه نحو نابولى ومعه السفن الثلاث الاسيرة . ولم ير « لاندو » أن يلاحقه خشية الهزيمة المحققة .. وهكذا تبع بروسبيرو بعد ظهر ذلك اليوم ، سفن المؤونة الى نابولى .. وقد استقبل هناك استقبالا لم ينعم به قائد بحرى من قبل ، واشترك فى استقباله الأهالى الذين أنقذهم من المجاعة جميع نوتية سفن المؤونة التى كانت راسية بالميناء . ثم نزل عند اللسان الذى يعلوه برج « سانت فنسنت » فوجد أمير أورانج فى استقباله ؛ وقد عانقه كما يعانق الأخ أخاه

وقال له الامير وهو يهنئه : « حقا انه لعمل نادر ، أن تخرج الى البحر بست سفن وتعود بتسع بعد أن تهزم أسطولا هو ضعف أسطولك عددا !. وان طريقة انتفاعك بالجزيرة لهذا الغرض تستحق أن تسجل فى تاريخ الحروب !.. انها قصة سوف تبهج الامبراطور حين يسمعها ، وسأبعث اليه بها الآن ، لصالحك وصالحى ، وقد كان لى فخر اختيارك لهذه المهمة !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

صلح وزواج

لم يأت شهر سبتمبر حتى كان العالم يردد ما قاله أمير أورانج من كلمات الاعجاب ببروسبيرو ادورنو . وقد وصل نبأ ذلك النصر الباهر الى الامبراطور فى مدريد فكان نبأ سعيدا وسط أنباء كثيرة محزنة عن الحالة فى ايطاليا

وسمعت به أيضا والدة بروسبيرو وهى فى فلورنس فملأ قلبها فخرا بولدها . وذاع النبأ كذلك فى جنوا ففرح أهلها لانتصار سفنهم على سفن البندقية ولكون بطل تلك المعركة واحدا منهم . وقد عاد اسم أدورنو فجأة الى الظهور وبات الناس يلومون آل دوريا لكونهم السبب فى نفى أولئك الأمجاد ، ولم تمض أيام حتى كانت جنوا كلها تنادى بعودتهم اليها !

وعلم بالنبأ فليبينو دوريا وهو فى ليريس ، فاشتد حقده على بروسبيرو .. وتذكر ما سمعه من عمه الاميرال اندريا دوريا حين علم منه أنه جعل بروسبيرو يعمل على مجذاف كحثالة الأسرى ، فقد استاء الاميرال يومئذ واستشاط غضبا وقال له : « هل جننت ؟.. ألا تعلم أنه لا فائدة من التشفى والانتقام سوى زيادة العداوة والبغضاء ؟.. لقد أتيت عملا وحشيا ! »

ولما حاول تبرير عمله هذا مذكرا عمه بأنه هو نفسه اتخذ مثل هذا الاجراء مع الريس ياقوت ، رد عليه الاميرال بأن هناك فرقا بين هذا وذاك ، فالريس ياقوت عدو أجنبى مبين ما فى ذلك شك ، أما بروسبيرو فمواطن له ولأسرته أنصار كثيرون ؛ وكان ينبغى لهذا كسب مودته بالمعاملة الحسنة بدلا من الامعان فى اهانته الى هذا الحد واضافة ثأر جديد الى ما له ولأسرته من ثارات لدى آل دوريا !

وقد تذكر الاميرال نفسه كل ذلك ، حين ذهب اليه فليبينو شاكيا من ارتفاع مكانة بروسبيرو فى جنوا بعد أن حاز فخر ذلك الانتصار فى واقعة بروسيدا .. فقال لابن أخيه فى غضب واستياء : « هذا ما كنت أخشاه ، وقد حذرتك من قبل ! » . ثم أوصاه بترك الحقد والضغينة ، وبألا يشغله بعد ذلك بالحديث فى مثل هذا الشأن !

والواقع أن الاميرال أندريا دوريا كان لديه وقتئذ ما يكفيه من الشواغل ، فقد كان عليه أن يجهز أسطولا من السفن على حسابه !.

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد يئس من أن يعوضه ملك فرنسا عن النفقات الطائلة التى انفقها فى خدمته ، فعمد الى وسيلة اخرى لجمع المال اللازم له بقبول افتداء كبار الأسرى المسلمين ، وكان الريس ياقوت فى مقدمة هؤلاء ، فأطلق سراحه لقاء ثلاثة آلاف دوكات افتداه بها خيرالدين بربروسا «ذواللحية الحمراء»

وعجب بروسبيرو حين سمع بذلك وهو فى نابولى ، لأن ياقوت أسيره هو ، وقد سبق له أن عرض على الاميرال عزمه على اطلاق سراحه لقاء فدية فرفض الاميرال ذلك معللا رفضه بأن المصلحة العامة تقضى بالاحتفاظ به اسيرا حتى لا يعود الى مثل المعارك البحرية التى انتهت بأسره بعد قتال عنيف !

وكان انتصار بروسبيرو قد قضى على الحصار المضروب على نابولى ، فاضطر لاندو الى الانسحاب بما بقى من أسطوله خشية أن ينقض عليه بروسبيرو بسفنه بعد أن يتم اصلاحها . وهكذا أصبح بروسبيرو مسيطرا على الميناء والترسانة ، وبذلك انقلب الوضع فصار أتباع الامبراطور سادة البحر ، يتلقون المؤن والامدادات ، ويحولون دون وصولها الى المحاصرين .. وقد ساءت حالة الفرنسيين وتضعضعت روحهم المعنوية من أثر الطاعون ، خصوصا بعد أن راح قائدهم المارشال دى لوتريك فريسة له .. وعلى هذا طووا خيامهم وبدأوا ينسحبون وفى أثرهم جيوش أمير أورانج تنكل بهم وتنزل بهم الخسائر الفادحة !

وكان ذلك ختام سيادة الفرنسيين على ايطاليا ، ويرجع الفضل فيه الى بروسبيرو ادورنو . وقد كافأه الامبراطور بأن عينه قائدا لأسطول نابولى. وكتب اليه صديقه المركيز دل فاستو من مدريد يهنئه ويقول له انه محل تقدير الامبراطور واعجابه !

وجاءت من جنوا أنباء من نوع آخر ، فقد عقد أندريا دوريا اتفاقا مع الامبراطور شارل الخامس ، وعينه هذا قائدا أعلى للأساطيل الامبراطورية فى البحر الابيض المتوسط .. وعلى أثر ذلك تحرك الاميرال من قلعته فى ليريسى وأنزل قوة فى جنوا بادرت الى الاستيلاء عليها لضعف المقاومة التى لقيتها . ثم أحدث تعديلا فى الحكم . ونشر بيانا ذكر فيه أنه ترك خدمة ملك فرنسا لنكثه بعهوده ، وأكد أنه ليس له من غاية سوى تحرير بلاده من الحكم الاجنبى . وكان رد الفعل سريعا لدى الشعب فقد عده منقذ الوطن ، وعرض عليه تاج الرياسة لكنه رفضه قائلا : « اننى أوثر ان أخدم الجمهورية فى البحار ! »

ووضع الاميرال دستورا جديدا يحد من سلطة الرئيس ويجعله فى الواقع تحت سلطة خمسة أوصياء ينتخبون لفترات معينة ، وكان هو نفسه أحد أولئك الأوصياء .. وما لبث قليلا حتى انتخب وصيا مدى الحياة وبذلك صار فى الواقع سيد الدولة دون أن يتحمل تبعات الحكم !

وكان تعيين بروسبيرو قائدا لأسطول نابولى يؤدى الى وضعه تحت

www.ibtesama.com/vb Exclusive

رياسة دوريا من جديد ... ولذلك بادر الى تقديم استقالته الى أمير أورانج ، ولكن هذا رفضها مبينا له أن آل دوريا فى حاجة الى مصالحته فى الظروف الجديدة !

وقد أصر بروسبيرو على الا يمد يده اليهم لولا أنه حدث ما لم يكن فى حسبانه .. وذلك أن جيانتينو دوريا ، ابن أخي الاميرال ، رسا بثلاث سفن حربية من رأس ايشيا ، ثم انتقل فى يوم من أيام اكتوبر الى نابولى ، وسارع الى زيارة بروسبيرو مبديا له جانب المودة والتواضع قائلا :

ــ لقد جئت اليك يا سيد بروسبيرو لكى أشارك جنوا كلها فى فخرها بك ، وانى اذ أقدم لك تهنئتى الصادقة ، يسعدنى أن أبلغك الآن أن عمى الاميرال أندريا دوريا قد ثبتك فى منصب القائد العام لأسطول نابولى ، وكلفنى أن أعبر عن سروره بتجديد التعاون مع قائد كفؤ شجاع مثلك !

وعجب بروسبيرو من تغير مسلك جيانتينو نحوه وقال له بشيء من الجفاء :

ــ شكرا لك على تهنئتك .. أما المنصب الذى تفضل به الامبراطور على فقد ثبتت فيه من قبل !

ولم يغضب جيانتينو من ذلك ، ولا شك أن عمه أوصاه بألا يدع مجالا للغضب ، فرد قائلا :

ــ اسمح لى بأن الاحظ ، بكل احترام يا سيد بروسبيرو ، ان عمى هو صاحب السلطة العليا بعد الامبراطور فى كل ما يتعلق بالقوات البحرية

فقال بروسبيرو : « ان تعيينى جاء من قبل الامبراطور نفسه !

وكان أمير أورانج حاضرا هذا الحديث فسارع الى التدخل وقال لبروسبيرو : « ما دمت ستعمل تحت امرة الاميرال أندريا دوريا فلا شك انك تقدر ترحيبه الودى بك حق قدره »

فرد بروسبيرو قائلا : « انك تعلم يا صاحب السمو انى لا أريد الاستمرار فى الخدمة ! »

فقال الامير : « ما زلت آمل أن تعدل عن رأيك هذا !. ولعل السيد جيانتينو يساعدنى فى اغرائك بالبقاء فى الخدمة » . ثم التفت الى جيانتينو وقال له ضاحكا ليخفف من وقع كلامه :

ــ حقا يا سيد جيانتينو .. هناك عقبات فى سبيل الوفاق ، وربما وقع على أسرتك بعض الذنب فيها

وحسب بروسبيرو أن جيانتينو سيرد على ذلك ردا شديدا ولكنه بالعكس قال بلطف وانكسار :

ــ وا أسفاه !. هل انا لا أعرف ذلك ؟.. غير أنى لم أجيء بالصبر وحده بل جئت بالندم والتكفير كذلك !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فالتفت امير اورانج الى بروسبيرو ، وقال له : « هل سمعت ؟.. أليس فى هذا ما يرضيك ؟ »

ولكن بروسبيرو أراد أن يسمع المزيد ، فسكت بينما استطرد جيانتينو قائلا له :

ـ انك تعلم يا سيد بروسبيرو ان الامور قد تغيرت منذ ...

وتردد فى القول ، فانتهز بروسبيرو هذه الفرصة وقال : « منذ قيدنى ابن عمك بالاغلال وجعلنى أكدح على مجذاف . أو منذ أراد أن يسلمنى الى السلطات البابوية لتشنقنى .. أو منذ حنث الاميرال اندريا بعهده لى وطرد أبى من منصب الرئيس ليضع أحد صنائعه محله ! »

فامتقع وجه جيانتينو وقطب جبينه .. وهنا تدخل امير اورانج نائب الملك مرة أخرى وقال له :

ـ يا عزيزى بروسبيرو .. ما فائدة العودة الى هذه الذكريات ؟

ـ أتريد منى يا صاحب السمو أن أدير خدى الايسر ؟

ـ لا محل لذلك . فان جيانتينو قد مد يده للصلح لا للضرب

وسارع جيانتينو الى القول : « وهى ليست باليد الفارغة .. لقد جئت اليك رسول صلح . ونحن نعترف بأخطائنا الماضية .. على انك لو تأملت فى كل ما ساءك من الاميرال اندريا دوريا لأدركت انه انما توخى صالح الدولة فى كل ما فعله !.. انك تتهمه بأنه نكث بعهده معك .. ولكن أليس الواقع ان الفرنسيين هم الذين نكثوا بعهدهم له ؟ ! »

وسكت لحظة ثم قال : « لقد جئت ببرهان على حسن نياتنا نحوك ! هناك مسألة افتداء ياقوت ، وقد ... »

فقطع بروسبيرو كلامه قائلا : « لقد قبض الاميرال فدية له قدرها ثلاثلا آلاف دوكات من خير الدين برباروسا .. أليس كذلك ؟ »

فضحك جيانتينو وقال : « لكى أثبت لك ان سوء ظنك بالاميرال لايقوم على أساس ، أقول لك ان هذا المبلغ قد أودع بنك سان جورج لحسابك .. وقد جئتك بصك من البنك يثبت ذلك ! »

وأخرج جيانتينو الصك وسلمه الى بروسبيرو ، فأخذ يفكر فى الامر ، ورأى ان هذا المبلغ حق مشروع له ، غير ان الباعث على نزاهة دوريا فى هذا الأمر انما هو باعث سياسى محض .. واستطرد جيانتينو قائلا :

ـ ان عمى الاميرال كلفنى أن أقدم لك هذا الصك دليلا على حسن نياته نحوك ، وقد كانت نياته دائما كذلك برغم جميع الظواهر !.. ومن رأيه ان رجلا مثلك حاز ذلك الانتصار الباهر فى بروسيدا لايصح أن تخسر الدولة خدماته . ولذلك ياسيد بروسبيرو فان بيتك فى جنوا ينتظر عودتك ، ولا ينبغى لآل ادورنو أن يبقوا مبعدين عن الوطن . والاميرال مسئول عن أن يستقبلوا فى جنوا أحسن استقبال !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال بروسبيرو بلهجة ساخرة : « انك ياسيدى تغدق على الافضال بعضها فوق بعض ! »

وكظم جيانتينو غيظه ، وسارع الامير مرة اخرى الى معاونته فقال لبروسبيرو : « أرجو يا صديقى ألا تقيم الصعاب !.. ولتضع فى حسبانك صالح الامبراطورية .. ولا تنس ان جنوا هى وطنك . ضع السيف فى غمده فانك انت ودوريا الآن على سفينة واحدة !

ـ لقد ذكرنى السيد جيانتينو بذلك .. ولكنه ليس ضمانا لى اذا بدل آل دوريا الجانب الذى يخدمونه مرة أخرى !

وهنا لم يقدر جيانتينو أن يكتم غضبه وقال : « هذا تعريض بنا لايليق ! » . ولكنه استدرك وقال : « اذا لم يكن خروجنا على الفرنسيين وعودتنا الى الولاء للامبراطور ضمانا كافيا لك ، فاليك هذا الضمان !.. لقد توقعنا ألا تثق بنا ، ولذلك رأى الاميرال أن يعرض عليك مصاهرة بيتنا .. فهو لذلك يعرض عليك يد ابنـة أخيـه ماريا جيوفانا ومعها صداق قدره ثلاثون ألف دوكات ومزارع باراكوتى الخصبة .. فهل هذا ضمان كاف لك ؟ »

وكانت دهشة بروسبيرو من ذلك شديدة حتى كاد لايصدق أذنيه !.. وربت امير اورانج كتفه وقال له : « ثلاثة آلاف دوكات فدية ياقوت ، وعودة آل دورنى الى بيتهم وممتلكاتهم ، وعروس صداقها كصـداق أميرة .. يجب أن تغمد سيفك أخيرا يا بروسبيرو ! »

وسكت بروسبيرو هنيهة مفكرا ، ثم قال : « لقد قرأت يوما على سيف صنع فى طليطلة عبارة ما زلت أذكرها وهى : « لا تجردنى دون داع ولا تغمدنى دون شرف ! »

ففزع جيانتينو وقال : « ليس فيما أعرضـه عليك ما يتنافى مع الشرف ! »

وتدخل امير اورانج وقال لجيانتينو : « لقد فوجىء بروسبيرو بما عرضته عليه .. انه لايقدر بعد مدى هذا العرض .. وليس من العدل أن يبت فى الأمر توا .. فاترك له مهلة ليفكر ! »

وفى صباح اليوم التالى حينما قابل بروسبيرو امير اورانج طبقا للموعد المتفق عليه ، قال له هذا :

ـ حقا لقد عرضوا عليك أكبر ضمان مستطاع لحسن نياتهم نحوك !

فابتسم بروسبيرو ابتسامة ماكرة وقال : « اتظن ذلك ؟.. هل لم يخطر ببالك ان هذا الزواج الذى عرضوه لم يقصدوا به ضمان حسن نيتهم نحوى بل ضمان حسن نيتى نحوهم ؟ ! »

فقال له الامير : « هذه مبالغة منك يا بروسبيرو ! »

وانتهت المقابلة بأن صرح بروسبيرو للأمير نائب الامبراطور بأنه قبل ما عرضه عليه آل دوريا ..!

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبعد أسبوعين من ذلك سافر بروسبيرو الى فلورنس حيث انبأ أمه بالاتفاق الذى انتهى اليه مع آل دوريا . فقالت له : « سوف يسميك أهلك بعد ذلك يهوذا ادورنو ! »

وكان قد دبر أمر سفره اليها وسط شواغله لكى ينشلها من وهدة الفقر التى هى فيها ويعيدها الى بيتها فى جنوا مكرمة معززة ، ولكنها بدل أن تفرح بذلك قالت له :

ـ أهكذا تم الصلح بينك وبين أولئك القتلة ؟..

اهكذا وضعت يدك فى أيديهم الملطخة بدم أبيك ؟.. كيف تصاهر تلك الأسرة الحقيرة .. وكيف بلغت بك الجرأة أن تصارحنى بذلك ؟ !

وجعلت تلومه وتقرعه وهو يرد عليها بضعف وتخاذل مبينا لها فوائد ذلك الاتفاق الذى عقده مع بيت دوريا وفى مقدمتها انتشالها من المعيشة التى تعيشها . ثم بكت من فرط ألمها حتى لم يستطع كتمان سره فقال لها :

ـ ان لومك لى هو ظلم لا أستحقه !

ـ وهل كنت تنتظر منى أن أثنى عليك وأشكر لك العار الذى جلبته

ـ كان من حقى أن تثقى بى برغم كل الظواهر !.. لقد سميتنى « يهوذا » وأنا أستحق هذا الاسم ولكن من الجانب الآخر لا من جانب بيت أدورنو !

ثم أجلسها بجانبه وقال لها همسا وكأنه يخشى أن يسمعه أحد : « لست أستحق فقد ثقتك بى يا أماه !.. ان الخطبة التى دعونى اليها ضمانا لحسن نيتهم نحونا هى فى الواقع ضمان لبقائى فى صفهم !.. ان آل دوريا قوم ماكرون وأنا قد استعرت شيئا من مكرهم السىء .. وعلى ذلك ستتم الخطبة ، ولكن لن يكون ذلك الزواج الذى يريدونه ، وسوف أنتحل عذرا بعد عذر لارجائه الى غير حد .. والآن يا أماه قد أفشيت لك مكنون صدرى .. فهل أنت مطمئنة ؟

فقالت له : « لماذا لم تقل لى ذلك منذ البداية ؟.. ولماذا عذبتنى بمقدمة القصة دون نهايتها ؟ »

فقال لها : « من الخطر أن يتحدث الانسان بمثل هذه المسائل .. انى أكاد أخاف مجرد التفكير فيها لذلك أسألك يا أماه ألا تفكرى فيها منذ الآن ! »

فابتسمت وقد علا وجهها البشر وقالت له : « اطمئن .. ولتثق بى !.. أما طلبك ألا أفكر فى هذه المسألة فذلك مالا أستطيعه !.. ولسوف أفكر على الاقل فى ان اولئك الحمقى قد عرضوا فتاتهم للهوان الذى استحقوه ! »

فقال لها : « كلا يا أماه !.. ان تلك الفتاة البريئة لا يصح أن يصيبها منا أذى !.. وانى لآسف اذ يجعلها القدر واسطة لانتقامى ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حملة ضد ياقوت

كان فصل الصيف قد حل حين عاد بروسبيرو الى جنوا . وما كان ليعود وقتئذ لولا ان الحوادث لم تدع له مجالا لارجاء جديد .. وكان قد انجز عمله فى أحواض السفن والترسانة فى نابولى . فلو أرجأ الخطبة بعد ذلك لساء ظن آل دوريا بنيته . وفضلا عن ذلك كانوا قد وجهوا اليه دعوة الى الحضور !

وكان الامبراطور شارل الخامس فى طريقه الى البندقية ، وقد دعى جميع قادة الاسطول الى المدينة لاستقباله ، اذ كان المتوقع أن يصدر أمره بشن حرب شعواء على السفن التركية فى البحر الأبيض المتوسط التى يقودها خير الدين بربار وسا !

وكان بربار وسا قد وطد سلطانه على اقليم الجزائر كله ، ولكن مدينة الجزائر نفسها كانت على مدى طلقات المدافع الاسبانية من جزيرة بالخليج ، فكان ذلك شوكة فى جنبه اذ كانت يداه مغلولتين من نقص المدافع الضخمة عنده !.. وعلى هذا عمد الى أسر بعض السفن الحربية الفرنسية واستولى على مابها من مدافع ، كما استطاع ياقوت عقب فك اساره أن يأسر اسطولا للبندقية ويستولى على سلاحه ومؤونته .. وهكذا سد خير الدين النقص الذى كان يعانيه وصار ملكا على الجزائر دون منازع . وقد حاصر جنوده قلعة بنون عشرة أيام حتى سقطت فى أيديهم ، وأسروا نحو خمسمائة جندى اسبانى بقوا من حاميتها وسخروهم فى هدم تلك القلعة .. ثم أقاموا من أحجارها لسانا فى البحر ليكون وقاء للسفن التركية !

وجاءت تسع سفن اسبانية محملة بالجنود والمؤونة والاسلحة لامداد الحامية الاسبانية فى تلك القلعة أمام مدينة الجزائر ، وجعلوا يبحثون عنها عبثا حتى حسبوا انهم ضلوا الطريق ، وفيما هم كذلك دهمتهم سفن بربار وسا وأحاطت بهم إحاطة السوار بالمعصم ، وكان يوما من أيام الاسلام التاريخية اذ أسر الاتراك والعرب بقيادة بربروسا نحو ثلاثة آلاف اسبانى ضموهم الى الأسرى الخمسمائة الذين وقعوا فى أيديهم قبل ذلك بأيام !

وقد ثارت اسبانيا كلها لهذا النبأ ، واهتم الامبراطور بالأمر حتى قدمه على كل أمر آخر ، وعزم على أن يسير كل قواته للقضاء على خير

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الدين وسفنه . فأمر بتجهيز حملة بحرية لم يسبق لها مثيل ، في مدينة جنوا تحت قيادة الاميرال اندريا دوريا ، وصدر الأمر الى بروسبيرو ادورنو بأن يأتي مع اسطول نابولي لينضم الى تلك الحملة . وهكذا اضطر بروسبيرو الى العودة الى جنوا حيث أعلنت خطبته الى مادونا ماريا جيوفانا سليلة آل دوريا !

ولما ذاع نبأ تلك المصاهرة كسب به الاميرال اندريا دوريا مزيداً من المكانة ، فقد تذكر الناس العداء القديم الذى بين بيتي دوريا وادورنو ، وعدوا ذلك الارتباط بينهما دليلا على تسامح الاميرال ونبله . وكان قد حصل من الامبراطور على لقب « دوق ملفي » كما تزوج أرملة واسعة الثراء ، ومنحته الدولة قصر فاسولو الفخم ليقيم به !

وقد هرع بروسبيرو لزيارة أمه في قصر من رخام صارت تقيم به منذ عودتها الى جنوا . ووجد معها صديقه القديم سيبيوني دى فيشي ينتظر قدومه . وكان هذا قد أمضى الشهور الماضية في استخدام قدرته على الدس والوقيعة في سبيل تحقيق مطامعه ، وما كاد يسمع بالصلح الذى تم بين بروسبيرو والاميرال اندريا دوريا ، وبخطبة الاول لابنة أخى الثاني حتى أدرك ما يقصده آل دوريا ، وما يقصده بروسبيرو أيضا من وراء هذا الصلح !

ولما سمع بروسبيرو يعرب لأمه عن اغتباطه باستقبال أهالى جنوا له بالهتاف الحار بحياته وحياة آل اودرنو ، قال له سيبيوني :

ــ اذن ينبغي لك أن تنتهز الفرصة قبل فواتها !

فسأله بروسبيرو : « أية فرصة تعنى؟ » . وأجاب سيبيوني متظاهرا بالدهشة :

ــ أية فرصة ؟ !.. ان أهالى جنوا هم اليوم أنصارك .. وما عليك الا أن تقودهم .. فأنت رجل الساعة !

فأدرك قصده ورد عليه قائلا : « ان الوقت لم يحن بعد !.. بل ان الظرف الحاضر هو أسوأ الظروف لذلك .. فبعد يومين يأتي الامبراطور وليس من الحكمة أن أستقبله بثورة !

فقال له سيبيوني : « اذا أنت أحكمت قيادة الثورة فانها يمكن أن تتم في هذين اليومين !.. وعندنا الوسائل لطرد آل دوريا ! »

ــ ان طردهم ليس يسيرا الى هذا الحد !.. فالاميرال قد وطد سلطانه !

فقال له سيبيوني : « هذا يكون صحيحا لو أنى لم ارتب الأمور .. انني واثق من تأييد فرنسا ! »

ــ هذا ما حسبته حين ذكرت ان لديك الوسائل .. أما أنا فاني أوثر الامبراطور على ملك فرنسا ، ولذا لا أرضى أن أستقبله بثورة حين يجيء !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ودار بينهما جدل طويل حول المفاضلة بين الاثنين ، وأخيرا قال له سيبيونى غاضبا : « اتراك بعت نفسك لآل دوريا ؟.. لقد آثرت الفراش الوثير على الانتقام لأبيك وأسرتك ! »

فقال له بروسبيرو : « انى عند الضرورة يمكننى أن أثبت لك انى كنت على صواب ! »

ـ بل انت الآن قد أثبت لى ما كنت أجهله عنك !.. لقد وجدت ان صالحك يقتضيك أن تطعم من اليد التى ذبحت أباك !.. عسى أن تختنق يوما بهذا الطعام !

وكان الغضب قد بلغ منه مبلغه فقام ليخرج ، ولكن مادونا اوريليا أم بروسبيرو قفزت من مقعدها وصاحت به : « انتظر يا سيبيونى ! »

فقال لها ولدها : « دعيه يذهب ! » . بينما أغلق سيبيونى الباب وراءه بعنف ، فقالت السيدة لابنها : « هذه بداية العاصفة !.. لقد كان ينبغى لنا أن نصارحه بالحقيقة ! »

فقال لها : « كلا !.. لا أريد أن يعرفها العالم كله .. دعى الناس يعتقدوا فى ما يحلو لهم ! »

▭

استطاع الاميرال دوريا أو دوق ملفى أن يجمع فى قاعات قصره الفخم جميع رؤساء الأسر الكبيرة فى جنوا ، ولكن آل أدورنو فيما عدا بروسبيرو تعمدوا التخلف عن ذلك الحفل برغم دعوتهم اليه .. لقد رضوا بأن تقوم هدنة بينهم وبين آل دوريا ، ولكنهم لم يروا من اللائق بكرامتهم أن يجيبوا تلك الدعوة ، وأن يشهدوا اعلان قبول عميدهم مصاهرة أعدائهم الالداء !..

وتوجه بروسبيرو الى قصر الدوق مرتديا أزهى حلله ، فاستقبله هذا بالعناق قائلا له : « مرحبا بك فى بيتى وفى قلبى يا بروسبيرو .. انى أدعو الله أن يكلأ هذا الارتباط بين بيتينا لصالح الوطن ! »

ثم جاء جيانتينو فرحب به كذلك وقال له : « اذا كانت هناك أخطاء فى الماضى فلننسها ولا ندعها تؤثر فى صداقتنا ! »

فابتسم بروسبيرو وصافحه قائلا : « ليكن هذا اليوم بداية عهد جديد ! »

ثم جاءت قرينة الاميرال ، مادونا بيريتا ، وقد أصبحت تدعى دوقة ملفى .. وكان يصحبها ابنها من زوجها الاول ، واسمه ماركانتونيو دلكاريتو ، لكنه أضاف أخيرا اسم دوريا الى لقبه . وقدم بروسبيرو اليها فانحنى لها احتراما وقبل يدها التى مدتها اليه . ثم ازدحم الحاضرون حول بروسبيرو ليحيوه ، وأخذوا يكيلون له كلمات الاعجاب والثناء !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبينما هو واقف مع الأميرال أمام ذلك الجمع الحاشد ، اذا بمادونا بيريتا قد عادت ومعها فتاة مرتدية ثوبا فضيا طرزت عليه رسوم عربية سوداء ، وكانت فى عنفوان شبابها ، طويلة القامة ، وعلى صدرها الابيض عقد من اللآلىء تدلى حتى وسطها . وكانت تنظر الى بروسبيرو بعينين يكاد الدمع يسقط منهما ، بينما ارتسم على شفتيها شيء لا تدرى أهو ضحك أم بكاء !

ولما رآها بروسبيرو حبس أنفاسه وصعد الدم الى خديه ، فقد عجب اذ وجدها هى نفسها غادة الحديقة « جيانا » ذات الثوب الفضى . . تلك التى أحبها ولم ينسها لحظة واحدة !

وكان الاميرال اندريا يرقبه عن كثب فقال له : « انها فاتنة . . أليست كذلك ؟ »

ورد بروسبيرو ردا آليا اذ قال : « انها أجمل من رأيت ! »

فضحك الاميرال وقال له : « اذا كنت لا تزال تعتقد ان آل دوريا قد آذوك ، فان هذه خير عوض لك . والآن هيا حى عروسك ! » . ثم أمسك الاميرال يده وأوقفه أمام الفتاة وجها لوجه ، فتلقته هذه بابتسامة رقيقة لكنها لا تخلو من تحفظ ووقار . . وقال لها الاميرال : « هذا خطيبك بروسبيرو الذى اخترته لك ! »

ومدت اليه يديها فقبلهما واحدة بعد أخرى ، ولكن بطريقة آلية اذ كان لايزال فى ذهول من تلك المفاجأة . وقد راعه جمالها الذى بدا أبهر ما يكون فى تلك الساعة . ووقف أمامها صامتا لايجد ما يقوله . فقالت مادونا بيريتا لقرينها الاميرال :

ــ تعال يا اندريا . . انهما فى خجل لوجودنا معهما . . دعهما وحدهما ليتحدثا بما يشاءان !

ثم طلبت الى بقية المدعوين أيضا أن يتركوهما ، فامتثلوا واكتفوا بالتطلع اليهما من بعيد !

وعلى أثر ذلك تكلمت الفتاة فقالت له : « لقد تركتنى أنتظرك وقتا طويلا يا بروسبيرو . . وقد قضيت شهورا طويلة وأنا أروض نفسى على الصبر ! »

ثم سكتت وهى تتفرس فى وجهه . وكان جادا رزينا . فقالت له : « أليس لديك ما تقوله لى ؟ »

فقال لها بصوت متهدج : « لدى من القول ما لا تكفيه الحياة كلها ! »

ــ أليست هذه الخطبة هى ما كنت تتمناه ؟

ــ من عجائب القدر انه جمعنا ثانية . من ذا الذى كان يتصور وقوع هذه المصادفة ؟

ــ لا أحد بالطبع !.. لأن الأمر لم يكن مصادفة مطلقا !.. وليس من حيل القدر ولكنه حيلتى أنا . . وكيف لم تقدر ذلك ؟.. أليست

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لك ثقة بى ؟ وكيف خطر ببالك انهم عرضونيعليك لتتزوجنيمصادفة ؟
وهنا تذكر انه سمع من امه ، أو من سيبيونى ان اندريا دوريا فرض اسمه على ابن زوجته من زوجها الاول وعلى ابنة أخيها كذلك .. كما تذكر ان اسم جيانا هو تصغير لاسم جيوفانا وانها ابنة أخى المركيز دى فينارو الذى كان الزوج السابق لمادونا بيريتا
ووقف ساكنا لايحير جوابا ، يخشى الاعتراف بأنه لم يتوقع أن تكون هى خطيبته مع ما يتطلبه هذا الاعتراف من ايضاح !
وقد أراحته هى من حيرته هذه اذ قالت له : « أرى انك لم تقدر انى أنا التى دبرت هذا الأمر . وحين أقص عليك الأمر كله ستعود أشبه ببروسبيرو الذى عرفته !.. أما الآن فأنا لا أكاد أرى فيك مؤلف الأغانى الشعرية فى الحديقة ! »
ولم يجد ما يقوله سوى عبارات جوفاء .. ثم قادته من يده الى حديقة غناء تطل على البحر ، حيث أجلسته بجانبها وقالت له :
ــ ان القدر أتاح لنا فرصة لضمان سعادتنا فانتهزت هذه الفرصة ، وقد كان الاميرال فى وقت ما شديد الألم من انقلاب أهالى جنوا عليه ، وزاد فى عدائهم له نبأ انتصارك فى معركة بروسيدا . وكانت عمتى ــ مدام بيريتا ــ قد أصبحت زوجة للأميرال ، فانتقلت معها الى قصر فاسولو لنقيم معا ، وسرعان ما أولانى ثقته ورعايته فتبنانى وجعلنى أتخذ لقبه ، وصار يحدثنى بمكنون صدره .. ولما عرفت منه ان العداء الاسبق الذى قام بين بيتى دوريا وادورنو انما نشأ من نكث الفرنسيين عهودهم له ، ولمست منأحاديثه انه يتمنىأن يحل الصفاء بينكما انتهزت هذه الفرصة واقترحت عليه أن يعرض عليك الصلح ، على أن تؤيده مصاهرة بين البيتين لتكون ضمانا للمودة بينهما !
وبقى بروسبيرو ساكتا ، فواصلت جيانا كلامها قائلة : « وقد اقتنع الاميرال بصواب هذا الرأى ، لكنه أعرب عن أسفه لأن آل دوريا ليس لهم ابنة يعرضون عليك زواجها ، فقلت له : « بل لك أنت ابنة تصلح لهذا الأمر .. وستجدنى ابنة طائعة ! »
ثم ذكرت لبروسبيرو كيف اعترفت فى تلك اللحظة بما كان بينها وبينه للأميرال بالتفصيل ، منذ آوته فى بيتها وســـــهرت عليه وهو مريض بالطاعون الى أن افترقا بعد ذلك لأن ذلك العداء بين الأسرتين وقف حائلا بينهما من غير أن يعلم بروسبيرو انها تمت الى آل دوريا بأية صلة !
وقال لها بروسبيرو أخيرا : « اذن .. كان الأمر كله من تدبيرك .. لقد بان الخفاء .. وهذه المعجزة مثل كل المعجزات ، لها تفسير معقول ! »
وقد تبينت فى لهجته شيئا من المرارة لم تدرك له سببا ، والواقع أنه حقد على نفسه اذ ذاك لأنه كان يعتقد أن آل دوريا وجدوا أنفسهم فى حاجة الى صداقته فأذلوا كبرياءهم وقصدوا اليه بالهدايا ، ثم أدرك أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العكس هو الصحيح ، وان الاميرال انما قدمه هو نفسه هدية الى الفتاة التى تبناها ، لكى يسرها ويسعدها بتحقيق أمنية صرحت له بها !

ورآها تنظر اليه نظرة حيرة وتساؤل . ثم قالت له : « ألا تزال بارد العاطفة نحوى يا بروسبيرو ؟.. لقد كنت أتوقع منك الثناء على الدور الذى قمت به .. ولكنك لم تعبر حتى عن سرورك ! »

فابتسم ابتسامة مغتصبة وقال لها : « أأنت مسرورة يا جيانا ؟ »

فقالت له بسذاجة : « انى مسرورة كل السرور ، لا من أجل نفسى فقط ، بل من أجلك أيضا لأنى استطعت أن أزيح عبء الانتقام الذى كان يثقل كاهلك ! »

فسألها : « أتعتقدين أنك استطعت ذلك حقا ؟ »

فأجابت قائلة : « انك ما كنت لتقبل هذه المصاهرة لولا أنك مخلص فى الصلح مع بيت دوريا .. وحين وافق الاميرال على هذه الفكرة قال ان هذا الزواج ضمان لحسن نيته نحوك ! »

فقال لها : « لقد قلت أنا لأمير أورانج : « ان هذا الزواج ضمان لحسن نيتى نحوهم أيضا ! »

فقالت له : « نعم . انه ضمان متبادل يكفل ثقة كل من الأسرتين بالاخرى ، ويتم على الجميع نعمة الصفاء والسعادة ! »

وسكت بروسبيرو ، وأخذ يتطلع الى البحر وهو مستغرق فى التفكير ، فقالت له : « أيشغلك شيء ؟.. انك غريب الأطوار هذه الليلة ... بل أنت مسرف جدا فى الرزانة أو .. برود العاطفة ! »

ــ كلا يا جيانا !.. وانما أنا فى ذهول مما حدث . أما أنى رزين فان الظرف يتطلب الرصانة . ثم أنا هنا على مرأى الناس !

فقالت له : « صدقت !.. غير أنى لم أتصور أن لقاءنا يكون هكذا بعد ذلك الفراق الطويل !.. تعال غدا لأطلعك على جمال هذه الحديقة التى لا تذكر الى جانبها حديقتنا التى عشنا فيها زمانا ! »

فرد قائلا : « لقد كانت تلك الحديقة جنتى ! »

فأشرق وجهها وقالت : « أخيرا تكلم (آدم) الذى أعرفه ... ألم تلحظ ثوبى يا بروسبيرو ؟. انه صنو الثوب الذى كنت أرتديه حين رأيتنى أول مرة ! لقد حرصت على أن ألبس هذا الثوب الفضى . وسرنى أن رأيتك أيضا مرتديا بذلة فضية ! »

وهنا وافاهما الاميرال وقال لهما : « لقد غبتما عن الحفل مدة طويلة ، والمدعوون يريدون أن تكونا معهم »

وكان هذا بمثابة نجدة لبروسبيرو ، فقد كره أن يخدعها وان خدع الناس جميعا ، لا لأنها أعز عليه من نفسه فحسب ، ولكن كذلك لطهرها واخلاصها .. ولكن لا مناص له من أن يستمر فى هذا الخداع لأنه لو صارحها بالحقيقة لازدرته وأبغضته !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم جلس الجميع الى مائدة العشاء ، وكان دوق ملفى يتوسط قرينته الدوقة وجيوفانا ماريا ، بينما جلس بروسبيرو الى يسار خطيبته وعلى شفتيه ابتسامة لتدل على سعادته الكاذبة . وكان كذلك متكلفا فى حديثه معها أو مع أسقف بالرمو الجالس عن يساره !

وكان موقفه كذلك مربكا حين جاء فى اليوم التالى لزيارة جيانا كما طلبت اليه ، لكى تريه بدائع الحديقة . ولم يكن ذلك الا حيلة منها لتنفرد به . . وكان لم ينم طول ليلته من التفكير فى ورطته . وقد أنجده الاميرال اذ وافاهما عند تمثال نيتون (اله البحر) المقام فى الحديقة ، وقد راعى المثال الذى صنعه أن يجعل له وجه الاميرال نفسه . . . وكان الاميرال لطيفا وديعا مع بروسبيرو فى ذلك اللقاء . وقد أخبره أنه زار السفن فى الصباح وأبدى اعجابه باصلاحها واعدادها للقتال ثم قال له : « ان الامبراطور سيصل الى جنوا يوم السبت ، أى بعد غد ، وكل شىء قد تم اعداده ! »

وبعدئذ قال له : « الآن لنتحدث عن شىء أقرب الى قلبيكما . . . ان الوقت قصير . وزيارة الامبراطور هى بمثابة الاشارة بابحار الاساطيل . وهناك مسألة زواجكما . . . وأنتما بالطبع لا تريدان الانتظار ! »

فلم يحر بروسبيرو جوابا ، ونظر ناحية البحر فقال له الاميرال : « لا شك أنك فكرت فى الموضوع وأن لك فيه رأيا . . أليس كذلك ؟ »

فقال بروسبيرو : « نعم فكرت فيه ولكن هناك الحملة . . . »

فقال الأميرال : « هذه الحملة نفسها تقتضينا الاسراع فى انهاء هذا الأمر . . . وأظن أن الاسراع يسركما . أليس كذلك ؟ »

فقال له : « انى ليسعدنى حقا أن يتم ذلك بأسرع ما يستطاع . ولكن هناك الحملة ! »

ــ لقد قلت ذلك من قبل . . فماذا اذن ؟

ــ ان الحملة تتضمن أخطارا لا شك فيها . . . وقد يقدر لى ألا أعود . . . فكيف أقدم على الزواج بابنة أخيك يا سيدى فى هذه الحال ؟. الا ارتكب بذلك ذنبا نحوها ؟

فجذبته من كمه برقة وقالت له : « لا تدخل ذلك فى حسبانك . . فانى أوثر أن أكون أرملة لك على أن أكون زوجة رجل آخر ! »

فأجابها بروسبيرو ، باخلاص هذه المرة : « يا عزيزتى جيانا . . ان أى رجل ليس أهلا لأن تقولى له ذلك . . وينبغى لى أن أحميك من نفسك ! »

فغمغم الاميرال وردد بصره بينهما ثم قال : « ماذا اذن ؟ »

فتنهدت جيانا وقالت : « فليكن الأمر كما يريد بروسبيرو . . انى لا أقدر أن أحول رأيه عما يعتقده حقا وصوابا ! »

ولكن الدوق لم يرض بأن يقف الموضوع عند هذا الحد فقال لها : « ان

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الأمور يا عزيزتي لا تجرى وفق رأيه ... لقد تركت الناس جميعا يعتقدون أن الزواج سيتم فورا ... وكنت أحسب ان بروسبيرو يتعجله ! »

فقال بروسبيرو : « انى أوثرها على نفسى ، ولذلك أرجىء الزواج الى ما بعد الحملة ... وليكن الأمل فيه وترقبه دافعا لى الى أعمال المجد حتى يكون ذلك الزواج أحسن جائزة لى ... ثق يا سيدى الاميرال انى بذلك الأمل سأكون جنديا مقداما فى الحرب القادمة ! »

وعاد الدوق فردد بصره بين الاثنين متعجبا !.. ولما رآهما متفقين على ارجاء الزواج قال لهما : « يا لكما من حبيبين باردى العاطفة ! »

وكان ذلك بالنسبة لبروسبيرو ختام الجدال ولكنه لم تنته به شجونه !

□

ولما عاد الى بيته بعد ظهر ذلك اليوم وجد فيه عاصفة توشك أن تهب ، فقد كان هناك عمه جيوفاشينو ادورنو الذى كان أسقف سانتا باربارا ، وعمه الآخر رينالدو أورنو مع ولديه الطويلى القامة أنيبالى وتاديو . وقد سمع أصواتهم العالية حين اقترب من البيت وأدرك الموضوع الذى يتناقشون فيه بهذه الحدة . غير أنه كان على أهبة لهم . وقد رأى بالأمس أمثلة مما ينتظره فى قصر فاسولو ، فان واحدا من أسرة جريمانى قد أدار له ظهره وتغافل عن تحيته . وكلمه أجوسينو سبنيولا بصراحة الجندى الذى لا يعرف المواربة ، اذ قال له :

ــ اذن راح أبوك النبيل فى زوايا النسيان .. ولكن هكذا العالم حين ينادى داعى المصلحة . ومع ذلك ما كنت أنتظر أن تكون أنت كذلك يا بروسبيرو !

ولما رد عليه بأنه ليس بحاجة لأن يلبى داعى المصلحة ، قال له أجوسينو : « هذا أدعى الى ألا تقبل أيدى أعداء أبيك » . وعبثا حاول أن يقنعه بأنهم فى الواقع ليسوا أعداء ، وبأن ملك فرنسا هو الذى حنث بعهده لهم ، ثم قال له أجوسينو : « هكذا يزعمون ومن صالحك أن أن تصدقهم! » . فاضطر الى أن يسكت على هذه الاهانة من رجل كان الصديق الحميم لأبيه !

ودخل داره ليواجه ما يكون فى جرأة .. ولما رآته أمه قالت له :

ــ الحمد لله على أن أتيت أخيرا لتدافع عن نفسك فقد سئمت الدفاع عنك !

ــ لم يكن ثمة ضرورة لذلك فانى دائما أحمل تبعات أعمالى بنفسى !

فصاح به عمه رينالدو : « أنت الآن فى حاجة لأن تفسر تصرفاتك ! »

وغمغم الكاردينال شيئا فقال له أخوه : « هذا أمر لا يخص القساوسة ولا النساء ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم قال لبروسبيرو : « ما هذا الكلام عن مصاهرتك لبيت دوريا ؟ »
فقال له بروسبيرو بهدوء : ما دمت قد علمت النبأ فلماذا تسألنى عنه ؟ . لقد أعلنت ليلة أمس خطبتى لمادونا جيوفانا ماريا مونالدى . أهذا ما تعنيه ؟ الا يسرك ذلك ؟ »
ـ يسرنى ؟.. أتسخر منى ؟.. ان ابن أخى يتزوج فتاة من بيت جلاد أخى ، وأنت تسألنى أيسرنى ذلك ؟ !
وهنا تدخل الكاردينال وقال لأخيه : « انك تبالغ يا رينالدو ... لم يكن هناك دم سفك ! »
وقال بروسبيرو : « ان العروس من بيت مونالدى وليست من بيت دوريا ! »
وقال الكاردينال : « هناك فرق بين الحالين يا رينالدو ! »
ولكن رينالدو صاح بهما قائلا : « أتريدان المراوغة ؟.. الم تصبح قريبة أندريا دوريا بزواج عمتها به ؟.. ألم تتخذ لنفسها لقب دوريا ؟ »
وأرادت مادونا أوريليا أن تنهى هـذا الجدل ، فقالت لأخى زوجها : « انك تنسى وجودى هنا بينكما ، أرجو الا تصرخ هكذا فان صراخك يسبب لى الصداع ! »
ـ انك تخشين الصـداع على رأسك ، ولـكنك لا تخشين العار على اسرتك !
واشتد رينالدو فى كلامه فقال له بروسبيرو أخيرا : « انك تنكر الصلح الذى عقدته مع بيت دوريا ، مع أنك أفدت منه ... الم تكونوا جميعا فى المنفى ، لا تجرؤون على الاقتراب من جنوا أو المطالبة بأملاككم ؟ »
وبادر الكاردينال الى تأييده فقال لأخيه : « فكر فى ذلك يا رينالدو »
وهنا قال تاديو لابن عمه بروسبيرو : « حين رفع النفى عنا هل كنا نعلم أنه بهذا الثمن الشائن ؟ »
فقال له بروسبيرو : « لم تكونوا تعلمون .. والآن قد علمتم فماذا أنتم فاعلون ؟.. أتريدون أن تعودوا الى المنفى ، مهاجرين لا مثوى لهـم ، أم تبقوا هنا لتطعموا من الخبز الذى تأتيكم به خيانتى ؟.. أم يقتضيكم واجبكم أن تسلكوا مسلكا آخر للبطولة ؟.. اننى الى أن تختاروا اى هذه الطرق أراكم أهلا للازدراء الذى تفضلتم به على ، لأن اللص الذى يقف يحرس الباب شر من اللص الذى يسرق من داخل الدار ! »
وعندئذ خرج رينالدو مع ولديه غاضبين ، فقالت مادونا أوريليـا لولدها : « لقد أحسنت الرد يا بروسبيرو ، ولكن حججك هى كما قال تاديو أشبه بحجج محام بارع فى المغالطة ! »
ـ انها على الأقل قد أفحمتهم !
وعندئذ قال الكاردينال : « أنت مخطئة يا مادونا أوريليا ... لقـد أفحمتهم حججه لأنها الحق ! انى قسيس .. وأنا أخون تعاليم الدين اذا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أيدت فكرة الانتقام . . وثقى بأن راى القس أقرب الى الحق فى مثل هذه الامور من رأى الرجل العادى ! »

ولما خرج الكاردينال قالت لولدها : « كان يجــدر بك أن تقول لهم الحقيقة ! »

فقال لها : « اذن كانوا ينشرونها على العالم أجمع ! »

وقد أيقن بروسبيرو مما قاله الـكاردينال أنه هو الوحيد القادر على اخراجه من مأزقه ، فقد اشتدت به الحيرة بين القسم الذى أقسمه على نعش أبيه ، وبين حبه لجيانا وما سمعه منها عن حسن نيات الاميرال مما يذهب بكل داع للانتقام !

ومن أجل ذلك بادر إلى زيارة الكاردينال فى قصره ، وجلس معه فى فى الحديقة وقص عليه كل شىء ، وقد اعترف له بأنه كان يعتزم عدم اتمام الزواج بسليلة بيت دوريا ليكون ذلك وسيلة للانتقام منهم . . ولكنه لم يكن يعلم أن خطيبته التى اختاروها له هى الفتاة نفسها التى تعلق بها قلبه . . . ومن ثم أصبح فى حيرة لا يدرى لنفســه مخرجا !. . ثم ختم حديثه الى عمه الكاردينال قائلا : « ان فخامتك من بيت أدورنو كما أنك قس . . فما الذى تشير به على ؟ »

فقال الكاردينال : « ان الانتقام من شأن الله وحده ! »

ــ لو كنت من آل ادورنو فحسب ولم تكن قسا ، أكنت تنصح لى بالصفح عن آل دوريا ؟

فابتسم الكاردينال وقال : « لعلى كنت عندئذ لا أنصح لك بالصفح !. . ولكن ثق بأنى فى تلك الحالة أكون على خطأ . . . وأنا الآن ان كنت قسا فلا أزال من آل ادورنو . . . ولكنى أقسم لك انى لا أشعر بأية ضغينة نحو آل دوريا حتى ولو كان هناك دم مسفوك فعلا ــ وهو ما لم يحدث . ان أباك قد مات ــ على أسوأ فرض ــ من جراء أعمال أتاها آل دوريا ولكنهم لم يقصدوا موته . وانى لموقن أن أندريا دوريا ما كان ليتردد فى الدفاع عنه !

ثم أكد له الكاردينال أن الأصل فى كل ما حدث هو نكث ملك فرنسا بعهده للأميرال ، وأنه هو نفسه قد استوثق من ذلك وادرك أن أندريا دوريا لم تكن له يد فى كل ما حدث لآل ادورنو

ولما استفتاه بروسبيرو فى قسمه قال له : « انه لا قيمة له لأنه يخالف تعاليم الدين التى تدعو الى الصفح والمحبة ولا تقر فكرة الانتقام بحال ! »

وهكذا خرج بروسبيرو من لدنه وقد أزيح عن كاهله عبء ثقيل !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أسير الشهامة

كان بروسبيرو واقفا فى المكان الذى عينه له دوق ملفى ، بين الطليعة من كبار الضباط ورؤساء العائلات الكبيرة الذين كانوا فى انتظار وصول الامبراطور شارل الخامس الى الميناء . ووصل الامبراطور ونزل الى البر عند رأس كارينيا بين قصف المدافع ودق الطبول ونفخ الابواق وهتاف الاهالى المحتشدين خلف صفوف الحراس والجنود . وقد اقيم هناك قوس نصر كتبت عليه عبارة « جنوا ترحب بأقوى ملوك الارض » وفرشت درجات سلم السفينة بالسجاجيد ، وعند أسفل تلك الدرجات وقف دوريا مع النبلاء ، ومن خلفهم الرئيس الجديد فى ثيابه المذهبة ومعه الشيوخ بملابسهم القرمزية ، وثلاثون من نافخى الابواق لابسين ثيابا حريرية حمراء بيضاء !

ووقف الامبراطور الشاب بقامته المديدة بين رجال حاشيته ، وقد ارتدى بذلة سوداء لايزينها سوى وسام جزة الصوف الذهبى على صدره وصفوف من اللآلىء على ياقة معطفه . ثم مد يده الى دوريا لينهضه من سجوده عند قدميه ، وبعد أن استمع لخطاب الترحيب الذى ألقاه أسقف جنوا باللغة اللاتينية ، رد عليه بكلمات مقتضبة صادرة من أنفه .. ثم تقدم خطوة الى الامام عن رفيقيه الكاردينال جراشيادى لويازا الذى يعترف له ، والفونسو دافالوس أو المركيز دل فاستو .. وقد ابتسم الاخير لبروسبيرو حين وقع نظره عليه !

وقدم دوق ملفى للأمبراطور ابنى أخويه : جيانتينو وفلبينو ، ثم قدم له بروسبيرو ادورنو قائلا :

ـ ان السيد بروسبيرو ادورنو قد حاز تقدير جلالتكم

وأردف المركيز قائلا : « هـذا يا مولاى هو ادورنو الذى كسب معركة بروسيدا فنال بذلك اعجابكم !

فالتفت الامبراطور الى بروسبيرو وقال له : « انى أهنىء نفسى بكونك بين ضباطى !.. وأحب أن أعرفك عن كثب ! »

ثم مضى وبجانبه دوريا ، فحياه الرئيس ، ثم الطبقات الاخرى بعده ، وكان هتاف الشعب يشق عنان السماء !

وفى تلك الليلة احتفلت جنوا بضيفها بالاضواء والمرح . وأقام دوق ملفى مأدبة عشاء فاخرة تلتها حفلة تنكرية ثم حفلة راقصة . وفى تلك

www.ibtesama.com/vb Exclusive



وسألت جيانا خطيبها بروسبيرو : « هل محوت أنت كل أثر للضغينة في نفسك ؟ » فأجاب : « لقد دفنت سيئات الماضي كلها ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المأدبة جلس بروسبيرو الى المائدة وعن يمينه جيانا ، وعن يساره سيدة من بيت جيوستنيانو . وكان قليل الكلام حتى عجبت خطيبتـــه من أمره . ثم رقصا معا ، لكن رقصه كان آليا كمن هو مشغول الفكر . ثم جاءه المركيز فاصطحبه الى الامبراطور الذى سأله عن معركة بروسيدا وعن أسطول نابولى وعدد سفنه ورجاله ونوع أسلحته ومدافعه . ولما أجابه عن كل ذلك أبدى اعجابه بمقدرته وعجب من أهالى نابولى اذ استطاعوا اعداد ذلك الاسطول وتجهيزه . فابتسم بروسبيرو وقال :

ـ لم تفرض عليهم ضرائب فادحة لهذا الغرض يا مولاى ، فان سبع سفن من الاثنتى عشرة سفينة هى ملكى الخاص وقد صنعت وجهزت على حسابى !

ولما عجب الامبراطور من ذلك قال له المركيز دافالوس :

ـ ان صديقى بروسبيرو انما يتبع فى ذلك عادة القادة البحريين فى ايطاليا ، شأنه فى ذلك شأن دوق ملفى !

فقال الامبراطور موجها الكلام الى بروسبيرو :

ـ ان دوق ملفى مرتبط معنا باتفاق بمقتضاه نستخدمه وسفنه . لكنك أنت لست مقيدا بمثل هذا الاتفاق !

فرد بروسبيرو قائلا : « معذرة يا مولاى .. ان هذا الارتباط قائم فقد عقد معى أمير اورانج اتفاقا باسم جلالتكم وبه استأجرنى وسفنى لمدة خمس سنوات . وكل أملى أن أبقى فى خدمتكم ما دمت أستطيع أن أضع قدمى على ظهر سفينة ! »

ثم سأل الامبراطور عن معركة امالفى ، فبين له المركيز أنها برغم تفوق العدو فى العدد كاد بروسبيرو يحوز النصر لولا جبن قائدى السفينتين اللذين فرا من المعركة فى اللحظة الحاسمة !

وأخيرا قال الامبراطور لبروسبيرو : « كنت أعرف ان لى فى جنوا أول قائد بحرى فى العالم .. والآن أعرف ان لى فيها القائد الثانى كذلك ! »

وقد أثار تقدير الامبراطور لبروسبيرو غيرة الكثيرين ، لكن أحدا منهم لم يجرؤ على الافصاح عنها . أما أفراد أسرته فانهم لم يكتموا ازدراءهم له حتى لقد قال له ابن عمه تاديو بعد تلك الحفلة :

ـ انك تزيد ورما كل يوم يا ابن العم ، مثل الضفدعة فى الخرافة المشهورة . ولكن ثق ان الماء الذى يأتيك بهذا الورم هو الذى أغرقت فيه شرفك !

فكظم بروسبيرو غيظه وضحك قائلا : « لكنك يا ابن العم تشرب كل يوم من هذا الماء ! »

وفى يوم آخر قال له أحد ذوى قرباه : « اننا نخلع لك قبعاتنا الآن لأنك عالى المكانة عند الامبراطور والاميرال دوريا ، وان كنت فى المكانة السفلى عند الشرفاء ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفى الليلة الاخيرة التى مكثها الامبراطور فى جنوا ، أقام دوق ملفى حفلة باهرة على ظهر سفينة . وقد اجتمع فى تلك الحفلة بروسبيرو بخطيبته جيانا ، فأبدت له عجبها من تخلف والدته عن هذه الحفلة وعن المآدب السابقة ، ومن كونها لم تقابلها قط . واعتذر هو عن والدته بأن صحتها ضعيفة . فقالت له جيانا : « أن ضعف صحتها قد يفسر غيابها عن الحفلات والمآدب ، لكنه لايفسر عدم سماحها لى بزيارتها كما هو واجبى .. ألا يجدر بك أن تصارحنى بالحقيقة يا بروسبيرو ؟ »

فتناول كأسه وقال لها وقد قطب جبينه : « يمكنك أن تخمنى ! »

فقالت : « أنا أفهم من هذا ان مادونا اوريليا ليست موافقة على زواجنا !.. ان عداءها لبيت دوريا لاينقص مع الزمن ! »

فقال لها بروسبيرو : « لا تنسى انها قاست كثيرا ! » . فقالت له : « لم أنس ذلك قط .. لكنك أنت أيضا قاسيت ما هو أشد ! »

فتنهد بروسبيرو ، وقال لها : « نعم ياجيانا ، ولكن لى عزما أشد من عزمها ! »

وهنا سألته : « هل محوت أنت كل أثر للضغينة فى نفسك؟ » . فأجاب فى صدق واخلاص : « لقد دفنت سيئات الماضى كلها ! »

وبعد انتهاء الحفلة وجدها الاميرال دوريا بادية الفرح فقال لها : « ان عينيك تشعان بالسعادة ياجيانا .. وان هذا ليسعدنى !.. ان خطيبك بروسبيرو أهل لك وهذا أعظم ثناء منى عليه . وسأعيده اليك بعد الحملة سالما وعلى رأسه اكليل الغار ! »

وفى اليوم التالى أبحر الامبراطور شارل الخامس قاصدا الى بولونيا ليتلقى من يدى البابا التاج المقدس ، وكان قد اختير للبس هذا التاج بعد أن دفع رشوة كبيرة

▭

فى اليوم التالى أبحر الاسطول قاصدا شاطىء افريقية ، وقد رفعت الاعلام على سفن الاسطول الثلاثين ، وعلى ســــفن النقل والزوارق المختلفة الانواع والاشكال . وكانت خمس عشرة سفينة تابعة لدوريا وسبع سفن لبروسبيرو يقودها من سفينة اسمها « لابروسبيرا » . وثلاث سفن اسبانية تحت قيادة دون الفارو دى كارباجال ، وهو قائد بحرى كان الامبراطور يقدره أكبر تقدير !

وكان بروسبيرو قد أصبح مطمئن النفس مرتاح البال بعد أن ترك فكرة الانتقام من آل دوريا وأحله عمه الكاردينال من اليمين التى أقسمها أمام نعش أبيه . ولم يرد أن يكسب غضب أمه عند رحيله فتركها تعتقد أن صلحه مع آل دوريا صلح ظاهر ، ولم ينبئها قط بأن الخطيبة التى اختاروها له ، مادونا جيوفانا ماريا مونالدى دوريا ، هى نفسها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فتاة الحديقة ذات الثوب الفضى التى حدثها بحكايته معها من قبل ..
ولما ارتاح باله راح يقرض الشعر ويؤلف الاغانى فى خلال رحلة الاسطول الى الشاطىء الافريقى !

وكانت خطة دوريا أن ينقض بذلك الاسطول القوى على الجزائر ، ليضرب عاصمة مملكة خير الدين بربروسا ضربة مفاجئة تقصم ظهره وتشل حركته . على انه فى أثناء رحلة الاسطول بالبحر الابيض المتوسط صادف سفينة فرنسية علم من ربانها ان نبـأ الحملة وصـل الى بربروسا بواسطة ادارة مخابراته البـارعة ، فاستعد للقائها بأسطول قوى كبير !

وكان دوريا قد أصبح على مسافة مائتين وخمسين ميلا من جنوب غربى سردينيا ، وأقل من مائة ميل من الجزيرة ، فجعله ذلك يقف قليلا ريثما يجمع مجلسا حربيا على ظهر سفينة القيادة (جريفونى) فضم هذا المجلس بروسبيرو أدورنو ، وخمسة قواد آخرين . ولما بين لهم دوريا خطر الموقف وعدم امكان مفاجأة خير الدين بربروسا ، استـقر الرأى على العدول عن مهاجمة الجزائر فى ذلك الحين ، والاكتفاء بقطع الطريق على ما يتلقاه من المدد والمؤونة ، وذلك بمهاجمة أسطول ياقوت فى ثغر شرشل !

وفى يوم من أيام أغسطس ، وتحت وهج شمس افريقيـة ، دخل الاسطول الامبراطورى الى خليج شرشل ، وكان الميناء مفتوحا لاتسده حواجز ، ولم يجد أية مقاومة ، اذ لم تكن هناك سوى بضع سفن ماكادت تلمح الاسطول قادما حتى أغرقت نفسها كيلا تقع فى قبضته أو لـكى تعوق تقدمه . ولكن دوريا ومن معه استطاعوا وهم على ظهور سفنهم أن يتبينوا حركة ناشطة داخل المدينة يصحبها دق الطبول ونفخ الابواق . كما شوهدت جموع من الاهلين يمرون فى الطرق صوب القلعة ليحتموا بها ومعهم حميرهم وبغالهم وجمالهم وماشيتهم ، اذ لم تكن للمدينة أسوار يحتمون وراءها !

ولما اقترب الاسطول من الميناء ، أمر دوريا باطلاق المدافع ، وسرعان ما رددت التلال صدى قصفها ، ثم أمر دوريا بوقف الضرب حين جاوبت القلعة باطلاق مدافعها ، واتجه بسفنه شرقا الى نقطة هناك تحتمى بها من مدافع الاتراك . ثم أنزل الى المدينة ألفا ومائتين من الجنود ، منهم خمسمائة من أبناء جنوا ، وأربعمائة من الاسبانيين ، وثلاثمائة من أسطول نابولى الذى تحت قيادة بروسبيرو . وجعلهم قسمين : أحدهما مكون من جنود اسبانيا وجنوا بقيادة جيانتينو ، والآخر مؤلف من جنود نابولى بقيادة بروسبيرو

وقد فوجىء قره مانلى القائد التركى لحامية شرشل ، بنزول جيش الفرنجة الى البر ، وكان قد اعتصم بالقلعة مع جنوده واللاجئين من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاهالى ، مقدرا انه لن يحتاج الى الدفاع عن غير القلعة ، اذ لم يتوقع نزول الاعداء فى تلك النقطة الشرقية من الشاطىء . وكانت هناك قلعة أخرى على الشاطىء أصغر حجما ، وبها حامية من جنود الانكشارية لايزيد عددهم على أربعمائة ، فرأى قائدها أن يفاجىء جيش الفرنجة عند نزوله الى البر ، وسرعان ما هجم على القسم الاول الذى يقوده جيانتينو ، ولكن هذا تمكن من الصمود بجنوده أمام ذلك الهجوم . ثم انقض بروسبيرو بجنوده على جناح الحامية الانكشارية ، فنقص عددها الى النصف وقتل قائدها ، فارتد بقية جنودها الى القلعة التى أتوا منها . ورأى جيانتينو أن يثأر لما أصاب فرقته من خسائر فسير فى اثرهم الفرقة الاسبانية تحت قيادة ضابط يدعى سارمنتو ، وبقى هو ليشرف على نقل الجرحى من جنده الى احدى السفن !

وكان الاسطول المغير قد بدأ يتحرك صوب الميناء ليعاود ضرب القلعة بالمدافع ، على حين يهجم جيش الفرنجة من البر ، وهكذا أمل دوريا بهذا الهجوم برا وبحرا أن يقضي على المقاومة فى وقت وجيز ، وبدأ قصف المدافع من الجانبين يهز المكان هزا ، وكانت المدافع التركية قليلة الجدوى ، ولكن القلعة متينة البنيان ، فلم تكن الخسائر كبيرة لدى الجانبين !

وبينما كان سارمنتو وجنوده يطاردون فلول الانكشارية ، توجه بروسبيرو وجنوده الى حافة الخندق الذى أمام القلعة الصغرى ، وهناك سمعوا من وراء سور القلعة صيحات عالية وأصوات استغاثة تقول : « باسم المسيح انقذونا ! » .. وتساءل جيانتينو مستغربا : « ما هذا النداء ؟ » . فرد أحد ضباطه قائلا : « لابد انهم المسيحيون الذين أسرهم الاتراك فى غاراتهم على الجزر والموانىء » . ولكن جيانتينو خشى أن يكون فى الأمر خدعة . فقال له بروسبيرو : « أحسب ان من السهل اقتحام هذه القلعة ، لأن الخندق جاف كما ترى ! »

فقال له جيانتينو : « ليس من المعقول ألا يكون عليهم حراس ، فكيف تركوهم يصيحون هكذا ؟ . . انى لا أريد أن أقع فى كمين نصبه الاتراك ! »

فقال بروسبيرو : « لعل حراسهم تركوهم لكى يقاتلونا . . انى داخل لأنقذهم ! »

فتساءل جيانتينو : « والقلعة الكبرى ؟ » . فأجابه بروسبيرو : « يجب أن ننقذ اخواننا هؤلاء أولا . . وبعدئذ نقتحم القلعة الكبرى بعد أن نعزز بهم قوتنا ! »

فقال له جيانتينو : « ان تعليمات الاميرال صريحة باقتحام القلعة الكبرى ! » . فرد عليه قائلا : « لو كان هنا لغيرها ! »

فقال له جيانتينو : « ان اعتدادك بنفسك سيقودك يوما الى حتفك ، وأخشى أن يكون ذلك اليوم قد حان ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال بروسبيرو : « فليكن !.. ان المكتوب لابد أن يكون كما يقول أعداؤنا ! »

ولم يسع جيانتينو ازاء ذلك الا أن يتمنى له النجاح فى خطته الجريئة الخطرة ، ثم مضى هو ورجاله ، وتركه يهيىء فرقته لانقاذ الأسرى الذين بالقلعة الصغيرة !

وكان الأمر كما توقعه بروسبيرو : فقد وجد فناء القلعة خاليا من الجنود ، وسمع من وراء باب موصد هناك أصواتا تطلب النجدة ، فأمر جنده بتحطيم ذلك البـــاب ، وسرعان ما اندفع منه الأسرى وأخذوا يعانقون منقذيهم ويقبلونهم وهم أشبه بالعراة ، وقد قيدوا بالأغلال ، وطال شعر رؤوسهم ولحاهم ، ولا يقل عددهم عن تسعمائة رجل !

وأخذ بروسبيرو يتأمل حالهم راثيا لما أصابهم ، ثم أمر رجاله بفك قيودهم ، فلما انتهوا من ذلك نظمهم صفوفا ، ثم أصدر أمره بمغادرة القلعة على أن يمشى نصف جنوده أمام الأسرى ونصفهم الآخر وراءهم . وما كاد الأسرى يخرجون الى الطريق حتى أصر أكثرهم على الانتقام من آسريهم بالانضمام الى القوات التى تهاجم القلعة الـكبيرة . ولم يسع بروسبيرو الا تركهم وما يشاءون ، فانطلق حوالى مائة منهم نحو القلعة الكبرى معتزمين الحصول على الســـلاح اللازم لهم من البيوت التى يصادفونها فى طريقهم !

وفى الوقت نفسه كان الجيش الذى يقوده جيانتينو قد استحوذ على البلدة ، فأخذ جنوده ينهبون ويسلبون تاركين اقتحام القلعة الكبيرة الى ما بعد ذلك ، وبعد قليل انضم اليهم أولئك الأسرى ، وكانوا أعرف بمواطن الثروة والمال ، فتقدموا حمـــلة السلب والنهب ، بينما مكث جيانتينو فى ميدان السوق ومعه حوالى ستين من رجاله فى انتظار عودة تلك الحملة . واكتفى الجنود الذين معه بما غنموه من فاكهة وحلوى تركية وسلع مختلفة كانت فى السوق !

وفى خلال ذلك كان بروسبيرو قد وزع بقية الأسرى الذين أنقذهم على سفنه الست الراسية عند ذلك الرأس . ثم استقل قاربا ، قاصدا الى السفينة جريفونى ليقدم تقريره الى الاميرال . وكانت تلك السفينة قد تقهقرت الى مؤخرة الاسطول اذ أصيب صاريها وشراعها . وكان الاميرال دوريا واقفا مع دون الفارو دى كارباجال ، فلما رأى بروسبيرو قال له :

ــ ما الذى جاء بك الى هنا بعد أن أمرت بأن تبقى على البر ؟.. هل كل واحد هنا يتحدى سلطتى ؟.. قبل أن ننتهى من هـــذه الحملة ، سأريكم من هو القائد !

وكان من المنتظر أن تثور ثائرة الاميرال ، ولذا أدرك بروسبيرو ان غضبه هذا لابد انه نتيجة جدل سابق مع دون الفارو ، ولذلك رد مبتسما :

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ـ لقد جئت ياسيدى لأقدم تقريرى ، فقد كان من حسن حظى انى استطعت فك اسار نحو ألف مسيحى كانوا معتقلين بالقلعة الصغيرة !

ثم ذكر كيف وزعهم على السفن وانه جاء ليتلقى أوامر الاميرال بشأنهم . فلما سمع الاميرال ذلك ولى غضبه وقال لدون الفارو :

ـ هل سمعت ؟.. لقد أنقذ ألفا من اخواننا .. أفتقول بعد ذلك انى أبدد البارود عبثا هنا ؟

وفى هذه اللحظة أطلقت المدافع من السفن التى فى المقدمة ، وكان دويها كقصف الرعد . ولكن لم تجاوبها القلعة . فجعل الاميرال يتساءل : « أكفت القلعة عن الضرب لنفاد ذخيرتها ؟.. أم انها خدعة من الاتراك ليستدرجونا الى الاشتباك معهم ؟ »

وأمر بروسبيرو بأن يبقى هنيهة حتى يستوضح الامر .. ثم أصدر أمره بالكف عن الضرب . وبعد قليل انقشـــع الدخان عن زورق جاء مسرعا من الناحية الشرقية ، ثم نزل منه جاويش يطلب مقابلة الاميرال توا . ولما لقيه كان يلهث من التعب وقص عليه قصة عجيبة ، دلت على أن القائد التركى « قره مانلى » لم يكن غبيا ولا جبانا . فقد كان يرقب من القلعة ما يحدث فى المدينة من أعمال النهب والسلب ، والفوضى التى أصبح فيها جنود الفرنجة من جراء ذلك ، ورأى فى ذلك فرصة سانحة ، فدهمهم بقوة ألفها من خمسمائة رجل من جنود الحامية والأهالى حيث أعملوا فيهم القتل والذبح !

وبينما كان الجاويش الأسبانى يروى ما حدث ، رأى الذين على ظهر السفينة جريفونى جماعات من الجنود يهربون نحو السفن ، ومن خلفهم جنود الأتراك يسوقونهم الى البحـــر . وسرعان ما تقــدمت السفينة « ليجوريا » لانقاذهم غير مبالية خطر ضربها من القلعة . فاستطاعت صد المطاردين بما أطلقته عليهم من مدافع ، ثم صعد اليها جيانتينو ومعه بقية جنوده وعددهم يتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة بينهم الجنود الذين كانوا معه فى السوق !

وطلب جيانتينو الى قائد السفينة ليجوريا أن يذهب به الى سفينة القيادة ، وهناك وقف أمام عمه الاميرال يلهث من التعب ويتصبب منـــه العرق ويسيل الدم من جراحه ويرتعش من السخط والرعب معا ...

وكان بروسبيرو ودون الفارو ما زالا مع الاميرال فسمعا جيانتينو وهو يذكر له كيف وقعت الكارثة ، ثم سمعا الاميرال يقول غاضبا :

ـ لقد أنقذ بروسبيرو ألف أسير من غير أن يفقد سوى رجل واحد . أما أنت فلم تفعل شيئا ومع ذلك فقدت نصف قوتك !

فرد جيانتينو غاضبـــا : « ما كان لى أن أتوقع ما حدث ؟ ان أولئك الجنود المتمردين ، بل أولئك اللصوص قد راحوا ينهبون ويسلبون ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال له الاميرال : « كان جديرا بك أن تمنعهم وأن تواصل الهجوم على القلعة ! »

فقال جيانتينو : « كيف كنت أستطيع أن أمنع سيلا من الجنود بيدى ؟ »

وهنا قال له دون الفارو : « ليس بيديك ولكن بسلطانك . أليست لك سلطة عليهم ؟ »

فتدخل بروسبيرو قائلا : « اننا اذ نقف لنتجادل هنا ، قد نهيىء للأعداء فرصة ذبح الجنود الذين أسروهم . وعلى هذا أستأذن سيدى الاميرال فى أن أذهب لأحاول انقاذهم .. ان جنودى لا يزالون على اللسان بجانب السفن ، وهم يستطيعون أن . . . »

فقاطعه جيانتينو قائلا : « ليس لدينا متسع من الوقت!. اننا جميعا فى شرك الآن . واذا تأخرنا ضاع الأسطول . . . لقد صرح لنا أسير مسلم بأن النكبة لا تلبث قليلا حتى تحل بنا ، لأن خير الدين ومعه ياقوت والريس سنان وكاشا ديابلو فى الطريق بأسطولهم كله لانجاد القلعة الكبرى ! »

فسأله اندريا دوريا : « أتقول أسطول بربروسا كله ؟

فرد جيانتينو : « نعم .. وهو مؤلف من حوالى مائة سفينة ! »

ورفع الاميرال بصره بغتة وقال : « رباه !.. انها آتية حقا ! »

ونظر الحاضرون الى الأفق الشرقى حيث نظر الاميرال ، فاذا بهم يرون السفن القادمة وكأنها طيور تحلق على انخفاض ، وليس بينهم وبينها الا حوالى ستة أميال !

وعندئذ قال بروسبيرو : « ان مجىء سفن الاعداء أدعى الى أن أسرع لانقاذ أولئك الأسرى ، فأذن لى فى ذلك يا سيدى الاميرال ! »

فقال له دوريا : « لقد فات الأوان يا بروسبيرو .. عد الى سفينتك وأقلع توا بأسطولك ! »

فقال بروسبيرو : « الا أحاول انقاذ أولئك البائسين الذين على البر ؟ ! »

فصاح به دون الفارو : « دعهم الى مصيرهم ! »

وردد دوريا بصره بين الاثنين وقال : « على أن أنقذ الأسطول .. أما أولئك الجنود فعليهم أن يتحملوا عاقبة طيشهم .. وسأعطى الآن اشارة الرحيل وعليهم اذ يسمعونها أن يشقوا طريقهم الى البحر بقدر ما يستطيعون ! »

فقال له بروسبيرو : « واذا لم يستطيعوا المجىء ؟.. أعنى اذا كانوا الآن معتقلين ، فما العمل ؟.. ان فى تركهم هكذا ما لا يتفق مع الانسانية ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فرد الاميرال قائلا فى عنف : « ان مهمتى هى قيادة الاسطول .. هيا الى سفينتك ! »

ثم أصدر أمره بالرحيل ، فأطلقت ثلاث طلقات انذارا بذلك ، وسمع على أمواج البحر والأثير صوت خافت لصيحات الجنود والأهالى المسلمين ، وقد وقفوا على ربوة لايصل اليها مدى طلقات المدافع ، وكانوا يهللون ويكبرون وعاد الاميرال يأمر بروسبيرو بالذهاب الى سفينته ، لكن هذا أصر على الذهاب الى الشاطىء لانقاذ الأسرى من جنود جيانتينو . فعنفه الاميرال وقال له : « عليك أن تطيع الأوامر ! »

فرد قائلا : « من العار أن أطيع هذه الأوامر ، كما أن من العار عليك أن تصدرها ! »

فاشتد الغضب بالاميرال وقال له : « ان هذه الاهانة المنبعثة عن جهل لا ترقى الى ! »

ثم تغلب على غضبه وقال له : « فكر فى الموقف جيدا .. لدى عشرة آلاف جندى على ظهر هذه السفن .. أفتريد أن أعرض حياتهم للخطر فى سبيل انقاذ أربعمائة ؟.. أم تريد أن أضيع الأسطول من أجل أربعمائة جندى ربما كانوا الآن قد قتلوا عن آخرهم ؟.. لقد كسبت يا سيد بروسبيرو شيئا من الشهرة بوصفك قائدا بحريا .. والآن تجعلنى أتساءل : كيف توصلت الى ذلك ؟ ! »

وكان بروسبيرو قد تولاه الغضب فرد هذه الاهانة بمثلها وقال له : « وصلت الى ذلك بعدم الفرار من الخطر كما رأيت أنت فى معركة جوالاتا ! »

واذ قال ذلك قفز الى الزورق فصاح دوريا قائلا : « أمسكوه ! » . وصاح به دون الفارو قائلا : « أنت مخطىء يا دون بروسبيرو » . بينما قال جيانتينو وهو يضرب الارض بقدمه : « يا له من كلب وقح متمرد !.. لعل هذه خاتمة حياته !.. لقد كان يجدر بنا أن نوقن بأنه لا صلح مع هذا الأحمق المغرور ! »

وسكنت سورة غضب الاميرال اذ تذكر فى تلك اللحظة قوله لجيانا : « سأعيده اليك بعد الحملة سالما »

وكانت سفن بربروسا قد اقتربت حتى بانت أشرعتها الكبيرة المثلثة ، ولم يخف على الاميرال أندريا دوريا أن تلك السفن يبلغ عددها ثلاثة أضعاف سفنه . ولم يبق أمامه الا الفرار بأسطوله بأسرع ما يستطيع ! فأصدر أمره الى سفن أسطوله بالاتجاه الى جزر البليار !

لم تخف على أسطول الأتراك حركة انسحاب أسطول الفرنجة بقيادة الاميرال اندريا دوريا وسرعان ماتبعه خيرالدين بربروسا بالجانب الاكبر من أسطوله ، بينما اتجه ياقوت بعشر سفن من الاسطول الى خليج

www.ibtesama.com/vb Exclusive

شرشل ليرى ما هناك وقد وجد الميناء خاليا من السفن ما عدا سفينة أمبراطورية واحدة بها عدد من الأسرى الأتراك وليس بها من يحميها . وكانت الوحيدة الباقية من السفن الثــلاث التى قادها بروسبيرو الى ذلك اللسان ثم تركها ونزل الى البر لينقذ الأسرى المسيحيين ، بينما ترك السفينتين الأخريين اللتين يمكنهما أن تذهبــا مع أسطول دوريا وعليهما الأسرى الثمانمائة الذين أنقذهم من القلعة الصغرى قبل ذلك

وقد استولى ياقوت على تلك السفينة الباقية ، ثم نزل مع جنوده الى المدينة حيث اتجهوا الى الملعب الرومانى بها ، وهناك وجدوا قوة من الافرنج وقد أحاطت بهم جماعات العرب والأتراك . وكانت تلك القوة ، من جنود بروسبيرو وقد انضم اليهم بعض الأسرى الأسبان

وكان من اليسير على ياقوت الملقب بسيف الاسلام أن يغلب رايه على رأى الحاكم التركى ، وسرعان ما أمر بجلب المدافع على ظهور الثيران من القلعة ليقضى على تلك القوة الباقية من الحملة . ثم بعث الى من بالملعب رسولا يحمل علما أبيض ليطلب منهم التسليم . ولم يرد بروسبيرو أن يبت فى الامر وحده ، وسأل أتباعه عما يريدون ، وكانوا قد رأوا المدافع التى جلبت وأيقنوا بالهلاك ، فتشبثوا بالفرصة التى أتيحت لهم للبقاء على قيد الحياة ، وآثروا عذاب الأسر وذله لعلهم يجدون فرصة أخرى للخلاص !

وهكذا طرحوا أسلحتهم أرضا ، وخرجوا من موقعهم مستسلمين . فأحاط بهم جنود ياقوت وساقوهم الى حظائر أعدوها لهم حتى يحين أوان بيعهم فى سوق الرقيق !

وكان آخرهم بروسبيرو وقد امتلأ قلبه حزنا على مصيره ومصــير هؤلاء الجنود الذين جاء ينقذهم فانتهى به وبهم الامر الى هذا المصير ، وكان شديد الحقد على اندريا دوريا اذ خذلهم وفر بأسطوله بدل أن ينجدهم . ونسب ذلك الى الأثرة المعهودة فى آل دوريا وقال لنفسه . « حقا .. لقد كنت أبله اذ حسبت أن العداء القديم مع أولئك القوم قد زال ! » ●

وقد خرج وحده من الملعب الرومانى ووقف يواجه الجموع وهى تكيل له السباب وتهز أسلحتها فى وجهه ، وهناك رأى الريس ياقوت فى مركز القائد الاعظم ، وقد ارتدى قفطانا من سندس أخضر ، يتدلى من حزامه سيف عربى ذو مقبض من الذهب والعاج . وعلى رأسه عمامة من حرير أخضر تجللها خوذة مدببة تلمع فى الشمس كالفضة المصقولة . وفى الوقت نفسه لمحه ياقوت فنظر اليه وقد ارتسمت على شفتيــه القرمزيتين ابتسامة خفيفة ، ثم تقدم منه وهو يزيح الناس من على جانبيه ، وبعد أن حياه تحية حسنة قال له ضاحكا : « هكذا تقلبــات الحرب ، مرة أخرى يا سيد بروسبيرو ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد كلمه بلغة الفرانكا التى هى مزيج من عدة لغات ويعرفها اهالى شواطىء البحر الابيض المتوسط . ورد عليه بروسبيرو قائلا : « مادمت قد قدر لى أن أقع فى الأسر ، فانى يسرنى أن اكون أسيرك أنت ! » . ثم أخذ يفك حزامه ليقدم سلاحه الى ياقوت ولكن هذا منعه من ذلك قائلا له : « كلا . . ! أبق عليك سيفك يا سيد بروسبيرو . . . تكفينى منك كلمة الشرف ! »

فحنى بروسبيرو له راسه وقال : « انك شهم كريم يا سيد ياقوت ! »

فرد ياقوت قائلا : « انى أعامل الناس كما يعاملوننى !. وقد لقيت منك حسن المعاملة حين كنت أسيرك . . وأقسم برب العزة لتلقين منى مثلها ما دام القدر قد رماك بين يدى . . والواقع انى لم أكن أتوقع أن أجدك بين أتباع ذلك القرصان الوغد أندريا ! »

فقال بروسبيرو : « هكذا تقلبات الحرب كما قلت ياسيد ياقوت . ان حياة الجندية مملوءة بالمصادفات ! »

فقال له ياقوت : « بل كل شىء بارادة الله ! لقد كتب الله لى أن أسترد الثلاثة الآلاف دوكات التى افتديت بها نفسى من الأسر !. والى أن يتم ذلك يجب أن تعد نفسك ضيفى يا سيد بروسبيرو ! » . وهو يشير بالثلاثة الآلاف دوكات الى أن بروسبيرو سيفتدى بمثلها

والحق أن بروسبيرو لم يجد أى سبب للشكوى أثناء وجوده ضيفا على ياقوت فى شرشل ثم فى الجزائر . وقد علم منه أن أندريا دوريا استطاع الافلات من مطاردة خير الدين والعودة بأسطوله سالما الى جنوا ، فعلق بروسبيرو على ذلك قائلا : « كان خيرا له لوأنه واجه عدوه ولم يهرب ! »

فرد ياقوت قائلا : « لعل سيده الامبراطور ليس من هـذا الراى ، وانى أحمد الله على أنى لست جبانا ، لكنى لا أشتبك فى قتال أتوقع منه الهزيمة . . ان ذلك لا يعد شجاعة بل هو سوء قيادة ! »

وعلى هذا لم يجد بروسبيرو غضاضة على نفســه من أن يوفد الى الاميرال دوريا رسولا ليقابله فى جنوا ويعود من عنــده بثلاثة آلاف دوكات ليفتدى بها حريته ويعود الى وطنه

وكاندوريا قد وصل الى جزيرة ماجوركا بعد أن فقد سفينتى نقل تأخرتا فى الطريق وأسرهما خير الدين ، كما فقد من رجاله سبعمائة فى مقابل الثمانمائة الذين انقذهم بروسبيرو من الأسر . وفى طريقه بعد ذلك صادف أربع سفن جزائرية قاصدة الى مصر فأسر احداها وحرر من كانوا فيها من الأسرى المسيحيين . وبذلك راى أنه فعل ما يمكنه من رفع راسه حين يعود الى موطنه !. . أما بروسبيرو فافترض الجميع انه لقى حتفه فى مغامرته لانقاذ جنود جياتينو الذين تخلفوا فى شرشل ، وقال دون الفارو دى كاربا جال فى تقريره عنــه : « انه مات ميتــة الأبطال » . أما الاميرال دوريا فقال عنه : « لقد راح ضحية عمل من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أعمال الشجاعة التى يكتنفها التهور ! »
على انه كان شديد الألم اذ لم يعد الى جيانا بخطيبها كما وعدها !..
وقد خشي ان يلقاها وهو الذى لا يخاف أحدا !.. فلما لمحها واقفة مع قرينته مادونا بيريتا فى الطليعة بين مستقبليه بالميناء ، راعه ما اعتراها من تغير فقد كانت شاحبة الوجه زائغة البصر . وعجب لأنها لم تسأله عن خطيبها كما كان ينتظر ، ثم قال لها أخيرا وهو يقبلها قبلة أبوية : « عندي لك نبأ خطير ! » لكنها بقيت ساكتة ولم تسأله عن هذا الخبر ! . وكانت مادونا بيريتا واقفة بجانبها وقد أمسكت بيدها مواسية . فأخذ الاميرال يقص عليها نبأ خطيبها مشفقا من أن يصعقها النبأ ، ولكنها قالت فى هدوء : « انى أحمد الله على أن نهايته كانت هكذا نهاية شريفة ! »

ولما وقف الاميرال على خافية الامر أخذته الدهشة واستبد به الألم!..
ذلك انه بعد سفره فى تلك الحملة البحرية ، ومعه بروسبيرو أدورنو ، اشتد سخط آل سبينولى عليهما ورأوا فى عقد الصلح والمصاهرة بين بيتيهما خطرا على مطامعهم .. وهكذا لم تمض على بدء تلك الرحلة أيام حتى تصدى فابيو سبينولى للشاب تاديو أدورنو متعمدا اهانته . فلم يسع هذا الا أن دعاه الى المبارزة وقتله !. وفى اليوم التالى سلط آل سبينولى من حاول اغتيال تاديو أدورنو أخذا بالثأر .. فتوجه والده الى مادونا أوريليا والدة بروسبيرو ، وقال لها :

ــ ان خيانة ابنك لنا قد بدأت تؤتي ثمارها.ولا يبعد أن يموت ولدى من الجروح التى أصيب بها فى محاولة قتله .. ولكنى أقسم بالقديس لورنس لأجزين بروسبيرو على ذلك حين يعود ، باســتلال دمه قطرة قطرة من عروقه !

فامتقع وجهها وقالت له : « أتهددني بقتله ؟ » . فأجابها غير متمالك نفسه : « ان القتل وحده لا يكفى قصاصا منه ، انه وحده المسئول عما أصاب ولدى ! »

فقالت له : « أحسب أن الاجدر بك أن تثأر لولدك من آل سبينولى الذين حاولوا اغتياله »

فقال لها : « لن يفوتنى ذلك ، ولكننى فى الوقت نفسه لن أدع ولدك يفلت من القصاص جزاء على خيانته التى جلبت العار على بيتنا كله !.. لقد بعثت انيبالى فى أثره لهذا الغرض ! »

ففزعت وقالت له : « بعثت بولدك انيبالى وراء بروسبيرو ليقتله؟.. لا شك انك جننت !. وكذلك ولدك !.. إنك لا تدرى ما أنت فاعله أيها الاحمق ! »

ولما هم بالانصراف منعته من ذلك وقالت له هامسة : « انك أعمى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

البصر والبصيرة يا رينالدو ·· ان الامر ليس كما تظن ·· واذا نفذت وعيـــدك فستندم على ذلك الى آخر حياتك ·· ألا ترى أيها الغبى أن بروسبيرو ما كان يمكنه أن يفعل غير ما فعل ؟ »

فضحك ساخرا منها ولكنها صاحت به قائلة : « اسمع أيها الاعمى الاحمق ·· ماذا كان آل أدورنو يستطيعون أن يعملوه وهم في المنفى؟·· قبل أن نسوى حسابنا مع آل دوريا كان لزاما علينا أن نعود الى جنوا . وكيف كان يمكن ذلك الا اذا جعلناهم يطمئنون الينا ؟ ! »

ثم أوضحت له ان الصلح الذى تم بين بروسبيرو وآل دوريا ليس سوى صلح ظاهرى أراد به خداعهم · وقد قبل ما عرضوه عليه لكى يكون أقدر على الانتقام منهم ، ففتح رينالدو فاه من الدهشة وتساءل قائلا : « ولكن كيف يصل به الامر الى أن يخطب جيوفانا ماريا دوريا؟·· أحسبك قد نسيت ذلك ·· كلا !· انى لا أصدق ما تقولينه ! »

فقالت له : « بل هو الصدق ·· وأقسم لك بالكتاب المقدس ! »

فقال : « هذا عجيب جدا !· وتلك السيدة التى خطبها ؟ »

فابتسمت مادونا أوريليا ابتسامة تنم عن القسـوة وقالت : « تلك الخطيبة ؟·· سوف تكون موضـــع السخرية ويشركها فيها آل دوريا جميعا ! »

فارتاع رينالدو وقال : « اذا صح هـذا فان بروسبيرو يكون بذلك قليل الشرف ، كما لو كان قد خان أسرته ! »

فقالت له محتدة : « اذن أنت غير راض عنه فى الحالين ؟·· ولا أدرى ما الذى يرضيك اذن ! »

فقال لها : « هناك حدود يا سيدتى !·· ان الانسان لا ينبغى له أن يسحق امرأة فى سبيل الانتقام ، بل يجب أن يثأر من عدوه مباشرة ! »

فسخرت منه وقالت : « اذن·· لماذا لم تجذب أنت لحية أندريا دوريا حين كان هنا ؟·· ولماذا لا تنتقم بنفسك من بعـض رجال أسرة دوريا الآخرين ؟ » · ثم تركته ينصرف ، وتحقق ما خشيته من افشائه ذلك السر ، فزارتها بعد ثلاثة أيام دوقة ملفى (قرينة الاميرال) ومعها ابنـة أخيها جيوفانا ماريا (جيانا) خطيبة بروسبيرو ، وحيتهما عند الباب بقولها : « لقد شرفتما بيتى ! »·ثم مضت أمامهما الى غرفة الاستقبال· وهنـــاك قالت لها الدوقة : « ما دامت صحتك قد حالت دون تشريفك بيتنا ، فقد رأيت أن واجب بنت أخى يقتضيها أن تزورك ! »

فردت مادونا أوريليا قائلة : « لقد تأخر اداء هذا الواجب قليلا فيما أظن ! »

وهنا قالت جيانا برقة : « لكنى لم أقدر أن أؤخر أداءه يوما آخر ! »

وكانت والدة بروسبيرو تواجه زائرتيها وكأنها مشتبكة فى مبارزة!·· ثم قالت الدوقة : « انى أقر يا مدام بأنى كنت أسائل نفسى : أصحتك هى التى أبعدتك عنا أم هناك سبب آخر ؟·· وقد زاد ارتيـــابى حين

www.ibtesama.com/vb Exclusive

رأيتك تستقبلين خطيبة ابنك استقبالا غير حار ! »

فردت مادونا أوريلياقائلة : «كنت أستقبلها الاستقبال الحار لو أنني كنت قد اخترتها لولدى !٠ ولكن هذا ما لا أدعيه !٠ ويحسن بنا أن نكون صريحات ! »

فقالت لها جيانا : « أأنت الآن صريحة يا سيدتي ؟٠ لقد سرت في المدينة قصة يقال انك مصدرها !٠٠ انها قصة كريهة ٠ قصة شائنة٠٠ وقد بلغ من قبحها وشناعتها أن عمتي مترددة في سؤالك عنها ٠٠ ولكن سامحيني يا سيدتي اذا لم تكن لى لباقة مادونا بيريتا !٠٠وأنت تقدرين ولا ريب شدة حاجتي الى الوقوف على الحقيقة من غير مواربة أو خفاء ٠٠ ان تلك القصة تقول ٠٠٠٠ »

وكانت مادونا أوريليا قد تغلب الغضب على اتزانها فقاطعتها قائلة : « اني أعرف تلك القصة ولا حاجة بك الى تكرارها !٠٠ لقد ذكرت قبح تلك القصة وشناعتها وما فيها من إهانة ٠٠ ولكن ألم تكن شر اهانة لنا آل أدورنو أن تتصوروا أن ولدى يصاهر قاتل أبيه ؟! »

فارتاعت الدوقة ولم تزد على أن قالت : « رباه ! »

أما جيانا فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت : « ان تلك الاهانة أقل كثيرا من أن ينسب الى بروسبيرو أدورنو مثل هذا الخداع ! »

ـ ان وجهات النظر تختلف !٠٠ ونحن نقدر أن نحتمل هذه الاهانة!

ثم صاحت بها الدوقة قائلة : « لقد فهمت أن تلك القصة الشنعاء صادقة !٠ أشكر لك مصارحتنا بالحقيقة ! »

وقامت تريد الانصراف قائلة لابنة أخيها : « تعالى يا بنيتى ٠٠ لقد تلقينا الجواب الذى جئنا نسأل عنه ! » ٠ ولكن جيانا قالت : « لا يمكن أن يكون الامر كذلك !٠ انها أكذوبة ناشئة من الحقد علينا والرغبة فى ايلامنا ! » ٠ ثم وجهت كلامها الى والدة بروسبيرو قائلة : « هل نسيت يا مدام أن ابنك ذهب يقاتل ، وانه اذا لقى حتفه بقيت ذكراه ملوثة بهذه الفرية التى لا يصدقها الا الحمقى ؟! »

فضحكت مادونا أوريليا ضحكة تنم عن قسوة وقالت : « اذن أنت تؤثرين أن تبقى فى جنتك الوهمية ؟٠٠ ألم يمكث بروسبيرو مدة طويلة فى جنوا ؟٠٠ فكيف اذن لم يتزوجك فى خلالها ؟٠٠ ما الذى منعه ؟٠٠ لعلك تدركين الآن لماذا كان بارد العاطفة نحوك كلما لقيك ! »

وعندئذ فقط أدركت جيانا الحقيقة ، فامتقع وجهها وتولتها رعدة شديدة ٠٠ ثم قادتها عمتها الدوقة من يدها لتخرجا وهى تقول لمادونا أوريليا : « ان ابنك يا مدام جدير بأمه الفلورنتينية ! »

وقد روت الدوقة لزوجها الاميرال كل ذلك فلم يرد أن يصدق فى البداية ٠ ولكن ابنى أخويه كانا حاضرين ، فقال له فلبينو : « لقد كنت على صواب اذ جعلته فى الأسر يكدح على مجداف ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقال جيانتينو : « وكنت مصيبا كذلك حين عارضت فكرة مصاهرته لبيتنا ! »

وكان صبر الاميرال قد نفد فقال لهما : « أتريدانأن تقولا انى أحمق وانكما وحدكما العاقلان ؟٠٠ ولكن لا تنس يا فلبينو أن مسلكك نحوه هو الذى جعل الحقد فى قلبه مستعرا لا يخمد ! »

ـ أتريد أن تلتمس له عذرا حتى الآن ؟

ـ انى لا ألتمس له عذرا !٠ولكننى أحمد الله علىأنه عصانى فىشرشل وبذلك انتهى أمره !

فقال جيانتينو : « كنت أفضل أن تكون خاتمته على يدى لا بأيدى الاتراك ! »

وبعد بضعة أسابيع من ذلك كان الاميرال غائبـــا عن جنوا ، وكان جيانتينو بالقصر ، فجاءه أحد ضباط الميناء بشاب عربى يدعى يعقوب، وذكر أنه وصل على سفينة ومعه كتاب الى الاميرال دوريا ، فلما سأله جيانتينو عمن أرسله علم منه انه مرسل من الريس ياقوت ، وان الامر يتعلق بافتداء بروسبيرو أدورنو ٠ وعندئذ أسرع جيانتينو الى فض ذلك الخطاب فقرأ فيه ما يلى وكان بلغة ايطالية لا بأس بها :

« سيدى الدوق ٠٠

« يسرك أن الله تعالى قد شاءت ارادته أن يبقى على حيـــــاة الكابتن الافرنجى بروسبيرو أدورنو الذى هو أسيرى الآن ٠ وأنا بكل سماحة لا أقدر فديته بأكثر من الثلاثة الآلاف دوكات التى دفعها لك سيدى خير الدين فدية لى ٠ ٠ ومتى دفع هــذا المبلغ فسأطلق سراحه وأعيده اليك سالما فى جنوا٠٠وفى خلال ذلك يبقى رهينة لسلامة رسولى اليك يعقوب بن آذار »

وبعث جيانتينو فى طلب ابن عمه فلبينو ، وأخذا يتشـــاوران فيما ينبغى عمله ٠ وكان من رأى الاول دفع الفدية كى يأتى بروسبيرو الى جنوا ويشنق علنا بتهمة العصيان والتمرد ٠ ولكن ابن عمه كان أخبث منه فقال له :

ـ ان دل فاستو صديق بروسبيرو ، وسيدافع عنه عند الامبراطور، كما أن دون الفارو دى كارباجال سيشهد بأن تمرده لم يكن الا عملا من أعمال الشهامة ، وعلى هذا أفضل أن أقتله فى مبارزة فلن يوجـــد من يلومنى عندئذ !

فقال له جيانتينو : « ولكن اذا قتلك هو ؟ » ٠ فأجابه قائلا : « فى هذه الحالة تبقى أنت لتبارزه ، واذا قتلك أيضـــا فهناك عشرات من آل دوريا عليهم أن يبارزوه حتى يقتله أحدهم ! »

وبعد جدال اتفق رأيهما على أسر رسول ياقوت ووضعه فى احـــدى سفن الاسطول حيث يكدح كبقية الأسرى ، وبذلك يبقى بروســبيرو أسيرا لدى الاتراك٠وما عليهما الا أن يكتما نبأ ذلك الخطاب عن الاميرال!

www.ibtesama.com/vb Exclusive

لقاء عاصف

قضى أندريا دوريا طول أشهر الشتاء يعمل جاهدا لاعداد حملة جديدة قوية لتحطيم أسطول خير الدين بربروسيا وياقوت. ولما جاء الربيع كان كل شيء معدا لهذه الحملة الجديدة . وكان الامبراطور يكتب الى الاميرال حاثا اياه على الاسراع ، لان سفن ياقوت اشتدت غاراتها على الشاطىء الجنوبى من ريجيو الى نابولى . وفى الوقت نفسه كان خير الدين قد شن على فوندى غارة جريئة حاول فيها أن يختطف الاميرة الحسناء « جوليا جونزاجا » كما اختطف غيرها من نساء « كالابريا » . لكنها تمكنت من الفرار ليلا على ظهر جواد وليس على جسدها سوى جلباب النوم !

وكان الاميرال دوريا أشد رغبة فى انجاز حملته الجديدة كى ينتقم لنفسه بعد أن فقد فى تلك الغارة المفاجئة أسطول نابولى وفيه السفن الست المملوكة لبروسبيرو ، اذ كانت قد ضمت الى الاسطول الامبراطورى بعد أن حسب فى عداد الاموات ، وجعلت تحت قيادة دون الفارو .. ولم تفلح محاولات دوريا قبل ذلك لضم هذه السفن الى أملاكه الخاصة بوصفه صهرا لصاحبها المفقود !

وجاءت الانباء على أثر ذلك بأن أسطول ياقوت استولى على المراكز الاسبانية فى أفريقية وهى سوسه وصفاقس وموناستر ، فصار اسم ياقوت أشد رهبة فى الصدور من اسم خير الدين نفسه .. وما علم الامبراطور بذلك حتى دعا اليه الاميرال دوريا فى برشلونة حيث باحثه بنفسه فى الامر وزوده بتعليماته فيما يختص بالحملة الجديدة !

وفى مستهل الصيف ، أقلع الاسطول الامبراطورى الضخم قاصدا الى مهدية حيث أشعل فيها النار وأعمل فى أهلها السيف ، ثم استأنف رحلته على طول شاطىء أفريقية الشمالية وكأنه شبكة منصوبة لصيد السمك ، وكلما مضى الوقت اشتدت حماسة دوريا وجنوده وقوى أملهم فى القضاء على أسطول بربروسا وياقوت متى وجدوه !

وبينما كان دوريا مشغولا بهذه الحملة فى أفريقية الشمالية ، وصل الى ميناء جنوا زورق متين يقل بروسبيرو وأربعة من جنود نابولى ، ويتولى قيادته ملاح من أهل جنوا يدعى فيروشيو . وكان ياقوت قد أطلق سراحهم على أن يرسل اليه بروسبيرو فديتهم بعد عودتهم الى وطنهم. وقد فعل ياقوت ذلك تقديرا لحسن معاملة بروسبيرو له حين كان أسيره من قبل

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ولا شك ان زمالتهما فى الأسر كان لها أيضـــا اثر فى ذلك . وكان بروسبيرو موضع تكريمه وهو أسير عنده ، لكنه لم يكن يتوقع أن يطلق سراحه وزملاءه على هذا النحو ، ولاسيما بعد أن علم بأسر يعقوب بن آذار الذى أرسله الى دوريا فى شأن افتداء بروسبيرو !

وقوبل وصول بروســبيرو الى جنوا بالدهشة من أهلها جميعا ، اذ كانوا يحسبون أنه مات ، حتى أمه نفسها ما كادت تراه أمامها حتى أغمي عليها !.. فلما افاقت وقصت عليه الحديث الذى دار بينها وبين قرينة الاميرال وجيوفانا كاد يغمى عليه بدوره ، ثم ســـارع الى قصر فاسولا ليطلب لقاء مادونا جيانا !

وفيما هو فى الطريق الى القصر ، خطر بباله موضوع أسر الرسول العربى الذى أرسله ياقوت الى دوريا • فرأى أن يقصد أولا الى الميناء لعله يجده هناك بين الأسرى • وكان من حسن حظه أن عـرفه حارس الأسرى فرحب به ، وسرعان ما حقق له رغبته فجاءه بالأسير العربى يعقوب من السفينة التى يكدح فيها • وما أن رأى هذا بروسبيرو حتى أيقن بالخلاص من الأسر ، وأخذ يجيب عن كل سؤال وجهه اليه ، فعلم منه بروسبيرو ان الذى اســـتقبله وتسلم منه الخطاب لم يكن الاميرال دوريا بل كان جيانتينو !

□

ولما وصل بروسبيرو الى قصر فاسولو بعد ذلك ، كانت الدوقة هى التى استقبلته • ولم تقم من مقعدها حين دخل وانما نظرت اليه نظرة صارمة • فانحنى لها باحترام وقال لها :

ــ أحسب أنه لا ضير من البعث بعد الموت أحيانا ، فان الاحياء كثيرا ما يفيدون من ذهاب الموتى !••

فأجابته قائلة : « ان الموت يجعل الحى أدنى الى الصفح من الميت ! »

فقال لها : « انى لم آت لأطلب الصفح يا مدام ! »

فقطبت جبينها وقالت له : « ماذا ؟• أما زلت متعاظما ؟ »

فقال لها « « بل أنا يا سيدتى فى منتهى التواضع ، لانى أعرف أنى لست أهلا للصفح ! »

فسألته : « لماذا جئت اذن ؟ »•فأجاب قائلا : « لقد جئت لكى أذكر الحقيقة فلعل ذنبىَ عندئذ يبدو أقل شناعة مما هو ! »

فقالت الدوقة : « ما أظن ان ابنة أخى ترضى لقاءك !• واذا رضيت فيجدر بك أن توفر عليها هـذا الألم الجديد بعد ما قاســـته من جراء مسلكك ! »

فقال : « أتعنين انها تؤثرنى ميتا ؟ » • فقالت : « أيدهشك ذلك ؟• انها اذ تحســبك ميتا قد تفكر فيك بشىء من العطف »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال لها : « لو انها سمعت منى الحقيقة لقل غضبها على .. ولهذا أتوسل اليك ياسيدتى أن تدعينى أقابل ابنة أخيك »

فقالت له : كيف تصر على ذلك بعــد أن ذكرت لك أن لقاءها اياك سيفتح فى قلبها جرحا لعله اندمل ؟! »

فقال لها : « لو كنت أتوقع ذلك لما طلبت لقاءها .. انى أحبها أكثر من الحياة ومن الشرف ومن كل شيء في الوجود ! »

واستمر يستعطفها حتى لان قلبها أخيرا وقالت له : « سأدعك تقابلها ولكن فى حضورى ! »

وبعد دقائق كانت جيانا أمامه وبجانبها عمتها الدوقة ٠ وكان أول ما قالته له أن سألته :

ـ لماذا جئت ؟٠٠ لماذا بقيت على قيد الحياة ؟

فأجاب قائلا : « كان هذا ٠٠ لان قرصانا من الاعداء أبدى نحوى من الشهامة والكرم ما لم أجده من السادة المسيحيين الذين تركونى مرتين لكى أموت !٠مرة حين لبيت داعى الشرف وأردت انقاذ مئات منجنودنا، ومرة أخرى حينأخفوا الرسول الذى بعث الىجنوا ليطلب فدية عنى ! »

وهنا تحدثه الدوقة قائلة : « عمن تتكلم ؟ » ٠ فقال لها على الفور : « اننى يا سيدتى أتحدث مع الأسف عن بعضالسادة من بيت دوريا !»

فامتقع وجهها وقالت له : « لقد خــدعتنى ٠٠ فانى حسبتك جئت لتطلب الصفح عنك لا لتتهم الناس ! »

فقال لها : « صبرا يا سيدتى !٠٠ انى لا أتهم ولا ألوم وانما أذكر الحقيقة !٠٠ ويمكننى أن أجيئك بذلك الرسول ٠٠٠.انه شــاب عربى يدعى يعقوب بن آذار وقد وجدته بين الأسرى صباح اليوم ! »

فقالت له الدوقة : « لكن كيف أثق بصدقه ؟ » ٠ فقال لها : « اذا لم تصدقينى بعد أن أجيئكبشاهد عيان فكيف بالله تصدقين ما سأقوله لك وليس لدى من برهان عليه سوى كلمة الشرف ؟! »

وهنا قالت له جيانا : « هل كلمة الشرف توضح ما كان ؟٠٠ انى لا أقدر أن أصف ما حدث منك ٠٠٠ لماذا تبقى هنا الآن يا ســـيد بروسبيرو ؟٠٠ انك تضيع وقتك ! »

وهنا قال لها : لا قيمة لوقتى الى آخر حياتى اذا لم أوضح لك خافية الأمر !٠٠ ولابد أن أبقى هنا حتى أداوى ما جرح من كرامتك ! »

فقالت له بشدة : « كرامتى ؟!٠٠ أتظن أنك لم تجرح الاكرامتى ؟ »

فقال لها : « انما أريد أن أبين لك مدى ذنبى على حقيقته ! »

فقالت له : « انه معروف !٠٠ فليس هناك ما يحتاج الى ايضاح ! »

فقال بروسبيرو : « ان الظواهر كثيرا ما تكون خـــداعة !٠٠ وقد ذكرنى عمى الكاردينال بذلك حين لجأت اليه واستفتيته فيما كان من آل دوريا نحو آل أدورنو ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم أخذ يقص عليها وعلى عمتها الحقيقة بحذافيرها ، من غير أن يخفى شيئا .. فذكر قسمه على نعش أبيه ، ثم قبوله الصلح ظاهريا وموافقته على خطبة الفتاة المجهولة من آل دوريا ، وعزمه على أن يرجىء الزواج بها الى ما لا نهاية انتقاما منهم واذلالا لكبريائهم .. ثم دهشته وحيرته حين رأى أن تلك الخطيبة المجهولة هي نفسها جيانا التى أحبها من كل قلبه ... ثم ذكر التجاءه الى عمه الكاردينال الذى أحله من قسمه ، ثم تركه فكرة الانتقام منذ ذلك اليوم ، دون أن يخبر أمه بالتغير الذى اعتراه لأنه يدرك أنها لا توافقه على الصلح والصفاء

وكانت جيانا وعمتها تصغيان اليه وتقاطعانه أحيانا ببعض الاسئلة فيجيب عنها فى صراحة واخلاص وأخيرا قالت له الدوقة :

ـ سواء أكان الذنب ذنب الاميرال أم جيانتينو فانه عمل ما حسبه فى صالح جيانا . ولكنى لا أبرره .. كذلك لا ألومه .. ولكنى أريد منك ألا يداعبك أمل فى امكان اتمام هذا الزواج .. فان آل دوريا لن يثقوا بك مرة أخرى .. وليس لك حق فى لومهم على ذلك !

فقال بروسبيرو : « أنىَ لا ألومهم !.. ان العداء الذى أردت ازالته قد اتسع مداه !. ومع ذلك يمكن تجديد الخطبة اذا وافقت جيانا ! »

فردت الدوقة قائلة : « ان هذه الخطبة تكون سبة لآل دوريا وآل أدورنو على السواء ! »

فقال لها : « انهم ليسوا العالم كله ... دعى الأمر لمشيئة جيانا ! »

فقالت جيانا والدمع يترقرق فى عينيها : « انى خائفة يا عزيزى !.. ان ما قالته عمتى هو الحق ، فأنت بهـــذه الخطبة انما تثير ثائرة قومى وقومك فتسحق سحقا بينهما ! »

فقال بروسبيرو : « ان عظامى يابسة لا تسحق ! »

وفى هذه اللحظة جاء أحد الخدم يعلن قدوم السيد لامبا دوريا ابن عم الاميرال .. فأمرته بادخاله غرفة جلوس أخرى حتى توافيه بعد لحظة . ثم قالت لبروسبيرو :

ـ يجب ألا يراك هنا أو يعلم بوجودك

وأراد أن يعارض ، ولكنها أسكتته وذكرته برعونة لامبا وعدم كظمه الغيظ ، وتوسلت اليه أن يذهب مراعاة لها ولجيانا معا !

وهكذا ابتدأ ذلك اللقاء تحت سحابة سوداء ، وانتهى تحت ضـــياء شمس مشرقة !

وكان لامبا دوريا قد علم من حارس الأسرى أن بروسبيرو عاد الى الحياة وانه موجود فى جنوا . فجاء الى الدوقة ينبئها بذلك وهو لا يعلم أنها عالمة به . ولما طلب اليها أن تحجز بروسبيرو اذا جاء اليها .. سألته عن الداعى الى ذلك فأجاب قائلا : « لكى نسوى حسابنا معه ! »

وكتمت جيانا ما بها من فزع وقالت له : « أتعنى أنك تريد قتله ؟ »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعندئذ أقر بأنه وكل رجل من آل دوريا سيتربصون له وأنهم لابد قاتلوه !

وأرادت الدوقة وجيانا أن تثنياه عن ذلك ، ولكنه خرج من عندهما صاخبا متوعدا !٠٠ ثم ضم اليه شابا من ذوى قرباه يدعى فلافيو دوريا، وأربعة من أتباعه ، ومضوا ليلتين يتربصون لبروسبيرو فى الظلام أمام قصر أدورنو ، وفى الليلة الثالثة لمحوه قادما مع فيروشيو الملاح الذى جاء به من عند ياقوت وسرعان ما أشار لامبا على رفاقه بالهجوم عليهما ، فجرد هذان سيفيهما واستندا الى جدار ليدافعا عن نفسيهما ٠ وكان فيروشيو لا يقل عن بروسبيرو شجاعة وبراعة فى المبارزة ٠ ولم تمض دقائق حتى جرحا واحدا من أعدائهما ، ثم جندل بروسبيرو رجلا ثانيا ، فبقى من الجماعة أربعة ٠ واشتد القتـال بين الفريقين ولمعت السيوف والخناجر وسط الظلام ، وسمع صليل السيوف وسط سكون الليـــل ففتحت أبواب البيوت وعلت الاصوات ٠ وكان لامبا لم يقصد مثل هذا القتال بل رام قتل بروسبيرو غيلة ولكن يقظة الاخير فوتت عليه هـذا الغرض ، فلما خشى عاقبة تجمهر الناس سارع الى الارتداد مع رجاله وهربوا وسط الظلام حاملين جريحهم معهم ٠ أما القتيل فخلفوه وراءهم ٠٠ ولما جيء بالنور اتضح أنه فلافيا دوريا ٠٠ فلم يأسف عليه أحد من الاهلين الواقفين حول جثته ٠ وقال شيخ منهم : « هذه نهاية عادلة لمن أراد الاغتيال ! »

وشكر بروسبيرو لمنقذيه،ثم أسرع مع فيروشيو صوب الميناء واستقلا زورق فيروشيو من مرساه عند الباب المسمى باب‌البقرة ٠ وقال الاخير: « لقد أشرفنا الليلة على الموت ، وقد لا يوافينا مثل هذا الحظ الحسن مرة أخرى٠وثق بأن لامبا سيعاود الكرة وقد زاده حقدا مقتل قريبه فلافيو!»

وبات بروسبيرو ليلته مع صاحبه فى الزورق ٠٠ وفى الصباح علم أن جماعة مسلحة يقودها لامبا هاجمت بيته ليلا ولما لم تجده هنـــاك اقتحمت دار الكاردينال باحثة عنه ٠٠ فلما لم تجده هناك أيضا٠٠خرج لامبا مع رفاقه ، وهو يقسم ليقتلنه حيثما يجده !

وجلس بروسبيرو برهة يفكر ، ثم أدرك أنه لابد أن يغادر جنوا لانه ان بقى فيها صار فى خطر الاغتيال كل لحظة ٠٠ وخطر بباله أن يدعو لامبا دوريا الى المبارزة ، لكنه أيقن انه لن يقبل مثل هذه الدعوة !

وكان عليه قبل أن يستقل الزورق مع فيروشيو ، ان يذهب الى بنك سانت جورج بنفسه ليحصل على مال يشترى به مؤونة لهما فى‌سفرهما ٠٠ وفيما هو يغادر البنك لمحه حمالان هناك فعرفه‌أحدهما برغم تغطيته أكثر وجهه بحافة قبعته ، وسرعان ما تبعه من حيث لا يشعر حتى وصل الى الزورق أخيرا ، فتركه مسرعا الى لامبا دوريا وأبلغه أمره،وكان لامبا قد تعهد بأن يعطى عشرين دوكاتا لمن ينبئه بمقر بروسبيرو !

وفى الوقت نفسه ، بلغ النبأ الى الدوقة وجيانا ، فأرادت أولاهما أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive



وركبت جيانا بغلا وأخفت وجهها بحيث لايعرفها أحد
لتخبر بروسبيرو بأن لامبا ومن معه عرفوا مقره

www.ibtesama.com/vb Exclusive

تبعث رسولا الى بروسبيرو ليحذره ، ولكن جيانا تطوعت للقيام بهذه المهمة وأصرت على ذلك قائلة لعمتها : « انني لا أثق بأحد نبعثه فى هذه المهمة ! »

وفى مساء ذلك اليوم وصلت جيانا الى مرسى الزورق عند باب البقرة راكبة بغلا وقد أخفت وجهها بحيث لا يعرفها أحد واستطاعت بسهولة أن تعرف الزورق برأس القطة المذهب المثبت على مقدمته ، وكان معها خادمان ، وقد بدأ الظلام ينشر وشاحه على المدينة والميناء ، وأخذ المطر يتساقط مدرارا ٠ ولم يكد بروسبيرو يسمع صوتها وهى تناديه حتى أسرع لاستقبالها وقال لها : « أية معجزة جاءت بك الى هنا يا جيانا ؟ »

وكانت شديدة الخوف عليه،فما رأته حتى ارتمت بين ذراعيه وذكرت له ما جاءت من أجله قائلة :

« يجب أن تذهب الآن من غير أن تضيع دقيقة واحدة . . ان لامبا ومن معه قد عرفوا مقرك ! »

فابتسم وقال لها : « ان لامبا يستحق منى الشكر اذ دلنى على مكانتى فى قلبك ! »

ثم أخذ ينظر اليها نظرة وله وغرام واحتضنها وهو يقول لها : «أريدك هادئة مثل هدوء فتاة الحديقة ذات الثوب الفضى فى تلك الايام الهانئة الخالية ! »

فقالت له : « كيف أهدأ يا بروسبيرو ما دامت حياتك فى خطر ؟٠٠ لو كنت تحبنى حقا لذهبت توا بسفينتك حتى أطمئن عليك ! »

فقال لها : « لقد فكرت فى ذلك من قبل وأعددت العدة للرحيل ٠٠ وفى نيتى أن أذهب الى اسبانيا حيث لا يعوزنى الاصدقاء٠٠وقد أخذت معى من الذهب ما يكفى لسد حاجتى ! »

فسألته : « ولماذا اذن لم تذهب ؟ »

فقال لها : « لانى فى اللحظة الاخـــيرة عدت فكرهت أن أبعد عنك ثانية ! »

فقالت له : « أتريد أن تمكث لكى يقتلوك ؟.. هل فى ذلك راحة لى أو عزاء ؟٠٠ هيا ٠٠ ارحل توا ودعنى أشرح كل شىء للاميرال حين يعود كى يوافق على زواجنا ! »

فقال لها : « انى موقن أن الاميرال وقومه لن يوافقوا عـلى ذلك بأى حال ! »

فقالت له : « لسنا بحاجة الى موافقتهم !٠٠ اننى لست سليلة بيت دوريا الا بالتبنى ٠٠ وقد اتخذت لنفسى لقبهم اجابة لرغبة عمتى ٠٠ وانى لنادمة على ذلك فقد كان أصل الشر كله ٠ ولكنى ما زلت جيوفانا ماريا مونالدى وسيدة نفسى ومالكة للثروة التى خلفها لى أبى ٠٠ وأنا حرة التصرف فى نفسى وفى مالى كما أشاء ٠٠ فاذا كنت لا تقـــدر على

www.ibtesama.com/vb Exclusive

العودة الى جنوا لكى تطلب يدى ، فلا شيء يمنعنى من أن أذهب اليك حيث تكون ! »

فقال لها فى حزم : « لا شيء يمنعك من الابحار معى الآن ! »

فحملقت فيه دهشة ، وبدا عليها شيء من الخوف٠٠ثم استطرد قائلا: « انها رؤيا سعيدة تراود نفسي يا جيانا ٠٠ ومجيئك الى الآن بشير بتحقيقها ٠ ولماذا نقاسي فراقا جديدا بيننا لا يدرى الا الله متى ينتهى أمده ؟٠٠ انى أقسم بالله لا أفترقن عنك بعد اليوم ، وفى يدك الآن أن أبقى مهما تكن العاقبة ، أو أن تذهبى معى فورا ! »

فقالت له : « هل جننت يا بروسبيرو ؟٠٠ كيف تطلب منى ذلك ؟ »

فقال لها : « انى انما أطلب اليك أن تتزوجينى توا وسيعقد قراننا عمى الكاردينال ، وهو لحبه اياى لا يبالى أن يتحدى آل دوريا بذلك ٠ وبعد حين يمكننا أن ننال رضى الاميرال ٠ ولك أن ترفضى ذلك فأبقى هنا ! »

وكان المطر يتساقط على سقف الديوان الذى كانا به ، وكانت يدها ترتعش فى يده ، وقد اشتد الظلام حتى صار عسيرا على كل منهما أن يرى الآخر !

وفيما هو كذلك اذا بهما يشعران بالسفينة تتحرك وقد تركت مرساها ، ويسمعان صوت فيروشيو وهو يقول لهما : « تحركا أيها المحبان ! »

ولم يصبر فيروشيا حتى يستأذن سيده ، فقد كان منذ لحظة فى حانة ورأى لامبا دوريا وعصابته هناك يحتسون الخمر ويسألون عن زورق شراعى اسمه « جاتا » ٠ فلم يمكث فيروشيو حتى يسمع المزيد وجاء يجرى الى الزورق حيث أسرع بالابتعاد به عن المرسى قبل أن يأتى أولئك القتلة !

ولما ابتعد الزورق قليلا نظر بروسبيرو الى حيثأشار فيروشيو فرأى وسط العتمة جماعة لا يقل عددها عن اثنى عشر رجلا قادمين مسرعين نحو رصيف الميناء ٠ فصاح به قائلا : « أوقف الزورق !٠ أنهرب من أولئك الكلاب ؟ »

فرد عليه فيروشيو قائلا : « أتريد أن نبقى لكى يقتلونا ؟.. هناك وقت يحسن فيه القتال ، ووقت يحسن فيه الفرار ! »

ولما ابتعد الزورق وقف لامبا دوريا على البر وهو يلوح بسيفه ويكيل السباب صائحا :

ـ لن تفلت منى أيها الكلب أدورنو وسوف أطاردك ولو الى الجحيم !

واستقل لامبا وعصابته زورق صيد ، وأراد بروسبيرو أن يواجههم ولكن فيروشيو أبى الا السير قدما الى عرض البحر فقال له بروسبيرو :

ـ انتظر ٠٠ ان معنا هاهنا سيدة يجب انزالها الى البر !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال فيروشيو : « يجب أولا أن نفر من مطاردة هؤلاء الكلاب،وبعدئذ نرسو عند « سان بيردارينا » أو عند « بورتوفينو » أو حيث تشاء ! »

وساعدت الريح الشراع حتى ابتعد عن زورق الصيد بمراحل وصار من المحال على هذا أن يدركه٠وكانت جيانا قد احتمت من المطر بالديوان الصغير في الزورق ، فقال لها بروسبيرو :

ـ انى لا أبالى أن يفخر أى مجرم بأنى هربت !٠ والفضل فى ذلك عائد الى فيروشيو واليك ٠٠٠ ولكنى سأنزلك الى البر عند « سـان بير دارينا » ٠٠ وهناك أجد وسيلة لارجاعك الى قصر فاسولا !

وما أتم عبارته هذه حتى هبت عاصفة هوجاء مزقت الشراع وكادت تقلب الزورق بهم لولا يقظة فيروشيو وبراعته ٠ وكان الزورق نفسه متين الصنع فصمد للعاصفة ، ومضى فى سبيله قدر ما يستطيع !

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الى حريم السلطان

كان ياقوت قد استقر بأسطوله فى « مهدية » حيث حصنها وضمها الى أملاكه الخاصة ! ولما بلغه نبأ الحملة البحرية الكبيرة التى أقلعت من برشلونة للقضاء عليه وعلى أسطوله ، ضحك ملء شدقيه وقال : « ما دام الاميرال الشهير قد جاء بقوة أكبر من المرة السالفة فستكون هزيمته التالية أشد بعون الله ! »

وكان ياقوت لايزال يحس فى ظهره أثر السوط حين كان أسيرا على احدى سفن دوريا ، ولذلك اعتزم أن يثأر منه لنفسه . ولما كان الاميرال فيما بين الستين والسبعين من عمره فارغامه على التجديف هو بمثابة قتل له !

وكان السلطان سليمان قد أعجب ببسالة القرصان الشيخ خير الدين بربروسا بقدر ما ساء ظنه بمقدرة القواد البحريين الأتراك ، فولاه القيادة العليا للأسطول الضخم الذى أعده لدعم سيادة تركيا فى البحار ، وأمره بأن يأتى بأسطوله الى القرن الذهبى . ولم يستطع بربروسا أن يمد ياقوت بشىء من سفنه ، فتركه يدبر أموره بما يراه ، مطمئنا الى حكمته ، والى انه لابد منتصر على الاميرال اندريا دوريا برغم ضخامة اسطوله !

وبقى ياقوت فى الجزائر بعد أن رأى اسطول خير الدين يبحر قاصدا الى الآستانة ، ثم بلغه وهو هناك أن دوريا وصل بأسطوله الى «مهدية» وأحرقها وأعمل السيف فى أهلها ، فأهمه ذلك النبأ ، لأنه كان يطمح الى اتخاذ « مهدية » هذه قاعدة للملك الذى اعتزم أن يؤسسه لنفسه فى تلك المنطقة .. وفى ثورة غضبه لم يطق التريث ، فأقلع بأسطوله الصغير لمواجهة اسطول دوريا الضخم لينتقم لما أصاب « مهدية » من حرق ونهب وتخريب !

وبينما كان دوريا يمسح بأسطوله البحر عند شاطىء افريقية الشمالى باحثا عن ياقوت ، كان هذا يغير بسفنه على الشاطىء الجنوبى الغربى من جزيرة صقلية ، ولم يمض أسبوع حتى كان عائدا بالغنائم من ست مدن هاجمها ، ومعه ثلاثة آلاف أسير من الرجال والنساء ، وقد وضعهم على ظهر سفينة من سفنه وبعثهم مع (يارين صباح) الى الجزائر لكى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يباعوا هناك فى سوق الرقيق ، ثم يصنع بأثمانهم سـفنا جديدة ، على أن تلحق به هذه السفن فى (جربه) حيث ينتظرها . وقد عزم على اتخاذ جانب الحيطة حتى يعزز أسطوله بهذه الطريقة !

وعلم ياقوت بعد ذلك من سفينة يونانية صادفها فى البحر ، ان دوريا يبحث عنه عنـد شواطىء صقلية .. وعلى هذا سارع الى الابتعـاد بسفنه نحو الشمال الغربى قاصدا مضيق يونيفاس على أن يسير جنوبا بعد ذلك . ولكن عاصفة هوجاء هبت بعد قليل فحطمت صارى سفينة له تحت قيادة سنان أغا أبرع ضباطه ، وما لبثت هـذه السفينة قليلا حتى انفصلت عن بقية السفن وضلت الطريق فأخذت الأمواج تلعب بها صعودا وهبوطا ، وقائدها يبذل جهده لكى يسير بها وسط الرياح العاتية . وفيما هو كذلك لاحت له على مقربة منـه سفينة شراعيـة صغيرة هى الزورق الذى استقله بروسبيرو مع جيانا وفيروشـيو ، فأشار اليها لتقترب ، ولم يسع من فيها الا أن امتثلوا ، فلما حاذى زورقهم سفينة سنان ، قفز اليه أحد رجاله مع اثنين من النوتية ، وما رأى الرجل وجه جيانا حتى راعه جمالها ، وسأل بروسبيرو الواقف بجانبها : « من أنتم ، وأين تقصدون ؟ »

فأخبره بروسبيرو باسمه وبأنهم أبحروا من جنوا ، وقد ضلوا طريقهم فى العاصفة . فقال له الرجل :

ــ اذن اصعد الى سفينتنا لنصل بك الى حيث تريد !

فقال له بروسبيرو : «شكرا لك !. يمكننا أن نواصل رحلتنا فى زورقنا بعد أن هدأت العاصفة ! »

وأدرك بروسبيرو أن وراء هذه الدعوة ما وراءها من الوقوع فى أسر القرصان ، ولم يكن هو نفسه يخشى الأسر فقد جربه من قبل ، ولكنه خشى على جيانا أن تؤخذ سبية ، وشعر فى هذه اللحظة بأشد الندم على اتباعه نصيحة فيروشيو ، وود لو بقى فى جنوا وواجه أى خطر على حياته فيها . وفيما هو يهم بأن يجرد سيفه استعدادا للدفاع ، اذ سبقه الجندى تابع سنان فنفخ فى صفارة معه ، وسرعان ما انقض على الزورق جماعة آخرون ممن فى سفينة سنان حتى لم يبق فيـه مكان لقـدم أخرى .. ثم حملوا بروسبيرو ومن معه حملا الى السفينة الحربية .. وقد عاملوا جيانا بمزيد من الرفق ، ثم أدخلوها على سنان حيث كان جالسا القرفصاء على أريكة فى قمرته الخاصة بالسفينة ، وكان من البدانة بحيث بدا كأنه كرة ضخمة ملفوفة فى قفطان أحمر موشى بالذهب .. وعلى رأسه عمامة بيضاء . فما وقعت عيناه عليها حتى بهره جمالها الفتان . ثم حاد ببصره عنها الى صندوق جىء به من السفينة الصغيرة ، ومد يده الى داخله ثم أخرجها مملوءة بنقود ذهبية لامعة .. وفى الوقت نفسه كان كبير أتباعه ، واسمه حصار يجرد جيانا من عقد اللؤلؤ الثمين الذى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حول جيدها وهي مستسلمة ساكتة. غير أنها لما بدا سنان يتحسس تلك اللآلىء كادت تقع مغشيا عليها ، اذ تذكرت في هذه اللحظة أنها كانت تلبس هذا العقد في الليلة التي بدأ فيها الحب بينها وبين بروسبيرو في حديقة قصر كاريتو ، ومنذ ذلك الحين وهي تحرص على أن تلبسه حين تلقاه !

وأدرك سنان أن السيدة التي تحمل مثل هذه اللآلىء لا بد أن تكون أميرة ، فسألها بالايطالية : « من تكونين ؟ »

فأجابت قائلة : « انني ابنة أخي الاميرال اندريا دوريا . ويحسن بك أن تذكر ذلك حين تعاملنا ! »

فابتسم ابتسامة خبيثة حتى كادت عيناه تختفيان في وجهه المكتظ باللحم ثم قال : « حقا ان القدر يأتي بالعجائب ! » . ثم تحدث مع حصار باللغة العربية ، وبعدئذ انحنى هذا لجيانا وقادها الى غرفة بالطابق الادنى من السفينة ، فسارت رابطة الجأش ولبثت حتى خرج حصار وأغلقت الكوة عليها وعندئذ أطلقت لدمعها العنان !

وفي خلال ذلك كان بروسبيرو ممددا حيث وضعوه وسط السفينة عند جذع الصاري المحطم ، بعد أن قيدت يداه وراء ظهره ، وكان في حالة تشبه الذهول من سوء المعاملة التي لقيها وخوفه على مصير حبيبته . وعلى مقربة منه فيروشيو والبحارة الذين كانوا معه في زورقه وكلهم مقيدون مثله . وكان فيروشيو يتأوه متألما من جرح في رأسه ، أصيب به حين حاول مقاومة آسريه

وبعد قليل توجه سنان الى حيث وضع بروسبيرو ، وحياه في سخرية قائلا له : « الحمد لله على السلامة !. . اننا لم نكن نتوقع عودتك الينا بهذه السرعة . . ولا ريب أن الريس ياقوت سيفرح بك . فهو في حاجة الى أن يعرف مصير يعقوب بن آزار ، ومآل الفدية التي طلبها عنك . . أما أنا فاني محتاج الى أن أعرف نبأ أندريا دوريا . . فهيا اذكر لي كل ما تعرف عن أسطوله وحملته ! »

فقال له بروسبيرو : « ليس لدي ما أقوله ! »

فضحك سنان ساخرا وقال له : « بل أنت كاذب !. والدليل على ذلك أنك تصحب ابنة أخته ! »

فقال له بروسبيرو في هدوء : « نعم هي قريبته ، كما أني أعرف جميع أفراد أسرته . . ولكنك تسألني عن حركاته وأنا لا أعلم عنها أكثر مما تعلمه أنت ! »

فابتسم سنان مرة أخرى ساخرا ثم قال له مهددا : « لعلك نسيتها !. ولهذا يحسن أن نعاونك على التذكر بأن نشعل عود ثقاب بين أصابعك مثلا ! »

فنظر اليه بروسبيرو بازدراء واستهانة ورد عليه قائلا :

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ـ في هذه الحالة تضيع وقتك سدى ! ولكني أنصح لك بألا تستهدف غضب دوريا حين يأسرك قريبا جدا !. وثق بأني لا أحاول بهذا أن أخدعك ، فان أسطول دوريا لا يلبث قليلا حتى تنتشر سفنه القوية الكثيرة هنا . ومن صالحك أن تحافظ على ابنة أخيه ، لأن مصيرك سيتوقف على طريقة معاملتك لها . فاذا كنت بها رفيقا فلا شك في أنه سيكون سمحا معك . أما اذا أصابها أي أذى ففي هذه الحالة لا بد أن يقتص منك بلا رحمة !

فقال له سنان بازدراء : « أتظن أني أخشى دوريا ؟.. ان عليه أولا أن يأسرني .. وهذا ما لم يقدر عليه طول السنين الماضيات ! » . ولما يئس من حمله على الادلاء بمعلوماته عن أسطول دوريا ، اكتفى بأن ركله بقدمه ، ثم تركه عائدا من حيث أتى !

ولحظ بروسبيرو أن السفينة غيرت اتجاهها ، فأخذت تسير نحو الجنوب بعد أن كانت ماضية الى مضيق بونيفاس . ثم مضى الليل كله وهو ورفاقه في أماكنهم بلا طعام ولاشراب ، والأغلال تمنعهم من التحرك . وفي صباح اليوم التالي عاد اليهم سنان ومعه ثلاثة من رجاله وزنجي من سوس يحمل دلو ماء وصحفة عليها خبز وبلح . وقال سنان لبروسبيرو : « لقد رأيت أن أفك أغلالكم وسأترك لكم حرية الحركة في النصف الأمامي من السفينة على أن انذركم جميعا بأن أي حركة من أحدكم تشتم منها اساءة استعمال هذه الحرية ، سيكون فيها القضاء على حياته بقذفه في البحر فورا ! »

وبعد ظهر اليوم التالي وصلت السفينة الى بقعة جنوب صقلية ، ولاحت على مسافة قريبة منها سفن ياقوت وفي مقدمتها سفينة القيادة التي تحمل علمه الأحمر الأبيض الذي يتوسطه هلال أزرق . وفي الوقت نفسه كان ياقوت قد رأى سفينة سنان فأدرك أنها احدى سفنه التائهة ، اذ كان قد فقد سفينتين أخريين وسط العاصفة !

ونظر بروسبيرو من مكانه فعرف سفينة ياقوت ، وأمل خيرا من لقائه برغم التهاون في رد رسوله وفي ارسال مبلغ الفدية !.. وبعد قليل كانت السفن كلها قد رست في مرفأ طبيعي على الجانب الجنوبي من «بانتلاريا» وسرعان ما انتقل ياقوت من سفينة القيادة الى سفينة سنان ، فوقف هذا يستقبله مرتديا قفطانا من الحرير الأخضر ومزينا بحلى ذهبية كثيرة وبقدميه حذاء أحمر من جلد قرطبة الفاخر وبه (شرابتان) من الذهب ، وبعمامته البيضاء جوهرتان من الياقوت الثمين !

وأخذ ياقوت في تأنيب سنان لانفصاله بسفينته عن الأسطول ، ولكن غضبه سرعان ما زايله حين أخبره سنان بأنه أسر سفينة صغيرة ، ثم أبرز له الصندوق المملوء بالذهب وعقد اللآلىء ، وقال له : « لك الذهب والعقد .. أما أنا فاقنع من النتيجة بتلك الحسناء ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فضحك ياقوت وقال له : « اهي من الفتنة بحيث تجعل منك رجلا؟ ! »

فكظم سنان غيظه ، اذ لم يكن يرتاح الى النكات التي من هذا القبيل ، ثم أجاب في رزانة : « انها من الجمال بحيث تصلح درة في حريم السلطان سليمان . وسأقدمها هدية له ! »

فقال له ياقوت : « انك عميق في مكرك ياسنان ! » . فابتسم سنان مغتبطا وقال : « الواقع انه لم يكن يليق بي أن أذهب الى الباب العالي خالي اليدين !. . وقد كان من حسن طالعي أن وجدت هذه الهدية الثمينة . . فخذ الرجال والذهب واللآلىء ولكن اترك لي هذه الحسناء !»

فقال له ياقوت : « كلا !. . اذا كانت تلك المرأة مفتاحا للحظوة لدى السلطان ، فلماذا تستأثر بها دوني ؟ »

فرد سنان بخبث : « هل هذه الهدية تقبل منك ؟ »

فأدرك ياقوت ما يقصده وقال ضاحكا : « صدقت !. . ربما لا تقبل مني . . ولكن دعني أولا أنظر الى تلك الجوهرة التي تليق بالسلطان ! »

ولما رآها ياقوت وعرف انها ابنة أخي الاميرال دوريا عجب من سنان كيف أخفى ذلك وقال له : « لاشك انها ستزيد بذلك قيمة في عيني السلطان ! »

ثم راح ياقوت يستعرض الاسرى الذين وقعوا في يد سنان . ولما رأى بروسبيرو تولته الدهشة وقال له : « حمدا لله الذي أوقعك في يدي مرة أخرى ياسيد بروسبيرو !.. لقد كانت بيننا مسألة خاصة بفدية ترسلها الي ، وبرسول تعيده من جنوا . . ! »

فرد بروسبيرو قائلا : « لست أنا الذي أحنث بعهدي ولكن الظروف تآمرت علي . . على انك ياسيد ياقوت تستطيع أن تأخذ الذهب الذي في صندوقي عند سنان ! »

فضحك ياقوت وقال له : « حفظ الله لك عقلك ياسيد بروسبيرو ! أتدفع فدية من غنيمة حرب ؟. . لاشك انك ستطلب مني رد الباقي اليك ! »

فقال له : « ماكنت لأطلب ذلك وانما أسألك أن تعيد الى سفينتي ، وبحارتها . . ويمكنك أن تحتفظ بصندوق الذهب ! »

فقال له ياقوت : « هناك أيضا امرأة !. . واني لأعجب كيف لم تطلب اعادتها اليك كذلك ! »

فقال بروسبيرو : « هذا أمر مفهوم بالبداهة ! »

ـ مفهوم ! اذن افهم هذا : ان سنان حسن الطالع . وهو أسعد حظا من خير الدين حين أراد أن يأخذ السيدة جوليا الى حريم السلطان ففشل . ولكن هذه أجمل منها وسيفرح بها السلطان كثيرا !

ففزع بروسبيرو اذ سمع ذلك وقال : « لكنها زوجتي ! »

فقال ياقوت : « هل الأمر كذلك ؟. . هذا أمر يؤسف له !. . لأن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

السلطان كان يفضل فتاة عذراء ، ولكنها على أى حال بارعة الحسن ! »

فترك بروسبيرو كبرياءه وجعل يتوسل الى ياقوت قائلا له : « حين كنت أسيرى لقيت منى أحسن معاملة ! »

فقال له ياقوت : « ماكنت لأنكر ذلك ، وقد عاملتك بالمثل حين كنت أسيرى . وبذلك أكون قد دفعت الدين الذى كان لك فى عنقى ! »

فقال له بروسبيرو : « لقد كنا رفيقين فى الأسر ، نكدح معا على مجذاف واحد . أليس الألم الذى قاسيناه معا قد عقد بيننا رابطة لا تنفصم ؟ »

فأجابه قائلا : « لقد فصمتها أنت حين حنثت بعهدك لى ! »

فقال بروسبيرو : « انى لم أحنث بعهدى مطلقا !.. وثق بأنى كنت سأرسل اليك الفدية .. والآن اذكر الفدية التى تريدها ومهما بلغت فستنالها ! »

فضحك ياقوت ساخرا ، وقال له : « أتظن انى أثق بك مرة أخرى ؟ ! »

فقال بروسبيرو : « انى لا أطلب منك أن تثق بى ، ولكنا سنبقى أسرى لديك حتى تصل اليك الفدية من جنوا . وسأجد وسيلة لذلك .. ان هؤلاء البحارة الذين معى يمكنهم أن يحملوا منى خطابا الى بنك سان جورج ! »

— أتظن انى أرضى مائة ألف دوكات فدية لابنة أخى دوريا ؟.. وهل نسيت ما لقيته من ذلك الوغد ؟.. انه سوف يذكر سوء معاملته اياى حين يعلم ان ابنة أخيه ضمن حريم السلطان ، وعندئذ يندم على انه ربطنى الى مجذاف وسلط على سوط الحارس !

— وهل لا قيمة لى لديك ؟.. لقد قلت لك ان ابنة أخى دوريا هى زوجتى !

فهز ياقوت كتفيه وقال له : « انى الآن لست مدينا لك بأى فضل !.. وحتى اذا كنت مدينا لك فان ارادة الله تقتضى أحيانا أن يشترك البرىء مع المذنب فى العقاب .. انى أشفق عليك يا سيد بروسبيرو . ولكن لا تبلغ بى الشفقة عليك أن أحرم نفسى لذة الانتقام من دوريا بعد أن واتتنى الفرصة ! »

وعندئذ لم يستطع بروسبيرو أن يتمالك نفسه فوجه الى ياقوت أشنع السباب . ولم يرد عليه ياقوت حتى اذا هدأت ثائرته قال له : « أهكذا ؟ ! ان الكلام لايسفك دما .. والآن وقد لفظت ما لديك من شتائم ، عسى بالك أن يهدأ !.. وثق بأنى كنت أحكم على غيرك بالكدح على مجذاف لأقل من ذلك . وقد أحكم عليك هذا الحكم اذا عدت ثانية الى السباب ! »

وسكت لحظة ثم استطرد قائلا : « أنت ورجالك ستنتقلون الى سفينتى ، ولن يصيبكم أذى ما دمتم حسنى السلوك ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وبقيت بارقة أمل فى نفس بروسـبيرو خلال ظلمة اليـأس ، فانه ما دامت جيـانا يراد اهداؤها الى السلطان ، فانهـا ستلقى طول مدة الأسر معاملة حسنة ولن يمسها أحد بسوء !

◻

قدر ياقوت قوة الاسطول الذى يطارده فرأى أن ينضم بسفنه الى أسطول خير الدين فى استانبول . ولكنه كان ينتظر مددا من الجزائر قبل أن يقدم على هذه الرحلة . واختبأت سفنه بخليج صغير بالقرب من ذلك الثغر !

وبعد قليل جاءه نبأ بأن أسطول دوريا يقترب من الشاطىء ، وما لبث هذا الاسطول حتى وصل وألقى مراسيه خارج ذلك الخليج فأصبح ياقوت وسفنه فى شبه مصـيدة لايستطيع الخروج منها ، وقد ملأه ذلك غضبا وأصبح كالنمر الهائج الذى حبس فى قفص !

وفرح لهذا النبأ ألفا أسير مسيحى فى قبضته ، ولكن بروسبيرو كان أشدهم فرحا ، فقد قوى أمله فى خلاص جيانا من الأسر ومما ينتظرها فى حريم السلطان !

وسارع ياقوت الى تحصين موقعه ، فجلب المدافع الثقيلة من البلاد المجاورة ، واسـتخدم أسراه وكثيرا من الاهالى فى اقامة الحصـون والاستحكامات على البر

وفيما هو منهمك فى ذلك ، توجه اليه بروسبيرو وقال له : « انك بهذه التحصينات انما تزيد باب سجنك متانة ! »

فالتفت اليه غاضبا وقال له : « هذا ما تمنى به نفسك الشريرة ؟.. امض عنى قاتلك الله قبل أن أقذف بك الى جهنم ! »

فقال له بروسبيرو فى هدوء : « أما أنا فأسـأل الله أن يهديك الى الصواب .. وما جئت الآن الا لكى أحاول أن أنقذك من المـأزق الذى أنت فيه ! »

ـ أى مأزق ؟.. فليحاول الاميرال الاخرق الرأى أن يدخـل فى الخليج ليرى مصير أسطوله كله !

ـ انه لن يحاول ذلك !.. وأغلب الظن انه سيمكث خارج الخليج ما طاب له المكث وكأنه حارس على سجين ! ومن يدرى لعله بعد حين ينزل قوة فى شرقى جربه لتستولى على حصنك !

فضحك ياقوت وقال : « عسى الله أن يلهمه ذلك ليكون سببا فى هلاكه ! »

ثم قال له عابسا : « كيف جئت الى البر ؟.. انى اذا رأيتك مرة أخرى على البر من غير اذن منى فسآمر بوضع الاغلال فى قدميك ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ومضت أيام بلغ فيها الضجر من ياقوت مبلغه ، فقد مل الانتظار فى ذلك الخليج من غير عمل ، ولم يجرؤ على الخروج بأسطوله .. ثم خطر بباله أن يدعو اليه بروسبيرو ليسأله عما كان معتزما أن يشير به عليه ، فلما جيء به اليه وعرف بروسبيرو القصد من دعوته ، قال له :

ـ من حسن طالعك أن هذا المأزق الحرج الذى لم تقع فى مثله ، يمكن أن تخرج منه بثمن زهيد ! »

فسأله ياقوت : « ما هو هذا الثمن ؟ » . فقال بروسبيرو بلهجة الحزم : « أن تعتق جيانا من الأسر ! »

ـ انكم معشر الغربيين تقدرون نساءكم تقديرا عاليا !.. ولكن كيف تكون امرأة واحدة فدية لأسطول بأجمعه ؟

فقال بروسبيرو : « انى لا أطلب منك أن تصدق ذلك ، ولكن يمكنك أن تختبره ! »

ولم يسع ياقوت الا العمل بهذه النصيحة ، فبعث فى طلب جيانا من سفينة سنان ، ثم أملى عليها خطابا الى الاميرال دوريا أنبأته فيه بأنها أسيرة فى يد ياقوت ، وبأن هذا لايمانع فى ارسالها اليه اذا أعطى كلمة الشرف بترك أسطول الاتراك يخرج من الخليج من غير أن يهاجمه !.. ثم أرسل الخطاب الى الاميرال دوريا مع رسول خاص ، وجاء الرد بعد قليل فاذا هو يتضمن عبارات مهينـــة جعلت ياقوت ينـــدم على عمله بنصيحة بروسبيرو !

وفى اليوم التالى استأذن بروسبيرو ياقوت فى النزول الى البر مرة أخرى لغرض فى صالحه ، وأقسم له على ذلك . فأذن له على أن يصحبه أحد رجاله ، وأمر لهما بجوادين كما طلب !

وراح بروسبيرو فى اليومين التاليين يستكشف المكان على ظهر جواده ومعه مراقب عربى

ثم جاء الى ياقوت وقال له : « لقد وجدت طريقا لخروج ســـفنك من الخليج من غير أن تمس بسوء ! »

فقال له ياقوت : « لعلك لا تريد سخرية ولا خداعا ؟! »

ـ ما عليك الا أن تطلع على خطتى وعندئذ تحكم لها أو عليها..ولكنى لن أبينها لك الا اذا وافقت على شروطى !

ـ شروط ؟! أتساومنى ؟

ـ ألا تساوم على مثل هذه الخدمة الجليلة ؟. أن أى ثمن قليل مقابل خروجك بسفنك سالمة من هذه المصيدة ، بدل أن تؤسر السفن وتفر أنت الى الجزائر طريدا شريدا !

ففكر ياقوت هنيهة ثم قال له : « اذن .. اشرح لى خطتك ! »

ـ لقد نسيت ما قلتـــه لك من انى لن أذكرها لك حتى توافق على

www.ibtesama.com/vb Exclusive

شروطي !٠ انك في هذه الصفقة التي نعقدها معا لا تدفع الثمن الا اذا أصبحت سفنك في عرض البحر !

ـ وما أدراني أنك لا تخدعني ؟!

ـ انني في قبضتك ، ويمكنك عندئذ أن تفعل بي ما تريد !

وأخيرا طلب منه ياقوت أن يذكر شروطه ٠ فقال له بروسبيرو : «كان في استطاعتي أن أطلب نصف أملاكك في مقابل انقاذ أسطولك ٠٠ وما كنت ترفض هذا الثمن ٠٠ ولكني متواضع في مطالبي : وأول شرط لي هو أن تحلني من دفع الفدية التي أنا مدين لك بها منذ أطلقت سراحي في شرشل !

ـ حسنا !٠٠ وماذا بعد ذلك ؟

ـ وأن تعفيني كذلك من الفدية التي تستحقها الآن عني وعن زوجتي!

فقال ياقوت بشدة : « ان هذه المرأة ليست للافتداء ! »

فرد بروسبيرو قائلا : « في هذه الحالة ليس لدي ما أقوله ! »

فأمسكه ياقوت من كتفه وقال له : « لدي وسائل تكره الانسان على الكلام ! »

ـ انها خير الوسائل لجعلي أبكم !

وعندئذ أخذ ياقوت يمشي على ظهر السفينة رواحا وجيئة ثم قال لبروسبيرو : « وماذا تطلب أيضا ؟ »

ـ أن تطلق سراح البحارة الذين كانوا بسفينتي حين استولى عليها سنان !

ـ لا يهمني أمرهم وسأحقق لك هذا الطلب ٠٠ والآن ما هي الخطة ؟

ـ مهلا !٠ ان شروطي لم تنته بعد ٠٠ يجب أن تعيد الى صندوق العملة الذهبية ٠ وأنا حتى الآن لم أطلب الا ما هو حق لي ٠٠ ولكني أطلب بالاضافة الى ذلك أن تمدنا بسفينة ذات ستة وعشرين مجدافا ، مجهزة بالسلاح والعبيد ، لنواصل بها رحلتنا التي قطعها علينا سنان !

ـ عسى الله أن يمحوك من الوجود !٠٠ وهل إنتهت شروطك ؟

ـ ستضع هذه السفينة تحت تصرفي متى وثقت من نجاح خطتي ، أعني اليوم !٠ وسأقيم بها أنا وزوجتي ورجالي ويوضع بها صندوق الذهب كذلك٠٠واذاكنت غير واثق بي فلتضع بها من الجنود قدر ما تريد حتى لا ترتاب في أني أريد خيانتك !٠٠ هذه شروطي كلها يا سيدي ، وانها لقليلة حيال أعظم خدمة قدمها أحد اليك منذ جبت خلال البحار !

ـ حسنا !٠ وما هي الخطة ؟

فقال بروسبيرو : «أن تشق لنفسك طريقا تخرج به من هذه المصيدة!»

ـ انك تكاد تذهب بعقلي !٠٠ كيف أشق لنفسي طريقا ؟

ـ انك لم تذكر بعد انك وافقت على شروطي !

ـ اني موافق عليها !٠ وأقسم لك بالقرآن المجيد لأحققنها كلها اذا نجحت خطتك !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال بروسبيرو : « هـــذا يكفي ! » . وكان يعـرف في ياقوت أنه لا يحنث بيمينه أبدا .. ثم استطرد قائلا له : « الآن اركب معي الى تلك البقعة من الارض التي تصل ما بين جربة وسيرتيس »

فقال له ياقوت : « اذاكنت تحسب أن في تلك البقعة منفذا للاسطول فأنت انما تخدع نفسك ! »

فرد بروسبيرو قائلا : « كلا !.. انى لا أخدع نفسي ، فقــد عاينت ذلك المكان . والآن تعال معي لأريك أين المنفذ الى البحر ! »

وركب الاثنان جوادين وسارا جنبا الى جنب ووراءهما ستة فرسان ، حتى اذا وصلوا الى برزخ ضيق قال بروسبيرو : « ها هنا المنفذ ! »

وأخذ يشرح خطته ، وكانت تتلخص في شق قناة عبر هذا البرزخ ، لتسير فيها السفن وتخرج الى البحر دون أن يشعر بها دوريا ورجاله وهم ينتظرون على مسافة بعيدة أمام خليج جربة !

وقد استمع ياقوت الى بروسبيرو وهو يشرح هذه الخطة ، حتى اذا انتهى هز رأسه وقال له : « انها مجرد حلم لا أكثر يا صاحبي ! »

فقال له بروسبيرو : « قد تكون حلما .. ولكن ألم يبدأ كل عمـل عظيم وكأنه حلم من الاحلام ؟! »

ــ ولكن هذه القناة التي تقترح شقها سيكون طولها فرسخا تقريبا ؟!

ــ أجل !. ويكفي لانجاز العمل سبعة آلاف رجل .. ولا حاجة لجعل القناة كثيرة العمق . ويمكننا أن نخفف حمولة السفن الى أقل حد ممكن حتى تخرج من الطرف الآخر للقناة !

وأخيرا اقتنع ياقوت بهذه الخطة ، وعهد الى بروســـبيرو نفسه في الاشراف على انفاذها !

وبعد ظهر اليوم نفسه جيء بألفين من أهالي المناطق المجاورة ليعملوا في هـــذا المشروع الضخم ، كما جيء بمثل عددهم من الأسرى الذين بالسفن . وعهد الى عدد من الحراس بمراقبة هؤلاء وأولئك أثناء العمل . وكان على هؤلاء أن يتلقوا الاوامر والتعليمات من بروسبيرو !

ولما بدأ المشروع يؤذن بالنجاح طلب بروسبيرو الى ياقوت أن يوفي بوعده، فلم يتلكأ سيف الاسلام في ذلك ، وأمر باعداد السفينة «الاسود» ذات الستة والعشرين مجذافا لتكون تحت تصرف بروسبيرو وزوجته ، مع تجهيزها بالسلاح والأسرى ، ووضع عليها ــ من قبيـــل الحيطة ــ ضابطا تركيا يدعى يوسف حامد ومعه عدد من الجنود ، كما جيء اليها أيضا بمن كانوا مع بروسبيرو حين أسر . وقد احتج سنان على تحرير سبيته الحسناء التي كان سيهديها الى السلطان ، ولكن ياقوت أسكته وبين له ما اتفق عليه مع زوجها لكي ينقذ الاسطول !

وذهب بروسبيرو الى جيانا فزف اليها بشرى تحريرها وجمع شملهما على سفينة واحدة ، فلم تسأله كيف حدث ذلك ، ثم جاء ياقوت فقادهما

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الى سفينتهما الجديدة « الاسود » ، حتى اذا صارا وحـــدهما قال لها :
« مالى أراك ساكتة ؟ »

فردت عليه قائلة : « ماذا أقول ؟ » ٠ ثم استطردت بلهجة حزينة : « لست محتاجا الى أن أبين لك حقيقة ما فعلته يا بروســبيرو ٠٠ انك تقضى على سمعتك الى الابد بهذه الخيانة ٠٠ ولست أجد كلمة أخـرى لأعبر بها عما فعلت ! »

فامتعض منهذا القول وهز رأسه انكارا وقال لها : «خيانة؟٠كلا!٠٠ ان الخيانة لا تكون الا حيث يكون الولاء ٠٠ ولست مدينا بأى ولاء لآل دوريا منذ خذلنى الاميرال فى شرشل ! »

فقالت له : « انى لا أفكر فى الاميرال ولا فى آل دوريا٠٠ولكنى أقصد ولاءك للامبراطور الذى أنت فى خدمته !٠٠ لقد خنته بمعاونتك لياقوت على الفرار من هذه المصيدة التى حبس فيها ! »

فبان عليه الألم ولكنه أخذ يجادلها قائلا : « ان ياقوت كان يستطيع الفرار من غير أن أعاونه٠٠لقد كان يعتزم أن ينزل مع رجاله عند بوغارة وهناك يغرق سفنه ثم يسير مع جنوده الى الجزائر برا ٠ وكل ما فعلته أنى بينت له الطريق لانقاذ سفنه ! »

فردت عليه قائلة : « ان أسطوله هو المهم !٠٠ وهو المقصود بهـــذه الحملة ٠٠٠ انك لا تصارحنى القول يا بروسبيرو ! »

ـ لقد كنا فى خطر يا جيــــانا ، وما دفعنى الى ما فعلت الا اليأس ، وأؤكد لك أننى لم أفكر فيما وراءه من معنى أو ما يكون له من عاقبة٠٠ ولكنى لو فكرت فى الامر من قبل وقدرت كل شىء حق قدره ، ماكان لى أن أفعل غير ما فعلت انقاذا لحياتنا !

فقالت له فىأسف : «ان الحياة لا قيمة لها بغير الشرف يابروسبيرو!»

فرد عليها غاضبا : « لم تكن الحياة هى كل شىء فى هذا الأمر٠٠ وهل كانت للحياة قيمة عندى حين جازفت بها فىغلطة ، وأمالفى،وبروسيدا، وشرشل ؟! »

فقالت بلهجة أكثر رقة من قبل : « لست أجهل ذلك يا بروسبيرو!٠ إنك لم ترد انقاذ حياتك بل أردت انقاذ حياتى أنا ؟ »

ـ لم يكن الامر متعلقا بحياتك فقط يا حبيبتى !٠٠انك لا تعلمين لماذا دفعت هذا الثمن الفادح !

ثم قص عليها كيف قرر سنان اهداءها الى السلطان ســـليمان لكى يضمها الى الجوارى فى حريمه ٠٠٠ فارتاعت من سماع هـــذا النبأ ، وطأطأت رأسها خجلا ، بينما استطرد بروسبيرو فقال :

ـ هل كنت أستطيع أن أقف ساكتا حيال ذلك ؟٠ وهل كان واجب الولاء نحو الامبراطور يحول دون أى عمل آتيه فى ســـــبيل تحريرك وانقاذك من ذلك المصير الرهيب ؟٠٠ لقد كاد رأسى ينفجر من التفكير

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فى الثمن الذى أقدمه لياقوت بعد أن رفض كل فدية لك من المال ، وبعد أن رفض الاميرال دوريا أن يعمل أى شيء لانقاذك !

فغطت وجهها بيديها وقالت وهى تبكى : « سامحنى يا حبيبى !٠٠ لقد أسأت بك الظن اذ حسبت أن عداءك لآل دوريا كان له أثر فى ذلك٠ ولم أكن أتصـــور ما قلته لى !٠ ولكن أخشى يا عزيزى حين يفر ياقوت بأسطوله من هذه المصيدة أن تحاكم على تيسيرك الفرار له ! »

فقـــال لها : « لندع ذلك الآن يا حبيبتى !٠٠ ان الامـور مرهونة بأوقاتها ٠ وما ينبغى لنا أن نفكر فى صعاب المستقبل وسط الصعاب المحيطة بنا فى الوقت الحاضر !٠٠ ان واجبى الآن هو العمل على نجاح المشروع الذى تعهدت به ٠ ولنحمد الله على انك لن تذهبى الى استانبول لتدخلى حريم السلطان ٠٠٠ ولابد للمقدر أن يكون كما يقول المسلمون!»

ومضى بروسبيرو يدير أعمال الحفر ويشرف على كل كبيرة وصغيرة ، وقد اطمأن اليه ياقوت ووثق بصدق نيته ٠٠ وبينما كانت تلك الاعمال دائرة ، أشرف ياقوت من جانبه على تخفيف حمل السفن حتى تستطيع المرور بتلك القناة القليلة العمق وكانت هذه أيضا مهمة شاقة تطلبت حمل المدافع والاثقال الى البر والسير بها مسافة على ظهور الابل وظهور الرجال !٠٠ ولما تمت تلك الاعمال جميعها وأصبحت القناة صالحة لمرور السفن ، أطلق من الحصن بعض طلقات تغريرا بأسطول دوريا الواقف بباب الخليج !

وبقى ياقوت يرقب سفنه وهى تجتاز القناة الى أن أصبحت فى عرض البحر بعيدا من أسطول دوريا ، ثم توجه الى السفينة « الاسود » حيث ودع بروسبيرو ، معبرا له عما يكنه له من محبة وعرفان بجميله ، وقال له : « انى أودعك وفى نفسى حسرة ، وأسأل الله لك العون والســـلامة اذا نمى الى الاميرال نبأ تلك الصفقة التى عقدناها معا ! »

فقال له بروسبيرو وهو يصافحه : « لقد كنت أســـيرى مرة وكنت أسيرك مرتين ٠٠ وفى هذا الكفاية ٠ وانى أسأل الله ألا نلتقى مرةأخرى ونحن عدوان ! »

وسارت السفينة « الاسود » مع بقية سفن ياقوت شرقا حتى اذا حل منتصف الليل انفصلت عنها وسارت وحدها شمالا ، وكانت تقل عدا بروسبيرو وجيانا اثنى عشر ملاحا منهم فيروشيو والبحارة الذين كانوا معه حين غادر جنوا

وكان بروسبيرو يعلم أن ياقوت سار بأسطوله الى استانبول ، ولكنه علم بعد حين أنه غير رأيه فأرسل سفينة واحدة الى الجزائر لطلب المدد، ثم اتجه بأسطوله غربا حيث أخذ يهاجم الجزر والموانىء التى كانتعزلاء بسبب بقاء الاسطول الامبراطورى مرابطا أمام (خليج جربة) دون أن يعلم أن فريسته التى يحسبها فى القفص قد أفلتت منه !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفيما كان بروسبيرو يفكر في ذلك ، وقد ندم اذ دل ياقوت على سبيل النجاة ، جاءت اليه جيانا تسأله : « الى أين نحن ذاهبون الآن؟» فأجابها : « الى اسبانيا طبعا كما كنا عازمين من قبل .. الى برشلونة ! »

وكان مطمئنا الى صداقة دل فاستو له ، واثقا من معاونته اياه لدى الامبراطور . ولكن جيانا لم يكن لديها مثل ذلك الاطمئنان وهذه الثقة فقالت له : « وكيف يستقبلونك في اسبانيا اذا علموا ما فعلته ؟ »

فقال لها : « انهم ولا شك سيعلمون أيضا البواعث التي حفزتني الى ما فعلت ! »

فقالت له : « انهم لن يفهموا من هذه البواعث الا أنك أردت انقاذ حياتي وحياتك ، ولا أكثر من ذلك !..وأحسب انهم سيقولون : لو أن الاميرال دوريا نجح في مهمته لحرر ألفي أسير ، في حين أن نجاة ياقوت بأسطوله أدت الى أسر مثل هذا العدد من الثغور والجزر التي أغار عليها بعد ذلك !.. والواقع أني لا أذم عملك ولا أزكيه الآن ، وانما أردت أن أبين لك كيف ينظر القوم في اسبانيا الى ما فعلت !.. انك تعرف شدة غضب الامبراطور كلما نمى اليه نبأ غارات ياقوت ، وشدة اشتياقه للقضاء على هذا الرجل . فماذا يكون موقفه منك اذا علم انك فوت عليه الفرصة لتحقيق غايته ؟! »

فقال لها : « ربما لا يصل الى علمه شيء من ذلك ! »

فسألته : « أتعتزم أن تخفي الامر عليه أو تنكره ؟! » . فأجاب قائلا: « ليس مفروضا علي أن أتهم نفسي ! »

فقالت له : « لكن اخفاء الأمر لا يبقى طويلا .. وهناك من قد يتهمونك لدى الامبراطور ! »

فقال لها : « ثقي بأن ياقوت حين يفخر بخداعه لدوريا ، لن يقول ان ضابطا من النصارى أوحى اليه بتلك الخدعة ، بل يستأثر بالفخر كله لنفسه ! »

ــ ولكن هناك الأسرى الذين حررتهم !. وهناك نحو ألفي أسير اسباني كدحوا في حفر تلك القناة..وقد يتاح لبعضهم الفرار والتحدث بما فعلت ! »

ــ انهم مدينون لي بالفضل !. فلو أن أسطول دوريا الضخم هجم على سفن ياقوت لقضى أولئك الأسرى نحبهم جميعا في أثناء القتال !

ثم أحاطها بذراعه وقال لها : « لنحمد الله على ما كان حتى الآن ، ولنواجه ما يأتي به القدر بالأمل والرجاء »

ومضت بهم السفينة شمالا ، وبعد يومين من ابحارها وصلت الى مقربة من مالطة ، فلم تقف بها خوفا من فرسان سانت جون . وفي اليوم السادس دخلت مضيق مسينا،وهناك التقت بغتة بأسطول نابولي وفي مقدمته السفينة « بروسبيرا » التي كانت فيما مضى سفينة القيادة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الخاصة ببروسبيرو !٠وأدرك هذا ان ذلك الاسطول أرسل مددا لاسطول دوريا لكي يقتحم خليج « جربه » ويهاجم سفن ياقوت التى يحسبها محبوسة في المصيدة ٠٠٠ ولم يدر بروسبيرو أيضحك أم يبكى وانما قال لجيانا :

ــ ان مغامرتنا هذه قد قادتنا من حيث لا نشعر الى أسطول نابولى ، وما زلت حتي الآن أعد قائده من الوجهة الرسمية ٠٠٠ ثم ان نصف السفن في هذا الاسطول ملكى الخاص !

ولما اقتربت السفينة « الاسود » من السفينة « بروسبيرا » ، رأى بروسبيرو على ظهر هذه شخصا وجيها مرتديا بذلة صفراء ، وعرفه لتوه اذ كان « كارباجال » خلفه في القيادة ، وفى الوقت نفسه صاح « كارباجال » بمن فى السفينة القادمة قائلا : « من أنتم ؟ »

وكان الجواب آخر ما يتوقعه اذ قال بروسبيرو : « باركك الله يا دون الفارو !٠٠ أنا بروسبيرو أدورنو قائد أسطول نابولى ! »

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

المعركة الفاصلة

وما كاد دون الفارو دى كارباجال يتحقق من أن بروسبيرو هو القادم حقا فى تلك السفينة الصغيرة « الاسود » حتى أخذته الدهشة وكاد لا يصدق عينيه ، ثم صاح قائلا : « لتعاوننى العذراء والقديسون جميعا !٠٠ أهذا أنت حقا يا دون بروسبيرو لحما ودما ؟! »

ثم احتضنه بشدة وهو يقول : « انى أضمك الى قلبى يا صديقى العزيز !٠ ان بعثك هذا من الموت سيفرح قلوبا كليمة ! »

فضحك بروسبيرو فرحا بهذه الحماسة من صديقه الاسبانى وقال له: « لقد بعثت الطمأنينة فى نفسى ٠٠ فان العائد من الموت لا يلقى الترحاب فى جميع الاحوال ! »

ــ ولكنك تلقى كل اكرام بعد أن بعثت من ميتة مجيدة كما قيل لنا٠٠ لقد علمت ذلك من دل فاستو اذ كتب الى وهو فى حزن شديد عليك !

فقال بروسبيرو ساخرا : « لا شك أن الاميرال سيفرح بعودتى ، اذ لابد أنه حزن على كثيرا! »

فرد دون ألفارو غاضبا : « ان هذا الرجل كان ينبغى له أن يسكب بدل الدمع دما لو أنه فقدك ٠٠ ولعله سيبكى كثيرا حين تحكى القصة كلها ! »

وعندئذ أخذه بروسبيرو الى مؤخر السفينة « الاسود » ٠ فما كادت عينا دون الفارو تريان جيانا حتى فغر فاه وتراجع قليلا ، ثم قال له : « انك تنتقل بى من مفاجأة الى أخرى ! » ٠ فدعاه بروسبيرو الى الجلوس على مقعد بجوار الكرسى الذى كانت تجلس عليه جيانا وقال له :

ــ لن تدهش اذا سمعت القصة كلها ٠٠ لقد وقعت فى شرشل أسيرا فى يد ياقوت ، وكان صديقا قديما لى اذ كان مرة أسيرى فعاملته معاملة حسنة ، فوافق على أن أفتدى نفسى بمبلغ من المال وتركنى أعود الى جنوا لأرسل منها الفدية اليه ، ولكنى وصلت اليها بعد أن أبحرت الحملة وعادت سفنى الى نابولى ، وكانت الحوادث التى يقع بعض الذنب فيها على ، قد زادت عداء قديما بينى وبين دوريا ٠٠ كذلك لم يكن أهلى راضين عنى من جراء خطبتى لمادونا جيوفانا ماريا دوريا ٠ وعلى ذلك اعتزمت أن أرحل الى اسبانيا ، ولبثت فى الزورق الذى كان قد حملنى الى جنوا

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم قص عليه ما حدث بعد ذلك من لامبا دوريا وعصابته ، واسراع فيروشيو الى الابحار بزورقهم وفيه جيانا ، ثم هبوب العاصفة ووقوعهم في يد ياقوت الى أن قال له : « وقد افتديت نفسي ومن معي من ياقوت ، وجئت بهذه السفينة التى زودنا بها ٠٠ هـذه خلاصة ما حدث منـذ افترقنا ! »

وكانت جيانا ترقب ملامح دون الفارو لترى أثر هذه القصـة فى نفسه ، وقد اطمأنت حين سمعته يقول فى إخلاص ظاهر : « حقا ٠٠ لقد أراد القدر أن يجمع بينكما رغم كل شيء !٠ ان الاميرال سيكون أول من يتمنى اتمام زواجكما ٠ فليهنأ أحـدكما بالآخر اذن !٠٠ أما الريس ياقوت فما أحسبه سيزعجنا بعد الآن ! »

ولما سأله بروسبيرو عما يعنيه بعبارته الاخيرة عن ياقوت ، ذكر له « دون الفارو » ما يعلمه من الانباء العظيمة التى بدأت تنتشر على طول الشاطىء الشمالى للبحر الابيض المتوسط ، مؤكدة حبس ياقوت وسفنه فى خليج « جربه » ووقوف دوريا بأسطوله بباب ذلك الخليج منتظرا امداده بأسطول نابولى لكى ينقض على الفريسة وهى لا تستطيع الافلات منه !

وعندئذ قال له بروسبيرو : « اذا كانت هذه مهمتك فيحسن بك أن تعود أدراجك الى نابولى،فان أسطول ياقوت ليس الآن فى خليج«جربه» اذ غادره منذ أسبوع تقريبا وهو الآن يسير بمحاذاة شاطىء تونس متجها الى الغرب ! »

فكاد دون الفارو يصعق من هذا النبأ وقال له : « لابد أنك مخطىء يا بروسبيرو !٠ ان ما تقوله مستحيل ! »

ــ لقد كنت مع ياقوت فى خليج جربه ، وقد غادرته معه من طريق فى الطرف الجنوبى للخليج !

ــ ماذا تقول ؟٠٠ انى أعرف ذلك المكان جيدا ٠٠ وليس هناك منفذ من الخليج الى البحر سوى الباب الذى يقف به أسطول الاميرال !

فقال له بروسبيرو : « لقد حفرت هناك قناة وصلت الخليج بالبحر من جهة أخرى ، وقد شاهدت حفرها بعينى ٠٠ وهكذا خدع ياقوت دوريا وتركه قابعا عند باب مصيدة خالية من الصيد !

وفكر «دون الفارو» هنيهة ثم قال بلهجة الجد : « اذا كان هذا صحيحا فان دوريا لم يخدع فحسب بل قضى على سمعته ! ولاشك انه لم تخطر بباله قط مثل تلك الفكرة التى أفلت بها ياقوت »

فقال له بروسبيرو : « لو اننى كنت فى مكانه لخطرت ببالى هـذه الفكرة ! »

فقال دون الفارو : « ربما !٠٠ ولكن ما الذى يجب عمله الآن ؟٠٠ ان الاوامر التى تلقيتها من نائب الملك تقضى بأن ألحق بدوريا أمام خليج

www.ibtesama.com/vb Exclusive

« جربه » ·· وهذا قد أصبح الآن عبثا لا فائدة منه ! »

فقال له بروسبيرو : « ان الامر أسوأ من ذلك !·· لقد قلت لك ان ياقوت اتجه بسفنه غربا · ولابد أنه سيتلقى المدد من الجزائر · وهو الآن يجول ويصول في البحر ، والشواطىء والجزر بلا دفاع ·· وعلى هذا ليس لك الا أن تعود الى نابولى ! »

فقال دون الفارو : «حقا انه درس قاس لذلك الاميرال المعتد بنفسه!·· وليس يجدر بى الآن أن أترك الشاطىء الايطالى بغير وقاية ! »

وعلى أثر ذلك ، عاد دون الفارو الى السفينة « بروسبيرا » لكى يأمر بعودة أسطول نابولى الى ايطاليا !

وكانت جيانا قد اطمأنت اذ تلقى دون الفارو قصة بروسبيرو من غير أن يرتاب فيه أو يتطرق الى ذهنه الدور الذى قام به فى فرار ياقوت بسفنه ··· أما بروسبيرو فانه منع المخاوف أن تتطرق الى نفسه ، ثم تفقد سفنه الست حيث قوبل فيها بحماسة شديدة · وعلم من رجالها أنه حدث عقب اعلان موته ان طالب عمه رينالدو بملكية هذه السفن بوصفه وارثه ، ولكن المحاكم الاسبانية لم تبت بعد فى تلك الدعوى · فضحك بروسبيرو اذ تصور خيبة الامل التى سيصاب بها عمه رينالدو حين يراه ويفاجأ بعودته الى الحياة !

وبلغ من اطمئنان بروسبيرو خلال العودة الى نابولى ، أنه عاد الى قرض الشعر ، وانتهى من تأليف جزء جديد من الملحمة الشعرية التى كان قد بدأها منذ سنوات واسمها « ليجورياد » ·!

وسألته جيانا يوما عما يعتزمه فقال لها : « ان ياقوت كان يقول دائما ان الله قد كتب لكل شخص نصيبه · وأنا أومن بذلك المبدأ وأعتقد أن القدر رحيم بى ما دام قد جمع شملنا ! »

وأخيرا وصل الاسطول الى خليج نابولى الفسيح الذى يشرف عليه بركان فيزوف ، وكان وقتئذ هائجا يقذف بالحمم من جوفه · ولم يكن البركان وحده فى هياج بل كانت المدينة كلها كذلك··وسرعان ما أطلقت النيران منها على الاسطول · وقد دهش دون الفارو وبروسبيرو ، ثم اتضح لهما ان القوم حسبوا أن أسطول العدو هو القادم اذ لم يتصوروا أنه أسطول نابولى الذى رحل الى خليج جربه !

وأرسلت السفينة بروسبيرا اشارة تدل بها على شخصيتها ، فوصل اليها بعد قليل أمير أورانج نائب الملك حيث حيى دون الفارو بجفاء ثم قال له : « كيف عدت الى هنا وقد كان واجبك أن تلحق بالاميرال دوريا عند خليج جربه ؟ »

فأجابه قائلا : « لقد علمت يا صاحب السمو أنه لا حاجة الينا هناك، لان ياقوت فر من ذلك الخليج الذى كان محبوسا به ! »

فقال له الامير وقد خلت لهجته من اللوم والتأنيب : « لقد جئت فى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أوانك !· فان ياقوت قد أشعرنا بأنه مطلق السراح فى البحر···فمنذ ثلاثة أيام هاجم جزيرة كورسيكا ·· كما أغار على ست مدن فيما بين تارنيانو وسان نيقولا . وبعد أن نهب دورها وفتك بكثير من أهلها عاد بالغنائم والاسلاب ومعها ألف أسير · وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كنا ننشد فيه أناشيد النصر اذ سمعنا بقرب وقوعه فى الأسر وصدقنا دوريا وهو يفاخر فى حماقة بأن ياقوت أصبح فى قبضة يده!··حقا·· انى لا أرضى لنفسى أن أكون فى مكان دوريا حين يعلم الامبراطور بحقيقة ما حدث ! »

وسكت لحظة ثم استطرد يقول : « اننا حين رأينا سفنكم عند الغروب حسبناها سفن العدو ، ولم نكن نتصور أن القدر قد أعادها الينا فى هذا الظرف الذى نحتاج اليها فيه أشد الاحتياج !· فقد كنت منهمكا فى جمع أكثر ما أستطيع من السفن واعدادها للدفاع عن الشواطىء ، ولكنى ما كنت علم الله لأصمد لاسطول ياقوت لو أنه هاجم نابولى ! »

فقال له دون ألفارو : « أحسب انه ما كان لتصل به الجرأة الى هذا الحد ! »

فقال الامير : « انه فى جرأته لا يعرف حدا !·· والآن أصدر أمرك بدخول الميناء ! »

ثم استدار نائب الملك ليصعد الى مؤخر السفينة ، وعندئذ رأى بروسبيرو وجيانا واقفين عند الحاجز ، وكان ضوء المصباح قد وقع على وجه بروسبيرو ، فلما رآه نائب الملك قال لدون الفارو :

ـ رباه ! هل تزور السفينة الاشباح يا دون الفارو ؟

فضحك دون ألفارو وقال له : « هذا دون بروسبيرو أدورنو ! »

ففرح أمير أورانج ، ومد اليه كلتا يديه وقال له : « هل أنت حى حقيقة . يا لها من معجزة ! »

فى صباح اليوم التالى ، جلس بروسبيرو مع نائب الملك ودون الفارو دى كارباجال فى قاعة الملائكة ببرج بيفريللو بقلعة نوفو ، تلك القاعة التى عقد فيها فى السنة الماضية مجلس حربى برياسة مونكادا وفيه تقررت الحملة البحرية المشئومة التى انتهت بمعركة أمالفى !

وكان بروسبيرو قد فكر فى أمره طول الليلة الماضية ، فاستقر رأيه على أن يذكر ما حدث فى «جربة»وعلى هذا روى لنائب الملك ودون الفارو كل ما حدث بالتفصيل ، ولم يخف عليهما أنه هو الذى أشار على ياقوت بشق تلك القناة التى مكنته من الفرار والافلات من أسطول الاميرال دوريا !

وكان « كارباجال » يكره دوريا ·· فسره أن يخدع على ذلك الوجه!· أما أمير أورانج فقطب جبينه وقال لبروسبيرو : « لو أن أحدا غيرك ذكر لى ما ذكرت لما صدقته !· فانى لا أتصور أن تمد يد المساعدة الى العدو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

كي ينجو بأسطوله بعد أن كاد يقع في أيدينا غنيمة باردة !٠٠ ان هذه القصة غير جديرة بالتصديق ولو انك أنت الذى تحكيها ! »

فقال بروسبيرو : « فكر يا سيدى فى الخطر الذى كان محدقا بنا ! »

فقال الامير : « ان هذا الخطر كان يصلح ذريعة لغيرك ٠٠ أما أنت فلست بالجبان ! »

فتدخل دون الفارو في الحديث وقال : «ان كل العالم يعرف شجاعته!٠ ولو لم يكن له فخر معركة غلطة حيث أنقذ أسطول دوريا ، وفخر معركة بروسيدا ، لكان له فخر مسلكه فى شرشل حين خذله دوريا وذهب بأسطوله تاركا اياه وحده لينقذ مئات الأسرى ! »

ثم التفت الى بروسبيرو وقال له : « لا شك انك حين أرشدت ياقوت الى طريق النجاة من « جربة » كنت تذكر مسلك الاميرال نحوك فى شرشل ! »

وقبل أن يجيب بروسبيرو على ذلك قال الامير : « آه ! لقد فهمت الآن ! انه ذلك العداء القديم الذى بين أسرتيكما ، لا يزال قابعا وراء تصرفاتكما ، ولم يكن صلحكما المزعوم الا خديعة متبادلة ! وأنتما اذ تتبعان باعث الضغينة لا تباليان أن تضحيا مصالح وطنكما وواجبكما نحو الامبراطور !٠٠ هذه هى الحقيقة يا بروسبيرو ٠٠ أليس كذلك ؟ »

فهز بروسبيرو رأسه وقال : « لا ٠٠ يا صاحب السمو !٠٠ على أنى أعترف بأنى ما زلت مقيدا بذلك العداء ، ولو أنى انتهزت تلك الفرصة لأقتص لنفسى من الأميرال مالا منى أحد !.. لقد ذكر دون الفارو مسلك دوريا نحوى فى شرشل ، ولكن هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة !٠٠ لقد أخفى آل دوريا نبأ عودتى من شرشل كما أخفى الرسول الذى بعثه ياقوت لطلب فدية عنى ، وذلك لكى أبقى أسيرا فى يد ياقوت حتى آخر حياتى٠ ثم بذلوا محاولات جريئة لاغتيالى ٠ ثم هناك مونا جيانا فقد أسرت معى وكانت سترسل الى استانبول لتكون احدى جوارى السلطان،وقد رفض ياقوت كل فدية عنها ولو وهبته كل ما أملك من المال٠ولم يسعنى ازاء ذلك الا أن قدمت له الفدية التى يقبلها وهى ارشاده الى طريق النجاة من دوريا ! »

ثم قال فى سخرية : « لم يكن لى من البطولة ما يجعلنى أتركها لذلك المصير !٠ ولو أن أحدا كان يتوقع منى ذلك ، فانما كان يطلب ما هو فوق طاقة البشر ! »

فتأثر دون ألفارو من هذا القول وصاح قائلا : « لقد كان كل ذلك كافيا لتبرير ما فعلت ! »

ولكن الامير بقى صارم الوجه وقال لبروسبيرو : « لقد وصلت بعدائك لدوريا الى نهايته !٠٠ فقد قضيت على سمعة ذلك الرجل ، وعرضته للازدراء والسخرية ، ولن يقدر أن يرفع رأسه ثانية ٠٠ وسيتلقى

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الامبراطور مزاعم دوريا عن انتصاره المزعوم على ياقوت وكونه فى قبضة يده ، مع أنباء غارات ياقوت على الجزر والثغور • وبذلك يظهر الاميرال أمامه بمظهر المدعى المغرور ، وهذا كاف لنكبته !•• لقد انتصرت على دوريا يا سيد بروسبيرو بعد ذلك الصراع الطويل بينكما ! »

فقال بروسبيرو : « لكن ذلك اذا حدث يا صاحب السمو فانما يحدث مصادفة لا عن قصد ••• لانى لم يكن فى حسبانى أن أقضى على مكانة الاميرال ! »

فقال الامير : « ولكنك على الاقل لا تدعى الاسف على ذلك ! »

فهز بروسبيرو كتفيه وقال : « انى لا أدعى انى قديس ! »

ثم سكت نائب الملك لحظة ، وبعدئذ استطرد قائلا : «ليذهب الشيطان بخلافاتكم وحزازاتكم !•• انظر الى أين وصلت بنا !•• مئات من الدور فى كورسيكا قد نهبت ، ومئات من أهلها وقعوا فى الأسر !• وحبطت آمال الامبراطور فى القضاء على أسطول العدو ! »

وكان واضحا أن أمير أورانج لم يقتنع بكل ما قاله بروسبيرو ، ولا بدفاع دون ألفارو عنه • وهكذا خرج بروسبيرو من عنده وهو يشعر بذلك

ولم تمض على ذلك الا ساعة واحدة ، ثم دعى بروسبيرو الى لقاء الامير فى القاعة نفسها ، فلما دخل عليه هناك وجد معه دون ألفارو وشخصا أجنبيا عرف فيما بعد أنه قبطان سفينة فرنسية رست أخيرا فى نابولى، يقول انه رأى على بعد مائة ميل من شاطىء سردينيا الغربى أسطولا قويا يبدو انه للقرصان ، وكان متجها نحو الغرب !

وكان نائب الملك قد أفزعه هذا النبأ ، فقد أدرك أنه أسطول ياقوت وانه لا شك متجه نحو شاطىء اسبانيا ، وتصور شعور الامبراطور اذا أغار أسطول ياقوت على الثغور الاسبانية فى الوقت الذى يعتقد فيه أن هذا الاسطول قد قضى عليه بيد دوريا !

وقال بروسبيرو فى هدوء : « مهما يكن غرض ياقوت من سيره فى ذلك الاتجاه ، يجب الاشتباك معه فى قتال قبل أن يعود الى شـــاطىء أفريقية ! »

وكان الامير يذرع القاعة رواحا وجيئة ، فوقف وقال له : « أحسب أن لا قدرة لنا على ذلك ، ان دوريا واقف بأسطوله عند « جربة » أو على مقربة منها •• ولن يستطاع الانتفاع بأسطوله هنا الا بعد أسبوعين على أقل تقدير ولاشك أن ياقوت قد حسب حساب ذلك ! »

ثم نظر الى بروسبيرو بعينين تكادان تبعثان بالشرر وقال : « هــذه عاقبة فعلتك ! »

فرد بروسبيرو فى هدوء : « انى الآن لا أفكر فيما فعلت ، ولكن فيما يمكننى أن أفعله ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فسأله الامير : « وماذا يمكنك أن تفعله في هذه الحالة ؟ » • ثم التفت الى القبطان الفرنسي وسأله : « ما هي قوة الاسطول الذى شاهدته على مسافة من سردينيا ؟ »

فأجاب هذا قائلا : « انه مؤلف من سبع وعشرين سـفينة مختلفة الاشكال والاحجام ! »

ثم قال الامير لبروسبيرو : « هل سمعت ؟•• سبع وعشرون سفينة ، وليس لدينا سوى ثلاث عشرة من بينها السفن الثلاثة التى أمدنا بها قداسة البابا ! »

فقال بروسبيرو : « مع هذا يمكننا مناوشـة ياقوت وانزال الضرر بسفنه بحيث لا يستطيع مواصلة غاراته•• ألا يكون هذا شيئا مفيدا؟ »

وعندئذ نظر الامير الى دون ألفارو وقال له : « أترضى أن تضـحى أسطول نابولى ؟ »

ــ ولم لا اذا اقتضت الضرورة ذلك ؟• اننا انما نضحى الجزء ابقاء على الكل ، وفى حالة اليأس يكون ذلك خطة استراتيجية مقبولة !

فقال الامير : « صدقت !•• ولكن اذا وافقت على هذه الخطة فمن الذى يقود هذا الاسطول فى هذه المغامرة الخطرة ؟ »

وعندئذ وقف بروسبيرو وقال للامير : « انى أرجو أن تعهد الى فى هذه القيادة فعسى هذا أن يزيل ارتيابك فى شخصى ! »

ــ انك شديد الثقة بنفسك يا سيد بروسبيرو !

ــ بل انى شديد الاحساس بما يجب على يا صاحب السمو !• لقد قلت منذ لحظة ان هـذا الموقف انما نشأ من تصرفى فى « جربة » • والنتيجة المنطقية هى أن أكفر عن ذنبى بقدر ما أستطيع !

فالتفت الامير الى دون الفارو ، وقال له : « ما رأيك فى هذا ؟•• انك أنت الآن صاحب القيادة الفعلية على أسطول نابولى »

ولكن دون ألفارو كان نبيـل النفس فقال : « لست كذلك ما دام بروسبيرو قد عاد •• ان نصف سفن الاسـطول ملكه الخاص •• وهو يجازف بها أيضا فى هذا الامر •• ولكنى يسعدنى أن أشترك معه فى هذه المحاولة اذا وافقت عليها •• فهناك مجد يكسب اذا نجحت هـذه المحاولة • وانى ليشرفنى أن أخدم تحت رياسة بروسبيرو ! »

فقال له بروسبيرو : « وأنا تشرفنى زمالتك ومشورتك ! »

فردد أمير أورانج بصره بينهما ، ثم قال : « هذه شجاعة تحمد لكما• ولكن يجب أن أفكر فى الامر ! »

فرد دون ألفارو قائلا : « ليس فى الوقت متسع يا صاحب السمو !• بل ان الحالة تتطلب العمل العاجل •• ان ياقوت قد يبدأ مهاجمتنا غدا ولهذا يجب أن تبحر السفن الليلة ! »

وأيده بروسبيرو فى ذلك ، ولم يسع الامير الا النزول على رأيهما •

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وعندئذ انصرفا من عنده ليتخذا الاهبة للرحيل !

وفي خلال ذلك اليوم كانت نابولى تموج بالحركة،حتى اذا حل المساء أبحر الاسطول متجها الى الشمال الغربى قاصدا مضيق بونيفاس !

وتركت جيانا فى عهدة أمير أورانج وأختـــه الكونتس دى ناساو ـ شالون ، وقد أكرما مثواها أيما اكرام،وأقامت بقلعة انجفين معالكونتس فى الجناح الذى كان فى وقت ما مخصصا للمركيز دل فاستو

وهناك وافاها بروسبيرو لينبئها بالرحلة الجريئة التى سيقوم بها ، وذكر لها ما دار بينه وبين أمير أورانج

واذا كانت مخاوفها من هذه الناحية قد زالت ، فان تلك الحملةالجريئة التي هو مقبل عليها قد ملأتها رعبا ، فقالت له : « انك مقدم على أخطار هائلة يا بروسبيرو ! »

ـ ليس هــذا بالامر الجديد على !٠ ولكننى أعرف كيف أشق طريقى وسط الخطر !

ـ كلا لم يكن الخطر فيما مضى مثل ما ستواجهه الآن ، فقد علمت أن أسطول ياقوت قوى ٠ ولكن فى موقفك هذا لم يكن لك مندوحة عن القبول !

ثم تغلبت عليها عاطفتها فبكت وقالت : « أنظر الى أين قادتك رغبتك فى الأخذ بالثأر من الاميرال اندريا !٠ لقد ابتغيت ضياعه ، ولكن ذلك عاد عليك بالوبال ! »

فرد عليها كما رد على أمير أورانج من قبل قائلا : « اذا كان الاميرال قد ضاع فقد كان ذلك نتيجة لظروف لم يكن لى يد فيها !٠ وأقسم لك انى لم أقصده بسوء ! »

ـ ولكن أيمكنك اصلاح ما فسد يا بروسبيرو من غير أن يكون فى ذلك اضرار بنفسك ؟

ـ انى لن أتردد فى ذلك اذا استطعت ٠ ولن أحجم عن مصالحته اذا كان فيها ما يسرك !

فقالت بلهجة أسى : « لقد فات الأوان يا عزيزى !٠ ان كل ما تقدر أن تفعله هو ما أنت مقدم عليه الآن ٠٠ واذا قدر لى أن أفقدك فانى لن آسف على هذه الخطوة التى تخطوها ، لانها الفرصة الوحيدة لاسترداد ما فقدت من المكانة ! »

فابتسم وقال لها : « ليس هذا هو كل ما أقصده !٠ وانما أريدكأنت يا جيانا »

ـ أتظن انى أبالى رأى الناس فيك يا بروسبيرو ؟٠٠ أنت فى عينى دائما كما أنت ، ولا يرقى الى شرفك سوء !٠ ومهما يحدث فسأبقى لك وحدك ! »

فضمها الى صدره ، بينما الدمع يترقرق فى عينيها اذ خشيت أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يكون ذلك آخر لقاء بينها وبينه . ثم قالت له :

ــ لن أقدر أبدا أن أفخر بك أكثر من فخرى بك الآن !. وسأظل أدعو الله لك آناء الليل وأطراف النهار حتى تعود سالما !

فقال لها : « سيكون ذلك أقوى درع لى !. والآن ثقى بالحظ كما أثق أنا بدعائك ! »

وقبل أن يبحر بروسبيرو بأسطول نابولى ضم اليه السفينة الاسبانية « ايما كولادو » وهى مربعة الشكل ، أشبه بقلعة متحركة ، وكان دون ألفارو ذا خبرة بقيادة هذا النوع من السفن. كذلك ضمت الى الاسطول السفينة « الاسود » التى أهداها ياقوت الى بروسبيرو ليعود بها ومن معه الى وطنهم .. ثم قسم بروسبيرو الأسرى الذين يجذفون فى سفن الاسطول فجعل الأسرى المسلمين فى بعض السفن والمسيحيين فى سفن أخرى . وكان بين الاخيرين كثيرون ممن حكمت عليهم محاكم التفتيش الاسبانية بالأسر ، ومنهم كذلك اسبانيون وايطاليون كانوا قد ارتكبوا جرائم فكان الأسر والكدح فى السفن جزاءهم

وعند الظهر وصل الاسطول الى مضيق بونيفاس ، وكان يسير بسرعة تتراوح بين ثلاثة فراسخ وأربعة فراسخ فى الساعة . واتفق أن صادفته سفينة فرنسية عند رأس « فيرو » ، فعلم بروسبيرو من قبطانها ان أسطول القرصان كان على بعد خمسين ميلا من جزيرة مينوركا منذ يومين . فأدرك بروسبيرو ودون ألفارو ــ وكانا وقتئذ يتناولان طعام الغداء معا ــ أن ياقوت متجه نحو جزائر البليار

وعندئذ صاح دون ألفارو قائلا : « سيقوم ياقوت بغارة عند باب اسبانيا ! ليكن الله فى عون دوق ملفى حين يصل نبأ هذه الغارة الى الامبراطور ! »

ورأى الاثنان أن الوقت قد فات لمنع تلك الغارة ، ولكن لا يزال فى الوقت متسع للانتقام ... وقبيل الغروب صادف الاسطول زورق صيد به أربعة أشخاص كان قاصدا من مينوركا الى اسبانيا . فعلم بروسبيرو ممن فيه ان ياقوت قد أغار منذ يومين على « بالمادى مالوركا » وان رجاله مكثوا فيها ستا وثلاثين ساعة ينهبون الدور والاسواق، ويحرقون السفن التى بالميناء ، ثم رحلوا بسفنهم ومعهم نحو ألف أسير من الشباب ذكورا واناثا ، واتجهوا نحو مينوركا ، بينما سبقهم اليها بعض أهالى بالما هاربين من وجه أسطول ياقوت !

وعقد بروسبيرو مجلسا حربيا حضره دون ألفارو وبعض الضباط ، لدراسة تلك المواقع على الخريطة . واقترح أحد الضباط أن يقصدوا الى شمالى جزيرة مينوركا ويرسو الاسطول فى خليج أنفوس دون أن يشعروا ياقوت ورجاله بقدومهم . وبعد ذلك يستكشفون المكان وينتظرون حتى ينزل رجال ياقوت الى البر ثم يهاجمون سفنه فجأة

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ويخربونها. وقد أيد دون الفارو هذه الخطة قائلا : « ان ياقوت حين يصل الى مينوركا يكون قد قلت عنده الذخيرة » ٠٠ ولكن بروسبيرو رفض هذه الفكرة اذ خشي أن ينقض ياقوت على بلدة ماهون ويفعل بها ما فعله ببالما ، بينما هم فى انتظاره بالجزيرة ، وقال بروسبيرو :

ـ ان الواجب يقتضينا أن نحول دون ذلك !

فقال له دون ألفارو : « ولكن هل نستطيع أن نمنعه ؟ »

ـ اننا نمتاز بأنه لا يتوقع قدومنا !٠٠ ثم ان ظلمة الليل سـوف تسترنا !

ـ ولكن لا شك أن ياقوت ستكون له عيون عند مداخل الجزيرة

ـ قد لا يروننا الا بعد أن ندخـل الخليج ويكون الوقت قد فات !٠ وتكون ذخيرته من البارود قد نقصت الى أقل حد ، من جراء الغارات التى قام بها ٠ ولذا يحسن بنا ألا نشتبك معه في قتال عن قرب !

وقال ضابط يدعى ألورى : « فى هذه الحالة يكون الاشتباك معه فى عرض البحر أصلح لنا ! »

فرد بروسبيرو قائلا : « صدقت !٠ولكنا عندئذ نفقد ميزة المباغتة !»

وقد إنتهى ذلك المجلس الحربى دون أن يبت برأى في الخطة المثلى ، اذ كان كل اقتراح عرض للبحث لا يخلو من مساوىء ، فأرجأ بروسبيرو اختيار اللحظة الاخيرة ٠ ثم أخذ طول ليلته يتصور ثغر ماهون ومدخله الضيق بين الصخور العالية ثم اتساعه فى الوسط ، ثم مهاجمة أسطول ياقوت فى مرساه وسط ذلك الميناء وجعل يتخيل فى ذهنه الطريقة التى يهاجم بها ذلك الاسطول ويغيرها مرة بعد أخرى،فلا يجد مفرا من تحطيم أسطوله هو ولكن بعد أن يدع أسطول ياقوت عاجزا عن العمل ٠ وقد اقتنع أخيرا بهذه الفكرة ورأى أنه لا مفر من هذه الهزيمة المجيدة وفيها خير تكفير عن فعلته فى « جربة » ٠٠!

وفيما هو كذلك اذا به يبصر أمامه شخصا في ركن من السـفينة منكفئا على دلو وحزمة من الحبال ٠ فصاح به قائلا : « من أنت ؟ »

فوقف الرجل مرتاعا ، وكان قصـير القامة نحيل الجسم ، وأجاب قائلا : « أنا ديوميدس اليونانى ! »

وعرف فيه بروسبيرو كبير المدفعيين ، وكان بارعا فى صنع السهام الصاروخية والقذائف ٠ فسأله : « ماذا تفعل هنا ؟ »

فقال ديوميدس : « انى أصنع عيدان ثقاب يا سيدى ! »

وأوحت هذه الكلمة الى بروسبيرو بفكرة جديدة ، فذهب بالرجل الى مؤخر السفينة ٠٠ وكان دون ألفارو هناك يهم بالعودة الى سـفينته « ايما كولادا » ٠ ولكن بروسبيرو أبقاه وقال لديوميدس :

ـ أيمكنك أن تصنع عيدان ثقاب بطيئة الاشتعال الى أقصى حد ؟

فحك الرجل رأسه وجعل يفكر ويحسب ثم قال : « أسـتطيع أن

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أصنع عود ثقاب طوله خمس ياردات ويشتعل بعد دقيقة ! »

فقال له بروسبيرو : « أو عود ثقاب طوله عشر ياردات يشتعل بعد دقيقتين ؟ »

ـ أو أطول من ذلك يا سيدى ، بالنسبة نفسها !

ـ أيمكنني أن أعتمد عليك ؟ · لا تنس أن حياتك مرهونة بذلك !

ففكر ديوميدس لحظة ثم قال : « أجل يا سيدى ! »

فسأله بروسبيرو : « كم من الوقت يستغرقه صنع مائة ياردة من عيدان الثقاب هذه ؟ »

فأخذ اليوناني يحسب في ذهنه ثم قال : « ثلاث ساعات ·· على أن يساعدني أحد ! »

فقال له : « خذ من المساعدين من شئت . اننا الآن فيمنتصف الليل ، وبعد خمس ساعات يطلع النهار ، ويمكنني أن أترك لك أربع ساعات لانجاز هذا العمل ، ولكن حذار أنتتأخر عن هذا الموعد لحظة واحدة ! »

ولما ذهب ديوميدس لمباشرة هذه المهمة ، سأل دونألفارو بروسبيرو: « ما معنى هذا ؟ »

فأجاب بروسبيرو قائلا : « معناه انى سأتولى قيادة سفينة مستديرة لاول مرة ·· أجل سأذهب أنا الى السفينة « ايماكولادا » ·· أما أنت فتعمل على سفينة القيادة « ألورى ·! »

□

ولما انبثق الفجر ، رأى الديدبان المرابط على رأس مولا الصخرى ، أسطول نابولى وقد بدا كأنه صف من الاشباح ، فسارع الديدبان الى اعطاء اشارة الخطر باطلاق بندقيته · وكان ياقوت على بعد ميل ونصف من تلك البقعة ، وقد شغلت سفنه بضرب ثغر ماهون ، وردت عليها المدافع المنصوبة بذلك الثغر ردا ضعيفا غير ذى أثر · ولما سكت قصف المدافع سمع ياقوت اشارة الخطر ورأى بعينى رأسه احدى السفن الاسبانية من بعيد واقفة وحدها ، وسرعان ما نفخ فى الابواق وتقدمت اثنتا عشرة سفينة من سفنه تحت قيادة « سنان » بأسرع ما تستطيع ، وكان ياقوت قد أمر سنان بسرعة الاستيلاء على تلكالسفينة الاسبانية· ثم تبعها ياقوت ببقية سفنه على مهل · ومضت السفينة المرموقة فى طريقها ببطء رغم ذلك الخطر المحدق بها ، وانما أدلى غالبية نوتيتهاقارب النجاة من الجانب الآخر ونزلوا اليه دون أن يلحظ مطاردوها ذلك

ولما صارت سفن ياقوت على مقربة من السفينة « ايماكولادا » أمر بروسبيرو اليونانى ديوميدس باشعال عيدان الثقاب ثم غادروا السفينة واحدا بعد آخر بزورق النجاة ، وكان بها عشرون مدفعا فأخذت تطلق

www.ibtesama.com/vb Exclusive

قذائفها دون أن تحدث كبير أثر ، اذ كان المقصود بذلك ايهام ياقوت بأن بها جنودا • وعندئذ أحاطت بها سفنه • وسرعان ما اشتعل كل البارود الذي بها بفعل عيدان الثقاب الموقوتة فانفجرت السفينة وأصبحت شعلة من نار ، فكأن زلزالا حدث في البحر فطغت أمواجه وصارت كالجبال الشاهقة • واحترقت مع «ايماكولادا» سبع سفن من سفن ياقوت كانت تحيط بها احاطة السوار بالمعصم ، في حين اصطدمت سفينتان أخريان في المؤخرة فغرقتا ، واشتعلت النيران بسفينة ثالثة وشغلت الرابعة بأعمال الانقاذ !

وهكذا أصيب ثلث أسطول ياقوت !.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فان سفينة أخرى من سفنه كانت ماضية على شاطىء لامولا وكأنها تراقب المعركة ، واذا بالامواج التي هاجت من ذلك الانفجار ترفعها ثم تقذف بها الى البر حيث تحطمت

وكان الزورق قد انقلب ببروسبيرو وديوميدس فتشبثا ببعض ألواح الخشب ، وما زالا يغالبان الامواج حتى وصلا الى سفينة القيادة وهما في حال من الاعياء فاستقبله دون الفارو بمزيد من الاغتباط

أما بقية أسطول ياقوت فقد دخلت الخليج دون أن تدري بالكمين الذي ينتظرها • وما ان عرف الذين في السفينة الاولى بوجود الاسطول في وسط الخليج حتى أرادوا العودة من حيث أتوا • ولكن خمس سفن من أسطول نابولى تحت قيادة « ساردى » سدت عليها طريق الرجعة ، في حين أخذ المدفعيون وهم مختبئون بمدافعهم في الصخور يطلقون قذائفها على تلك السفن ، فلم تمض دقائق حتى تحطمت ثلاث منها • أما السفينة الرابعة فقد استدارت وهاجمت سفينة ساردى ولكنها لم تكن مستعدة للقتال ولم تطلق مدافعها في اللحظة المناسبة • وعندئذ هجم رجالها على سفينة ساردى وقد شهروا سيوفهم بأيديهم ، وحصدت البنادق الذين في الطليعة منهم ثم دار قتال بالسلاح الابيض حتى غلب المهاجمون على أمرهم !

وفي الوقت نفسه اضطرت السفينتان الاخريان الى التسليم ، وأخذ بعض رجال بروسبيرو يجردون جنودهما من أسلحتهم • وفرح الأسرى الذين فيهما بهذه الفرصة التي واتتهم ، فأخذوا يجذفون بكل جهدهم لكي يصلوا بهما الى الشاطىء !

وفي خلال ذلك كان ياقوت يقود ما بقي من سفنه . وقد شهد الكارثة التي حلت بجزء من قواته البحرية وحسب ان السفن السبع التي رآها تشتبك في القتال هي كل سفن العدو • فعزم أن يقاتلها بكل ما له من عزم وقوة • غير أنه لما خرج من الخليج ورأى أسطول العدو يفوق ما لديه عددا ، وأن سفن العدو أكبر حجما من سفنه ، أدرك أن القوتين غير متعادلتين • ثم اشتد به الغضب حين رأى السفينة « بروسبيرا » وعليها

www.ibtesama.com/vb Exclusive

شكل بجعة ذات رأسين وأدرك من هذه الشارة أن بروسبيرو هو الذى يقود هذه الحملة ! • وكان هو واقفا على ظهر السفينة « الرقيم » واذا بقذيفة وزنها ستة وثلاثون رطلا تصيبها وتنزل بها أشد الاضرار وتقضى على عدد من رجالها !

وعندئذ استل سيفه وبان على ملامحه العزم وأمر رجاله بأن يهجموا على أقرب سفينة للعدو • وانقض معهم على السفينة « كابرانيكا » •• ولكن كان بها حاجز وقف وراءه صف من الجنود ببنادقهم،وقد أطلقوها على المهاجمين فجندلوا عددا منهم • ولكن ياقوت لم يجزع ولم يرتد وصاح برجاله فاقتحموا ذلك الحاجز ثم دار القتال بالسلاح الابيض يدا بيد حتى وصل ياقوت ومن معه الى مؤخر السفينةوقطعوا المدافعين اربا وصرعوا كابارنيكا نفسه !

وكانت قذائف المدافع تنطلق حوله ، والدخان يكاد يعمى الابصار ، ولكن ياقوت كان يجول ويصول على ظهر تلك السفينة التى أصبح سيدها ، وأخذ يلوح بسيفه وهو يصيح صيحة النصر !

غير أنه نظر الى أمام فرأى سفينة من أكبر سفنه تغرق على بعد عشر ياردات منه •• بينما استولى الاعداء على السفينة « الرقيم » التى ترك بها عددا قليلا من رجاله • ثم جاء أحد ضباط بروسبيرو ومعه عدد كبير من الجنود ليحرروا السفينة كابرانيكا وأخذوا يطلقون النار على ياقوت وأتباعه وهم محتمون وراء حطام ما تكسر من تلك السفينة !

وكان صوت المدافع من الجانبين يختلط بصليل السيوف وصياح المقاتلين • وقد ترك ياقوت فكرة الاستيلاء على سفن الاعداء بعد أن بان له ما كان يجهله من قوتهم ، وصار ورجاله يقاتلون ليخربوا أكثر ما يستطيعون من سفنهم • ولكن أتباعه كان الموت يحصدهم حوله ، وكاد يفقد السفينة التى استولى عليها اذ بدأ المهاجمون يتقدمون شبرا بعد آخر • وأوشك أن يفقد كل أمل فعزم على أن يستشهد فى القتال كما ينبغى له • واذا بالسفينة « جميل » قد جاءت تحمل اليه مددا من الجنود تحت امرة سنان ، وسمعه ياقوت وهو يصيح بهم•ولكنهم جاءوا بعد فوات الوقت ، فقد صار من المحال انقاذ رجال ياقوت،وحال ارتداد الجماعات التى بقيت منهم دون تقدم ذلك المدد•وقد مد الأسرى المسلمون مجاذيفهم ليساعدوا جنود سنان على صعود السفينة ، ورأى أحد الضباط الايطاليين ذلك فأمر جنوده باطلاق بنادقهم عليهم !

وأخيرا صاح سنان من سفينته يدعو ياقوت الى النجاة بنفسه والانتقال توا الى تلك السفينة ، فلم يجد هذا بدا من تلبيته لعله يستطيع أن يقود البقية الباقية من قواته • وعلى ذلك قفز الى سفينة سنان ، فى حين وقف الصف الاخير من أتباعه يصد الاعداء !

ووقف على ظهر السفينة « جميل » فرأى بقية سفنه وهى تحارب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

سفن بروسبيرو ولا يفصل بين الطائفتين سوى خمسين ياردة · وكانت أربع من سفنه مشتبكة فى المعركة التى بالجانب الغربى مع ثلاث من سفن الاعداء وقد استولت على احداها · أما المعركة التى بالجانب الشرقى فقد كانت خمس سفن تقاتل ست سفن امبراطورية دون أن ترجح كفة القتال لصالح أحد الطرفين !

ووقف ياقوت يشهد المعركتين على بعد مائة ياردة تقريبا ، وما لبث حتى رأى ثلاثا من سفنه تغرق فى اليم ، بينما فقد الاعداء سفينة واحدة · وكان سطح الماء مغطى تقريبا بحطام السفن وآثار التحطيم !

وكانت السفينة « بروسبيرا » واقفة على بعد ثمانين ياردة تقريبا من كلتا البقعتين اللتين تدور فيهما المعركتان ، وعلى ظهرها بروسبيرو يراقب القتال ويتأهب لخوض غماره بسفينته عند الحاجة · وما لبثت احدى سفنه المشتبكة فى المعركة التى بالجانب الغربى أن رفعت العلم الاحمر اشارة الى طلب المعونة · وهمت السفينة بروسبيرا بالذهاب اليها · ولكن « فولبى » كان أسبق اليها بسفينته وسفينة «كابرانيكا»، تاركا السفينة « الرقيم » التى استولى عليها ، فى عهدة أسرى من الفرنجة !

وهكذا تغير الوضع فصارت أربع سفن لياقوت تحارب ست سفن لبروسبيرو ، واتخذت الاولى موقف الدفاع بعد الهجوم !

وأراد ياقوت أن ينقض بسفينة سنان ليساعد سفنه تلك ، ولكن سنان أشار الى المعركة التى بالجانب الشرقى ونصح بنجدة السفن المشتبكة فيها ، حتى اذا ضمنا لها الانتصار عادا فأنجدا السفن الاخرى ·

وكاد ياقوت يعمل بهذه النصيحة واذا به يرى ثلاث سفن تركية كان قد حسبها ضائعة ، تخرج من عند رأس مولا ، وهى تسرع نحو زميلاتها · ففرح بذلك وحمد الله وقال لسنان :

ـ لقد صارت سفننا أكثر عددا من سفن الاعداء !

غير أن سنان بين له ان هذه السفن الثلاث قد أسرها العدو فهى الآن فى قبضته وقد جاءت لنجدة السفن الاخرى ، وعلى مجاذيفها ملاحوها الاولون بعد أن أصبحوا أسرى فى أيدى العدو !

وعندئذ فقد ياقوت الأمل ، ولكنه لم يفقد شجاعته ، كما لم يفقدها قط من قبل · وجرد سيفه وأراد أن يهجم على الاعداء ليستشهد وسط القتال . ولكن سنان الحصيف قال له : « أتريد تحطيم نفسك دون جدوى ؟ »

فرد عليه ياقوت : « لا بأس هيا بنا ··· سود الله وجهك ! »

وتحركت مجاذيف السفينة « جميل » واستدارت نحو الجنوب · ولما رأت ذلك البقية الباقية من أتباع ياقوت الذين كانوا لا يزالون يقاتلون، لم يجدوا مفرا من التسليم !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وفق خطة الأميرال

وحوالى ظهر ذلك اليوم استطاع بروسبيرو أن يحصى نتـــائج تلك المعركة : لقد دخلها بأربع عشرة سفينة وخرج منها بست وعشرين · وقد فقد سفينة واحدة في حين استولى على ثلاث عشرة·وقد حرر مئات الأسرى واستولى على الغنائم التى أخذت من بالما !

وكان أهل جزيرة مينوركا قد شهدوا القتـــال من أعلى الصخور ، فهرعوا الى رصيف ميناء ماهون يرحبون بمنقذيهم·وأقام الحاكم الاسبانى مأدبة لبروسبيرو وضباطه ، بينما احتفل الاهـــالى بالجنود وقدموا لهم الطعام والشراب والهدايا ·· واحتفلت الكنائس بهذا النصر فدقت فيها الاجراس ورتلت الاناشيد

وبقى أسطول نابولى ثلاثة أيام فى ثغر ماهون ينعم بتلك الضيافة والكرم ثم رفع مراسيه

وفى اليوم نفسه غادرت مينوركا سفينة تحمل خطابين من الحـــاكم والاسقف الى الامبراطور فى برشـــلونة ، وقد وصفا له فى خطابيهما النصر الذى أحرزه أسطول نابولى تحت قيادة بروسبيرو،وذلك بأسلوب يزيد ذلك النصر عظمة !

وقد حث دون ألفارو صديقه بروسبيرو على التوجه توا الى برشلونة لمقابلة الامبراطور ، ولكن بروسبيرو قال له : « هناك سيدة تنتظرنى فى نابولى ·· ولست بحاجة لان أقدم تقريرى عن المعركة بنفسى ، ويمكننى أن أرسله » · ثم جلس وكتب الى الامبراطور يقول :

« لقد نجح القرصان الريس ياقوت فى الفرار من الفخ الذى حصره فيه الاميرال دوق ملفى منذ شهر تقريبا ، غير أنه لم ينجح فى الخلاص من الشبكة الواسعة التى نصبها له الاميرال منـــذ شرع فى حملته من جنوا ·· وبينما أخذ الاميرال يراقب الجانب الشرقى من البحر الابيض المتوسط كان على أن أراقب الجانب الغربى منه بأســـطول نابولى الذى أعيدت الى قيادته أخيرا · وكان من حسن حظى أن ألتقى بأســـطول القرصان فى ثغر ماهون وأن أحطمه تماما ، طبقا للخطة التى وضـعها الاميرال ! »

وأطلع بروسبيرو صديقه دون ألفارو على هـــذا الخطاب كيلا يكتب

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ما يناقضه · فدهش هذا أيما دهشة وقال له : « ان هذا كذب !·ما شأن دوريا بذلك كله ؟ »

فرد بروسبيرو قائلا : « ألم يكن غرض دوريا من حملته أن يقضي على أسطول ياقوت ؟· وهل ليس صحيحا انه يحرس الجانب الشرقى من البحر ، وان سفن نابولى هى جزء من أسطوله ؟ »

ـ ولكن لماذا تحرم نفسك فخر هذا النصر الذى تستحق من أجله أرفع الأوسمة ؟

ـ لكى أسدد دين شرف على !

ـ ان الذى أعرفه أن الدين القائم بينك وبين دوريا هو من نوع آخر!

ـ انك لا تعرف الظروف كلها !··والآن أرجو أن تقرنى على ماكتبت ولا تذكر شيئا ينقص من قيمة دوريا عند الامبراطور !

ـ كما تشاء يا صديقى !· ولكنى كذلك لن أغمطك حقك !

وقبل أسبوعين من ذلك كان الامبراطور قد جاء الى برشلونة وفى نيته أن يسافر الى ايطاليا ليهنىء دوريا على أسره ياقوت وأسطوله فى جربة ··· وكان ذلك بناء على التقرير الذى أرسله دوريا اليه قبل أوانه ··· ولكن فى اليوم الذى حدده الامبراطور لسفره جاءت أنباء الغارات التى شنها ياقوت على الجزر والموانىء وما استولى عليه من أسرى وغنائم · فاستشاط الامبراطور غضبا وفقد ثقته بدوريا·وكان المركيز دل فاستو فى حاشيته وكان لا يزال حزينا على صديقه بروسبيرو أدورنو ويحسبه لقى مصرعه ·· فذكر للامبراطور ما كان من مسلك دوريا نحو بروسبيرو فى شرشل ، وتحدث صراحة عن حقيقة معركة « غلطة » والفخر الذى حازه إندريا من تلك المعركة مع أنه كان من حق بروسبيرو · وزاد فى غضب الامبراطور على دوريا ما ورد من أنباء غارة ياقوت على ماجوركا التى تعد باب اسبانيا !··

وقد لام الامبراطور نفسه إذ كان هو الذى اختار الاميرال اندريا دوريا لمنصب القائد الأعلى لقواته البحرية فى البحر الابيض المتوسط ، ولم يبال وقتئذ اعتراض الكثير من القواد الاسبانيين !

وهكذا عدل الامبراطور عن رحلته الى ايطاليا ، ولم يلبث قليلا حتى تسلم خطاب بروسبيرو السالف الذكر ، ومعه خطاب حاكم مينوركا ·· ولا شك أن بروسبيرو كان له دخل فى صياغته فقد ورد فيه ما يأتى :

« ان هذا النصر الباهر هو من عمل سفن نابولى تحت قيادة السيد بروسبيرو أدورنو ، الذى هو أقدر ضباط القائد الأعلى للقوات البحرية من قبل جلالتكم · ونحن أهالى هذه الجزيرة نثنى لدى جلالتكم على دوق ملفى وعلى السيد بروسبيرو الشجاع ، اذ لهما الفضل فى انقاذ مينوركا واصلاح كثير من الضرر الذى أصاب ماجوركا »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

وقد أعاد هذان الخطابان ثقة الامبراطور بالاميرال ، وثقته بنفسه من حيث حسن اختيار قواده

وفى اليوم الذى جرت فيه معركة رأس مولا ، أرسل أمير أورانج ونائب الملك فى نابولى ، رسولا الى الاميرالدوريا عند خليج جربة يسأله عما يبقيه هناك ، وقد عجب الاميرال من هذا السؤال وقال للرسول : « ألم تصل الى الامير رسالتى التى طلبت فيها مددا من الجنود والذخيرة؟»

فقال له الضابط الرسول : « لقد وصلت يا سيدى منذ ثلاثة أسابيع حين كان ياقوت وأسطوله محبوسين فى هذا الخليج ، ولكنه الآن ليس موجودا فيه ! »

وهنا قال فيلبينو للرسول ساخرا : « ماذا تقول ؟ . أيمكنك أن تخبرنا أين أسطول ياقوت ؟ »

فأجاب الرسول بلهجة الجد : « لا أدرى أين هو الآن، ولكنه بالتأكيد ليس فى خليج جربة ! »

فقال الاميرال : « ليس فى خليج جربة ؟! لا شك أنك جننت ! »

وضحك جيانتنيو وقال مشيرا الى داخل الخليج : «ان أسطول ياقوت محبوس هنا ... فى المصيدة ! »

وقال فلبينو : «أأنت حقا مبعوث نائب الملك أم أنت مبعوث زائف ؟»

فرد الضابط قائلا : « معى وثائق تدل على شخصيتى ... والواقع أن ياقوت قد غادر جربة منذ عشرة أيام ! »

وعندئذ زاد ارتياب الاميرال فى هذا الضابط وطلب منه الاوراق التى تثبت شخصيته فأعطاه إياها .. ولما استوثق منها شعر بساقيه تخذلانه فجلس على مقعد . وعرض جيانتينو عليه أن يذهب الى جربة ويتحقق مما قاله الرسول من خروج أسطول ياقوت . وذهب جيانتينو الى جربة حيث تحقق ألا أثر لأية سفينة فى ذلك الخليج ... ثم علم من شيخ جربة أن ياقوت حفر قناة خرج منها الاسطول الى عرض البحر وان ذلك كان بارشاد شاب من الافرنج وتحت اشرافه ، ثم أراه تلك القناة . فأدرك جيانتينو ان ذلك الشاب هو بروسبيرو ولا ريب وعاد ينبىء عمه الاميرال بذلك ويقول له : « اننا نستحق ذلك منه . ولو انى تركت وشأنى معه لما حدث ذلك ! »

ثم سأله الاميرال : « كيف لم يصل الينا أى نبأ عن ذلك طول هذه المدة ؟ »

فقال جيانتينو : « لقد ذكر لى شيخ جربة ان ذلك الشاب الافرنجى حرق أو أغرق كل زورق قبل أن يخرج أسطول ياقوت من جربة ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

انتصار الحب

عاد بروسبيرو بسفنه عن طريق خليج ليون ، ولما وصل الى مرسيليا أرسل الى جيانا يدعوها الى ملاقاته في جنوا وقال لها في خطابه الذي بعث به بالبريد البحري :

« ما دمت يا حبيبتي جيانا لا أنوي أن نبقي في المنفى الى الابد ، فاني أرى أن الظرف الحاضر هو أحسن الظروف الموائمة لعودتنا ٠ واني لأذكر حسن استقبال مواطني اياي بعد معركة بروسيدا ، وكيف أن أعدائي وقتئذ اضطروا الى أن يعيدوا خناجرهم الى أغمـــادها بعد اذ كانوا قد شحذوها لي ٠ وأعتقد الآن اني سألقي مثل ذلك الترحيب من الاهالي حين أدخل الميناء ومعي أربع عشرة سفينة أسرتها من أسطول القرصان وثلاثة آلاف أسير ، فضلا عن الأسرى الذين حررتهم ومن بينهم ألف على الاقل من أهالي جنوا ٠٠ ومعي فوق كل شيء فخر تحطيم الاسطول الذي كان يهدد شواطئنا وثغورنا ٠ وأحسب أن ألد أعدائي سيخشى عندئذ قوة الرأي العام التي ستكون في صفي ٠ فأرجو يا جيانا أن تسرعي للقائي لكي نجمع شملنا أخيرا وأضع هـــذا النصر الذي أحرزته تحت قدميك . وسيمدك سمو أميراورانج بحرس في سفرك وبكل ماتحتاجين اليه ! »

وفي الوقت نفسه أرسل الى نائب الملك تقريرا عن المعركة التي جرت ، وقد صاغه بأسلوب متواضع ٠ ولكن دون ألفارو دي كارباجال كتب الى ذلك الامير في الوقت نفسه خطابا يبين فيه تفصيل تلك المعركة ، وفضل بروسبيرو في نتيجتها الحاسمة !

ونزل خطاب بروسبيرو الى جيانا بردا وسلاما على قلبها ، وأيقنت أنه بانتصاره في حربه قد محا كل أثر لتصرفه في جربة ٠ غير أنها من جهة أخرى أدركت أن هذا الانتصار سيزيد أعداءه حقدا عليه ، وأنهم سوف يتربصون به الدوائر ٠ وعلى ذلك سافرت توا الى جنوا لتكون بجانبه اذا كانت ثمة صعاب تواجهه

وقد دلت الحوادث على أنه أحسن اختيار الظروف للعودة الى وطنه ، اذ كان قد وصل الى جنوا نبأ معركة «لامولا» وتحطيم أسطول ياقوت . بل قيل ان سيف الاسلام قتل في تلك المعركة وكان بروسبيرو نفسه

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يعتقد ذلك . وقد ذاع اسم بروسبيرو فى كل ثغر على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ، اذ أصبح الأهلون آمنين على أنفسهم خطر الغارات المفاجئة !

ولما علم أهالى جنوا بقدوم بروسبيرو اليهم ، أعدوا له استقبالا هائلا، ونصبوا له قوس نصر عند « باب البقرة » على الميناء . ولما نزل من سفينته حيته الطبول والابواق، وكان طريق الميناء الذى يمر به مفروشا بالازهار وغصون الشجر . ووقف رئيس الجمهورية على الرصيف مع أعضاء مجلس الشيوخ لابسين معاطفهم القرمزية ومعهم ممثلو الأسر الكبيرة فى الجمهورية . وقد أناب هؤلاء عنهم فتاة صغيرة من بيت جريمانى فألقت قصيدة ترحيب ، وقد استمع اليها القائد الشاعر ، برغم ما بها من شعر ضعيف !.

وكان طول الوقت يضحك فى سره اذ قارن بين هذا الاستقبال الذى أعد له عند عودته الى جنوا ، وبين فراره منها منذ شهرين اثنين ... فاذ ذاك كان كل انسان ضده ، لا آل دوريا وحدهم بل أقاربه من بيت أدورنو كذلك ... أما الآن فان كل يد مبسوطة للترحيب به !..

وفى الوقت نفسه ، كان الاميرال اندريا دوريا ، أو دوق ملفى ، قد وصل بأسطوله الى نابولى .. فلم تكن فى استقباله أبواق ولا طبول ولا أزهار ... ولا رؤساء أسر ولا جمهور ... وانما استقبله نائب الملك ، أمير أورانج ، فى غرفة الاستقبال بقلعة نوفو ، ولم يتنازل الى انتظاره على لسان البحر حيث رسا الاسطول !

ومضى الاميرال وابنا أخويه جيانتينو وفلبينو ، مقطبين جباههم لعدم اتباع المراسم الواجبة فى استقبال القائد الأعلى للقوات البحرية ... وكانوا قد أفاقوا من الصدمة التى أصابتهم حين علموا بنجاة أسطول ياقوت من خليج جربة ، وحسبوا أنه ما زال فى الامكان اصلاح ذلك الخطأ ، فما دام ياقوت يجوب البحر بنفسه فقد يمكن صيده فى المستقبل!

وقال فيلبينو الداهية لعمه الاميرال قبل وصولهم الى نابولى : « ما علينا الا أن نعلن ما كان من خيانة بروسبيرو وارشاده ياقوت الى طريق الخلاص ، وعندئذ ينتهى أمره وأمر بيت أدورنو الى الابد . ولا ريب أن بروسبيرو ستقع على عاتقه تبعة الغارات التى شنها ياقوت بعد فراره من خليج جربة ، فيكون جزاؤه الشنق لا محالة »

فلم يقابل الاميرال هذا الرأى بحماسة بل قال لابن أخيه : « لقد لحظت أن كل عمل تأتيه ضد هذا الوغد ، لا يلبث حتى ينقلب وبالا علينا ! »

فرد جيانتينو قائلا : « لن يكون العمل من جانبنا هذه المرة ، بل سيكون عمل الامبراطور .. ان العدالة ستقتص أخيرا من هذا المجرم ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فمسح الدوق جبينه بيده ثم قال : « قد يكون ذلك .. ولكنى أخشى أن يكون باعث ألم الجيانا »

فقال فيلبينو : « يجب أن تحصد ثمرة خيانتها »

وقال جيانتينو : « لعلك تريد انقاذ بروسبيرو بأخذ الملامة على نفسك عن كل ما حدث فى جربة ؟ »

فرد الاميرال بصوت كزئير الأسد : « حين أغرق أسطول ياقوت لن يكون ثمة داع الى السخرية بنا ! »

وكان الاميرال قد اطمأن الى هذا الأمل ، وبه جاء الى نابولى ، فلما بلغها عائدا بأسطوله من جربة ، قاده ضابط الى حضرة نائب الملك ، ومشى وراءه جيانتينو وفيلبينو .. وكان الامير جالسا الى منضدة ، فوضع القلم وقام لتحية الاميرال ولكنه لم يغادر موضعه ، ولم يمد يد الترحاب ، وكان مسلكه نحوه فاترا ، بل قال له : « لقد جئت أخيرا !.. لقد قضيت فترة طويلة من الوقت فى الطريق ! »

فساءت الاميرال هذه اللهجة ورد قائلا : « من اليسير على رجال البر الذين لا يعرفون شيئا عن البحر وأخطاره ، أن ينتقدوا رجلا من رجال البحار ... لقد كانت الريح ضدنا فاضطررنا الى الاعتماد على المجاذيف وحدها . ومع ذلك قد أسرعنا قدر امكاننا ! »

فرد الامير بجفاء : « لقد أسرعتم .. كما أرى ! »

وساءه عدم مراعاة الاميرال فى رده لمقامه ، فجلس دون أن يدعوه الى الجلوس ، ثم قال له : «كيف تفسر الحوادث التى وقعت فى جربة ؟ »

ــ لقد كانت نتيجة الخيانة !.. فقد خدعتنا حيلة خائن لم يتورع عن أن يدل ياقوت على طريق الافلات من الفخ الذى حبسته فيه !.. لقد ساعد بروسبيرو أدورنو أعداءنا،وسوف يسأل أمام العدالة عن الاضرار التى حدثت بعد ذلك للجزر والثغور !

وســـواء أكان الامير متأثرا بمسلك الدوق نحوه ، أم بصداقتـــه لبروســـبيرو وعلمه بما حـــدث فى جربة ، فانه سأل الاميرال قائلا : « ما برهانك على ذلك ؟ »

فحملق الاميرال دهشة وقال : « برهانى ؟!.. تكفى كلمتى ! »

ــ كلمتك ؟ .. انها فى نظرى ليست سوى وجهة نظر لا أكثر..هل كنت فى بلدة جربة نفسها حتى يمكنك أن تقسم على أن بروســـبيرو أدورنو كانت له يد فى الخطة التى أدت الى هزيمتك ؟.. لقد كان مع ياقوت بوصفه أسيرا له .. وهذا كل ما يمكنك أن تؤكده !

وهنا انفجر جيانتينو قائلا : « لقد كنت أنا فى جربة .. وقد أكد لى شيخ هذه البلدة أن بروسبيرو أدورنو هو الذى دل ياقوت على طريقة للخروج من الخليج ! »

فابتسم أمير أورانج وقال : « شيخ جربة ؟..وهل يصلح شخص من

www.ibtesama.com/vb Exclusive

الاعداء شاهداً أمام محكمة ضد ضابط معروف بمقدرته ؟! »

فقال فيلبينو بشدة : « بل ضد خائن معروف بخيانته !.. واذا أردت شهودا من الايطاليين فهناك الأسرى الذين كانوا يعملون تحت اشراف ذلك الخائن ! »

فقال نائب الملك متعجبا : « أين نجدهم ؟ »

فرد جيانتينو قائلا : « أترتاب فى أقوالنا يا صاحب السمو ؟.. أم أنك تدافع عن ذلك الرجل ؟ »

ــ أنى أنصح لكم بأن تسيروا بحذر !.. فانكم لن تحسنوا موقفكم بالقاء اللوم على عاتق بروسبيرو أدورنو . وسواء أكان هو الذى خدعكم أم ياقوت ، فقد خدعتم على أى حال ... وهذا هو المهم !

ولم يقدر الاميرال أن يصبر على هذا القول ، فرفع رأسه وقال : « سأقدم تقريرى الى جلالة الامبراطور »

ــ طبعا ستقدم تقريرك الى جلالته ، ولكنى أنصح لك مرة أخرى بأن تكون حذرا فيما تكتبه !

فرد الاميرال بجفاء : « أشكر لسموكم هذه النصيحة ! »

فقال له الامير : « هذا كل ما فى الأمر على ما أعتقد ، ولست أجد سببا لبقائك فى نابولى ... اللهم الا اذا كانت هذه رغبتك ! »

فقال الاميرال : « ليس لدى متسع من الوقت أضيعه هنا . وكل ما أريده هو معاودة البحث عن ياقوت وأسطوله ! »

وأراد أمير أورانج أن يضرب الضربة القاضية فقال له : « اذن أطلعك على آخر أنباء ياقوت .. لقد هاجم جزر البليار التى هى على عتبة باب الامبراطور . ووصل نبأ غاراته الى جلالته فى الوقت الذى وصل اليه تقريرك بأنك حبسته مع أسطوله فى خليج جربة وأن تحطيم ذلك الاسطول بات قاب قوسين أو أدنى . فتصور يا سيدى الدوق شعور الامبراطور عند ذلك ! »

فهز الاميرال قبضته متوعدا وقال : « سوف أنتقم من ياقوت وأحطم أسطوله حيث يكون ! »

ثم أردف قائلا : « ألم يصل نبأ عن مكانه الآن ؟ »

فابتسم الامير وقال : « مكانه الآن فى قاع البحر !. فقد قضى بروسبيرو أدورنو عليه وعلى أسطوله عند ثغر ماهون ! »

وهنا ذهل الاميرال وابنا أخويه ، وسكتوا وكأن على رؤوسهم الطير.. ثم قال الاميرال : « اذا كان هذا صحيحا ... » . ثم سكت ولم يتم عبارته ، بينما استطرد نائب الملك قائلا : « انه صحيح لا شك فيه ! »

ثم ذكر للاميرال ورفيقيه تفاصيل المعركة..ولكن الاميرال كان لا يكاد يستمع اليه اذ كانت حواسه قد أصابها ما يشبه الشلل !. وقد أدرك

www.ibtesama.com/vb Exclusive

أن أمله الاخير قد ضاع،ولم تبق هناك فرصة للبحث عن أسطول ياقوت ومحاولة القضاء عليه لاسترداد المكانة التى فقدها

وقام من مقعده ولم يجد ما يقوله !٠٠ فقال له الامير : « أرجو لكم سفرا سعيدا ! »

عاد الاميرال الى سفينة القيادة مع ابنى أخويه ، وهو يسائل نفسه عما ينبغى له عمله ٠ وقد سأل ابنى أخويه جيانتينيو وفيلبينو ، فلم يحيرا جوابا ولكنهما عادا الى ابداء حقدهما على بروسبيرو اذ كان الأصل فيما حدث أولا وأخيرا ، وهو وحده الذى ضـيع مكانة الاميرال وجعله موضع السخرية

وأخيرا وصلوا الى جنوا ، غير أنهم نزلوا عند قلعة ليريسى ، ومن ثم ركبوا الجياد الى المدينة ٠ وقد فزعت دوقة ملفى من عودة قرينها هكذا فجأة ، ومن غير أن يستقبل الاســتقبال اللائق بمكانته ٠ فقالت له بعطف : « لقد أجهدتك الرحلة ! »

فجلس على كرسى مطأطىء الرأس وقال لها : « انى متعب حقا ! »

فأمسكت يديه بين يديها فى عطف وقالت له : « من أين جئت الآن يا اندريا ؟ »

ــ من ليريسى ٠٠٠ وقد تركت سفنى هناك !

ــ لا شك أنك أسرعت الى هنا لكى ترانى !

فابتسم ابتسامة حزينة وقال : « يا ليت الأمر كان كذلك !٠٠ إنما جئت مجللا بالعار ، وتفاديت الناس فى جنوا فرارا من سخريتهم ! »

ــ سخريتهم ؟!٠٠ كيف ذلك ؟ ان الذى أعلمه أن المركيز دل فاستو هو الآن فى جنوا ينتظر عودتك ! »

ــ آه ! هكذا بسرعة ؟!

فقالت له : « انهم يقولون ان الامبراطور لا يتأخر عن منـح دلائل التكريم لمن يستحقها ! »

ــ أجل لمن يستحقها ٠٠٠ وأين دل فاستو الآن ؟

ــ انه فى قصر أدورنو حيث يقيم مع صديقه بروسبيرو !

فابتسم الاميرال ابتسامة مغتصبة وقال : « طبعا !٠٠ هــذا هو المنتظر !٠٠ وأين جيانا ؟ »

ــ انها قد حضرت الى هنا وهى معى فى القصر !٠٠ لعلك سـمعت بتصاريف القدر العجيبة اذ أبحرت مع بروسبيرو وما حدث لهما بعد ذلك ٠ وبالطبع قد ثارت هنا شائعات وجرى حـديث الافك عنهما ، ولكن ذلك كله قد انقضى الآن ٠٠ ولم يؤخر عقد قرانهما سوى انتظار عودتك ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال الاميرال : « أجل لقدأصبح ذلك ضرورة لازمة حتىيسلم شرفها مما أصابه ! »

ـ ليس هذا جميلا منك يا اندريا !٠٠ انك لا تعرفالحقائق ولا تدرى كيف ان « لامبا » حاول اغتيال بروسبيرو !٠٠

ـ أجل !٠٠ كل ذلك لا يهم الآن !

واستطردت الدوقة قائلة : « ان الفضل لطفلتنا العزيزة فيما انتهى اليه الامر !٠٠يا ليتها عادت مبكرة لترىكيف استقبل بروسبيرو هنا!»

فقال الاميرال بلهجة صارمة : « اذن ٠٠ قد انتهى كل شيء الى نهاية سعيدة ؟ وصار هذا البروسبيرو ذا مكانة عالية واستقبل استقبال الابطال ؟ حسنا ! حسنا ٠٠! »

ثم قصت عليه كيف استقبل بروسبيرو بالتفصيل ٠ وجلس يستمع وقد غطى وجهه بكفيه ٠ وبعدئذ أمرت باعداد طعام العشاء ، وقامت هى على خدمته وهو يأكل ٠ وقد أكل قليلا وبطريقة آلية ولكنه شرب كثيرا من النبيذ اليونانى الذى كانت تصبه له فى كأسه ٠ وبعدئذ طلبت اليه أن يقص عليها ما حدث له وقالت : « لقد سمعت بالنصر العظيم الذى أحرزته فى مهدية ، وانككنت فى أثر ياقوت ولكنا لم نسمع عنك شيئا من أنبائك بعد ذلك ! »

وبقى ساكتا برهة ، ثم قال لها : « سأقول لك كل شيء غدا !٠٠ وسوف تسمعين كل شيء من الفونسو دى أفالوس مبعوث الامبراطور ٠ والآن ارسلى اليه لتنبئيه بأنى أنتظر تشريفه غدا »

وفى صباح اليوم التالى ، توجه رسول دوريا الى دل فاستو حيثكان يتناول طعام الفطور مع بروسبيرو فى حديقة قصر آل أدورنو ٠ وكان معهما دون الفارو دى كارباجال . وكانت مادونا اوريليا (والدة بروسبيرو) لحسن الحظ خارج جنوا اذ كانت فى بيت الأسرة الريفىفى « فردبراتى » حيث ذهبت فرارا من حر أغسطس

وكان دل فاستو قد وصل الى جنوا حاملا خطابات منالامبراطور قبل يوم أو يومين من قدوم بروسبيرو ، وكان يعرف نص الخطابات التى جاء بها فأخبر بروسبيرو بما تحتويه ٠ فلما سمع ذلك دون ألفارو قهقه ضاحكا ٠٠ فقال له المركيز : « لا أدرى ماذا يضحكك ؟ »

فرد دون ألفارو قائلا : « لا شك انك أدركت خافية الأمر ٠٠ ان الامبراطور قد تبين له خطأه فى اختيار دوريا قائدا عاما لقواته البحرية ٠٠٠ ولكنه كره أن يؤخذ عليه خطأ فى اختيار كبار قواده٠٠٠ وكان تواقا الى أن ينسب النصر فى معركة لامولا الى دوريا ، فان جلالته اذ

www.ibtesama.com/vb Exclusive

يستعيد ثقته به انما يستعيد ثقته بنفسه . ولكن أيصح أن يعمط حق بروسبيرو هكذا ؟

فقال المركيز : « ان بروسبيرو هو الذى كتب فى تقريره ان تلك المعركة جرت وفق الخطة التى وضعها دوريا ! »

فصاح دون ألفارو قائلا : « ألم أحضر أنا نفسى تلك المعركة ؟٠٠ ألا أدرى ما حدث تماما ؟٠٠ لقد حان الوقت لان يرى الامبراطور حقيقة قيمة هذا الاميرال الذى فضله على كثير من القواد الاسبانيين ! »

وهنا قال المركيز : « لقد جئت لمهمة أؤديها من قبل الامبراطور ، وليس لى أن أناقش فى هذه المهمة ، انها تشمل منحك أنت يا بروسبيرو وسام صليب سانت جيمس ، على أن يعلقه دوق ملفى بعنقك باسم الامبراطور !٠٠ ولكن نظرا الى ما حدث يمكنك أن ترفض أن يلبسك اياه ! »

فقال دون ألفارو : « هذا حق ! »

ولكن بروسبيرو تدخل قائلا : « لو أن هذا قصدى ما كتبت ذلك التقرير الى الامبراطور .. كيف أبيح لنفسى الآن أن أسىء الى الامبراطور بتحقير القائد الذى وضع فيه ثقته ؟٠٠ وما فائدتى من ذلك ؟٠٠ على أنه من الخطأ أن نظن أن دوريا سيقبل تكريما لنفسه على عمل لم تكن له فيه يد ٠٠ ولابد من اقناعه حتى يقبل ! »

ولكن دون ألفارو سخر من ذلك ولم يصدقه !٠٠

وكان رسول دوريا الى دل فاستو يستمع الى ذلك ٠ ولما انتهى دل فاستو من حديثه قال للرسول انه سيذهب الى قصر فاسولو بعد ساعة حيث هناك الاميرال دوريا ٠ وقال له بروسبيرو :

ــ انى أستأذنك فى أن أصحبك !

فقال له : « لست بحاجة الى اذن منى لذلك ! »

وقال دون ألفارو : « وددت لو ذهبت معكما ! » ٠ فدعاه بروسبيرو الى مصاحبتهما فى تلك الزيارة !

وقد استقبلهم دوق ملفى فى قاعة الاستقبال الكبرى ٠ وفوجىء بقدوم بروسبيرو اذ لم يكن يتوقع مجيئه ٠ وكان مع الاميرال ابنا أخويه جيانتينو وفلبينيو ٠ وقد وقف معتدل القامة مرفوع الرأس ٠ بينما مد جيانتينو يده متخاذلة الى بروسبيرو ، وزمجر فلبينيو بصوت كأنه صوت حيوان فلم يفهم أحد الكلمة التى نطق بها !٠٠

وانحنى المركيز للدوق وقال له : « انى أحييك يا دوق باسم الامبراطور ٠ وقد أحضرت لك هذه »

ثم سلمه ربطة مختومة بخاتم الامبراطور ٠٠ فتناولها الاميرال بطريقة آلية ولكنه لم ينظر اليها ولا الى المركيز، وانما كان يحملق فى بروسبيرو، وكان هذا واقفا الى جوار دون ألفارو والعملاق ٠ ثم قال للمركيز :

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ــ لم أكن أتوقع أن تجيء وبصحبتك أحد !

فقال له المركيز : « بعد أن تقرأ كتاب الامبراطور ستعرف السبب الذى جاء من أجله السيد بروسبيرو »

فلم يزد الاميرال على أن قال : « أهكذا الأمر ؟ » . ثم فض خاتم الربطة فسقط منها سيف صغير مطعم بالعقيق وقد ربط به شريط من حرير أحمر . وانحنى جيانتينو فالتقطه من الارض فى حين أخذ الاميرال يقرأ الخطاب ، وكان يتنفس بصوت مسموع فى خلال قراءته . حتى اذا انتهى منه قال للمركيز : « أعرفت ما جاء بهذا الخطاب ؟.. إن صاحب الجلالة يشرفنى بثقته .. ولكن أتصدق ما هو مكتوب ؟ »

فقال المركيز : « كيف لا أصدق كلام الامبراطور ؟! »

ــ ولكن هل جلالته يعتقد ذلك حقا ؟!

ثم أعطى الاميرال ذلك الخطاب الى جيانتينو ، فأخذ هذا يقرؤه مع فيلبينو .. ثم تقدم الاميرال خطوة نحو المركيز ، وكان معتدل القامة صارم الوجه وقال له : « لابد أن هناك التباسا ! »

وهنا تدخل بروسبيرو وقال للمركيز : «أرجو أن تسمح لى بأن أحدث الاميرال لحظة على انفراد »

فقال له دوريا : « تحدثنى أنا ؟ وماذا يمكنك أن تقوله ؟ »

ثم انتحى به بروسبيرو جانبا فقال له الاميرال : « ماذا تريد منى ؟. لعلك تنتهز هذه الفرصة لتسخر منى بعد أن أفسدت على كل شيء .. أهذا قصدك ؟.. لقد جلبت على الذل والعار . ألا يرضيك هذا ؟ »

ــ انك تذكر الذل والعار مع أن كتاب الامبراطور اليك ليس فيه الا التكريم والتشريف !

ــ لقد قلت ان هناك التباسا !

فقال بروسبيرو : « ان كثيرا من شئون الحياة يعتورها التباس ولكنها مع ذلك تسير فى طريقها .. ان كل ما حدث بيننا انما هو وليد التباس بعد التباس ! »

وكان فيلبينو على مقربة منهما فقال : « لم يكن هناك التباس فيما يتعلق بغدرك وخيانتك ! »

فرد عليه بروسبيرو قائلا : «وكذلك فيما يتعلق بحقدك المستمر!.. ولكنى الآن أحدث عمك ... ان هذا القتال الذى بيننا قد استمر أكثر مما يجب ! »

فقال الاميرال ساخرا : « انك تقول ذلك لانك تعتقد انك خرجت منه منتصرا ! »

ــ فليكن ذلك اذا شئت !..لقد أقسمت على نعش أبى يمين الانتقام.. وجدد فيلبينو قسمى هذا حين جعلنى أسيرا أكدح على مجذاف !. ولكن ذلك كله قد انتهى الآن !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال الامبرال : « والآن قد أوفيت بعهـــدك وانتقمت ، وصرت أنا أضحوكة العالم .. وقضيت على مجد كسبته لنفسى فى خـــلال ستين سنة . فلتهنأ بذلك يا سيد بروسبيرو ! ان هذه السخرية قد طالت أكثر مما يجب ! »

وهنا تقدم جيانتينو وهو يخلع قفازه فأشار اليه بروسبيرو منـــذرا وقال له : « أريد أن أقول لك كلمة قبل أن تخلع هذا القفاز .. لا تنس أن العالم يجهل كل ما حدث بيننا .. والدليل على ذلك هو هذا الكتاب من الامبراطور ... وجنوا الآن تنتظر بحماسة لتحتفى بالامبرال الذى هو موضع تشريف الامبراطور . ومن الذى يقدر أن يقول للعالم كله انى لم أكن أعمل وفق أوامرك حين انتصرت على ياقوت فى ثغر ماهون؟.. ربما لا يعلم ذلك سوى أمير أورانج ودون الفارو دى كارباجال . ولكن أيجرؤان أن يذكرا للامبراطور انك أخطأت اذا سكت أنا ؟! »

فقال الامبرال مندهشا : « اذا سكت ؟ »

وقال جيانتينو : « لكأنى بك تريد أن تساومنا ! »

وقال له فيلبينو : « أجل .. يخيل الى أن لديك ما تبيعنا اياه »

فرد بروسبيرو قائلا : « بل لدى شىء أعطيه !.. وقد أعطيته فعلا.. لا شك أنكم لم تقرأوا خطاب الامبراطور جيدا .. انه يذكر فيه انه علم من تقرير الكابتن بروسبيرو أدورنو أنه بنـــاء على الخطة التى وضـعها الامبرال اندريا دوريا قد أمكن تحطيم أسطول ياقوت الخ...أليس هذا ما كتبه الامبراطور ؟ واذا كان قد كتب ذلك فقد كان بناء على ما كتبته أنا فى تقريرى اليه عن تلك المعركة ! »

وهنا عاد الامبرال الى قراءة خطاب الامبراطور متمهلا فقرأ فيه مايلى :

« علمت من رسالة حاكم مينوركا ، وعلى الاخص من تقرير بعث به الكابتن بروسبيرو أدورنو الذى قاد سفن نابولى التابعة للأسطول الذى تحت قيادتكم ، انه بناء على الخطة التى وضعتموها قام الكابتن بروسبيرو ادورنو بنصيبه منها خير قيام ، فقد أمكن تدمير أسطول ياقوت .. الخ»

ولم يقرأ الامبرال أكثر من ذلك وقال غاضبا : « أتريد منى ان أحتمى وراء تقرير منك ؟ .. هل أنا أقبـــل منك رداء لأستر به جسدى العارى ؟.. وهل أنا الذى أقبل ثناء على عمـــل لم أعمله ؟. رباه ! .. كيف تجرؤ أن تقف أمامى فى هدوء وتعرض على ذلك ؟..ان لدى الجواب المناسب على هذا الخطاب . وقد كتبته الليلة الماضية.وليس ذلك الجواب سوى استقالتى من منصبى وقد بينت فيها ما حدث فى جربة دون أن أخفى شيئا ... وهذه الاستقالة هى ختام خدمة طويلة اكتنفها المجد ، ثم قضت عليها الخيانة التى مبعثها حب الانتقام ، اذ أنقذت ياقوت من المصـــيدة التى حبسته فيها ، لكى يغير بعد ذلك على الثغـــور والجزر الآمنة ! »

www.ibtesama.com/vb Exclusive

فقال له بروسبيرو في هدوء : « هل هذا ما تعتقده ؟٠٠ هل فعلت أنا ما فعلت في جربة مدفوعا بالرغبة في الانتقام منك ؟ »

– لم أكن أقصدك مطلقا بما فعلت ٠٠ هل نسيت أن جيانا كانت أسيرة معى في قبضة ياقوت ؟٠٠ لقد أتيحت لك فرصة انقاذها ولكنك أبيت !

– أتلومني على ذلك ؟٠٠ لقد أنقذتها أنت ٠٠ وبأى ثمن ؟٠٠ انالثمن هو غارات ياقوت على كورسيكا ثم ماجوركا ٠٠ كم من الأنفس راحت ضحية لانقاذ جيانا ؟٠٠ وكيف كنت أقبل انقاذها بهذا الثمن ؟!

– ان جيانا بالنسبة لك ليست كما هي بالنسبة لى !٠٠ بل انها في الواقع ليست من ذوى قرباك ٠ وما كان يمكننى أن أتوقع أن ياقوت سيقوم بتلك الغارات بعد رحيله عن « جربة » ٠٠ فقد قال لى انه ذاهب بأسطوله الى استانبول ليلحق بخير الدين بربروسا٠٠ولعله غير قصده بعد ذلك ٠٠ وما كان يمكنك أن تأسره حتى لو كنت قد استوليت على سفنه !

ثم ذكر له كيف أراد ياقوت أن يسير بأتباعه برا الى الجزائر ، الى أن قال له : « وعندئذ كنت أذهب معه ضمن الأسرى ، بينما ترسل جيانا الى استانبول لتضم الى جوارى السلطان ٠٠ فهل كان يمكننى أن أصبر على ذلك ؟٠٠ تصور نفسك في مكانى٠٠هل كان واجبك نحوالامبراطور يحول دون انقاذ جيانا من ذلك المصير ؟ »

وسكت منتظرا الجواب ، فلما لم يجب الاميرال ولا ابنا أخويه ٠٠ استطرد قائلا :

– انى لم أفكر وقتئذ في الانتقام منك ، ولا في خيانة واجبى نحو الامبراطور ، وانما فكرت في شيء واحد هو انقاذ جيانا !٠٠ والآن لعلك توقن انى اذ أعرض عليك الصلح فانما أعرضه عليك في اخلاص لا تشوبه شائبة !٠٠ وفي هذه الحالة تحرق هذه الاستقالة وتستمر في خدمة الامبراطور !

وأخيرا رد عليه الاميرال قائلا : « أتظن انى أرضى أن أفيد من ذلك الالتباس الذى وقع فيه الامبراطور ؟ »

– اذا رفضت ثناء الامبراطور عليك فانما تحقره وتهينه ، وفي الوقت نفسه تحرمه خدمات أقدر قائد بحرى عنده ٠٠ لقد علمت أن خير الدين بربروسا يعد الآن للسلطان سليمان أسطولا ضخما ٠ ويمكنك أن تتصور الغرض منه ٠ وأوربا كلها لا تعرف غيرك ندا لخير الدين ٠ فهل تفر من الخدمة في هذا الظرف بدافع تقدير كاذب للكرامة ؟!

وأخيرا انضم جيانتينو وفيلبينو الى رأى بروسبيرو بعد اذ استشفا الاخلاص من كلامه ، وكان خطاب الامبراطور الى الاميرال شاهد صدق على اخلاصه !

www.ibtesama.com/vb Exclusive

ثم مد بروسبيرو يده الى الاميرال فصافحه هـــذا بعطف وحرارة ٠٠ وعادوا إلى حيث كان المركيز ينتظرهم فى قاعة الاســـتقبال فقال له الاميرال : « ان من دواعى الشرف لى أن أقلد هذا الضابط الشجاع باسم الامبراطور وسام صليب سانت جيمس !٠ ولكن ليس هنا بل يجب أن يكون ذلك فى حفل حاشد ! »

وكانت جيانا مع الدوقة تنتظران على أحر من الجمر عقد الصلح النهائى بين دوريا وأدورنو ٠٠ وما لبثتا قليلا حتى دخل عليهما الاميرال اندريا ومعه بروسبيرو ، يزفان اليهما البشرى ففرحتا فرحا شديدا ، ونهضت جيانا فعانقت حبيبها عناقا طويلا ثم زفت اليه بعد يومين من هذا الصلح، وعاشت الأسرتان فى سعادة وهناء ٠ وكان للحب الفضل فيما ســاد بينهما من سلام ووئام

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com/vb Exclusive



ونهضت جيانا فعانقت حبيبها عناقاً طويلاً ثم زفت اليه بعد يومين من الصلح النهائي

www.ibtesama.com/vb Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

الـــروايـــة القـادمة

أحدب نوتردام

تأليـــف

فيكتور هيجو

www.ibtesama.com/vb Exclusive

روايات الهلال

مجلة قصصية شهرية تصدرها دار الهلال

بدأت حياتها فى يناير سنة ١٩٤٩ باصدار الروايات الخالدة التى وضعها المرحوم جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ولقيت فى عهده انتشاراً كبيراً ...

ثم واصلت جهودها فى خدمة الأدب القصصى الرفيع بتقديم منتخبات من روائع القصص العالمى ...

فهل تنقص مجموعتك احدى هذه الروايات ...؟

روايات تاريخ الاسلام لجرجى زيدان

شجرة الدر
قصة مبايعة اول ملكة فى الاسلام بمصر

ارمانوسة المصرية
قصة فتح مصر على يد عمرو بن العاص

عذراء قريش
قصة مقتل الخليفة عثمان بن عفان

١٧ رمضان
قصة مقتل الامام على وفتنة الخوارج

غادة كربلاء
قصة مقتل الامام الحسين وآل البيت

الحجاج بن يوسف
قصة مقتل عبد الله بن الزبير بعد حصار مكة

شارل وعبد الرحمن
قصة فتوحات العرب فى فرنسا

ابو مسلم الخراسانى
قصة قيام الدولة العباسية فى بغداد

الامين والمامون
قصة انتقال الخلافة من الامين لاخيه المامون

عروس فرغانة
قصة الدولة العباسية فى عهد المعتصم

احمد بن طولون
قصة استقلال مصر فى عهد أحمد بن طولون

عبد الرحمن الناصر
قصة العصر الذهبى للعرب فى الاندلس

فتاة القيروان
قصة فتح الفاطميين لمصر على يد القائد جوهر

فتاة غسان (جزءان)
قصة ظهور الاسلام وفتوحاته الاولى

اسير المتمهدى
قصة ثورة عرابى بمصر والمهدى بالسودان

استبداد المماليك
قصة الحرب بين روسيا وتركيا

الانقلاب العثمانى
وصف حالة تركيا فى عهد عبد الحميد

المملوك الشارد
وصف مصر وسوريا فى القرن الماضى

جهاد المحبين
قصة انتصار الحب الصادق برغم كل العقبات

أسرع بالحصول على ماينقصك

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الروايات من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة (وثمن الرواية الواحدة ٧٠ مليما

... ومن روائع القصص

غرام عطيل
تأليف اميل لودفيج
رسول القيصر
تأليف جول فيرن
غادة طيبة
تأليف اجاثا كريستى
روميو وجولييت
تأليف بول ريبو
غادة الكاميليا
تأليف مرسيل موريت
انا كارنينا
تأليف ليو تولستوى
الزنبقة السوداء
تأليف اسكندر دوماس الأب
اغلال الحب
تأليف سومرست موم
قلوب تحترق
تأليف ستيفان زفايج
ملاك الرعب
تأليف ادجار والاس
ذات الرداء الابيض
تأليف ويلكى كولنز
الكونت دي مونت كريستو
تأليف اسكندر دوماس الكبير
البعث
تأليف ليو تولستوى
محمد على الكبير
تأليف لويزا مولباخ
ذو القناع الحديدى (جزءان)
تأليف اسكندر دوماس الكبير
ابنة البخيل
تأليف أونوريه دى بلزاك
مأساة مايرلنج
تأليف بول ريبو
الارض الطيبة
تأليف بيرل بك

غراميات راسبوتين
تأليف شارل بتى
جريمة فى الريف
تأليف أجاثاكريستى
مارى انطوانيت
تأليف ستيفان زفايج
الفارس الخامس
تأليف اسكندر دوماس الكبير
الاب الخالد
تأليف اونوريه دى بلزاك
مغامرات مستر بيكويك
تأليف شارل ديكنز
كاتالينا
تأليف سومرست موم
الفرسان الثلاثة (الجزء الاول)
تأليف اسكندر دوماس الكبير
الفرسان الثلاثة (الجزء الثانى)
تأليف اسكندر دوماس الكبير
زهرة الحب
تأليف اونوريه دى بلزاك
الشقراء البريئة
تأليف ايرلى ستانلى جاردنر
شعب وطاغية
تأليف اسكندر دوماس الكبير
الغانية اللعوب
تأليف ايفان تروجنيف
صراع الحب
تأليف فيدور دستويفسكى
فى مهب الريح
تأليف لين يوتنج
اوليفر تويست
تأليف شارل ديكنز
« الثورة الحمراء »
تأليف اسكندر دوماس الكبير
جريمة فى وادى النيل
تأليف أجاثا كريستى

منها فلاتزال بضع نسخ باقية

ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى [illegible]

www.ibtesama.com/vb Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com/vb
منتديات مجلة الإبتسامة

اشترك فى روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف)

وكلاء روايات الهلال

سوريا ولبنــــان : شركةفرج‌الله للمطبوعات-مركزها الرئيسى بطريق‌الملكى‌المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون٧٨ـ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ - أو باحدى وكالاتهــا فى الجهات الأخرى . (الأعداد ترسل بالطــائرة للشركة وهى تتولى تسليمهــا لحضرات المشــتركين)

العــــراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ـ بغداد

اللاذقيـــــة : السيد نخله سكاف

مكة المـكرمة : السيد هاشم بن‌السيد على نحاس ـ ص.ب٩٧

البحـــــرين : السيد مؤيد احمد المؤيد . مكتبة المؤيد

برقـــــة : السيد محمد على بوقعيقيص ـ بنغازى ص . ب ١٠٤

البــــرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brazil.

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400, Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجـــريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجـــلترا : Arabic Publications Distribution Bureau, 7, Bishopsthorpe Road, Sydenham, London, S.E. 26, England.

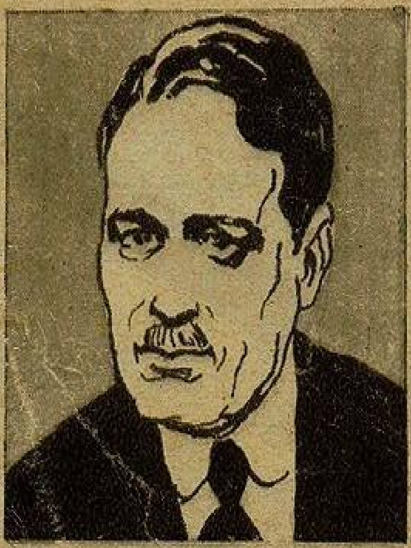
متعهدو توزيع روايات‌الهلال للباعة والمكتبات فى طرابلس‌الغرب
السادة أبناء ابراهيم المشيرقى

متعهدو توزيع روايات الهلال فى سورابايا ـ اندونيسيا
شركة مكتبة سالم بن سعد بن نبهان وأخيه احمد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

www.ibtesama.com/vb

هذه الرواية



تمتاز هذه الرواية عما سبقها من الروايات التاريخية، بأن حوادثها كلها تجرى فوق سطح البحر الأبيض المتوسط، حتى حادثها الغرامى الرائع، لم يجد مسرحاً خيراً من أمواج البحر، ولم يجد مايحرك الأشجان، ويغذى الوجدان أروع من عاصفة من عواصفه، تجمع بين قلبين، وتشد وثاق روحين، وتقذف بهما بعيداً عن حسد الحاسدين، ونقمة الناقمين، وعذل العاذلين!

وهى ـ الى ذلك ـ رواية وطنية شائقة، يبرز فيها حب الوطن، والذود عن حماه، والجهاد فى سبيل حريته واستقلاله، والسعى لخلاصه من ربقة الاحتلال والاستبداد

ومؤلف هذه الرواية «ساباتينى» ايطالى الأم، ولكنه انجليزى الأب، ومع ذلك فقد كان وفياً لوطنه ايطاليا الذى ولد فيه، وتربى بين أكنافه، فكتب فى تاريخه عدة روايات، كانت أروعها «سيف الاسلام». وهى تلك الرواية التى نقدم ترجمتها لقرائنا باسم «قلبان فى عاصفة». وقد تناول فيها المعارك التى وقعت على شواطىء البندقية وشمال افريقية بين خير الدين بربروسا ومساعده ياقوت، والقائدين الايطاليين أندريا دوريا وبروسبيرو أودرنو وما كان للحب والحرب من معارك كان النصر الأعظم فيها للحب، كما هو على الدوام..!!

لقد اشتهر «سباتينى» فى جميع رواياته بروعة الأسلوب القصصى، ووصف الحوادث الجسام فوق ظلمات الأمواج، وبين عواصف البحار، وله غير هذه الرواية «قيصر بورجيا» التى صدرت فى سنة ١٩١٤، و«صقر البحر» التى صدرت فى سنة ١٩١٥، وغيرها..

ولكن رواية «قلبان فى عاصفة» تعد أروع رواياته وأبلغها أسلوباً. ولهذا ستقضى أيها القارىء فى صفحاتها أمتع الأوقات وتجنى أحسن الفوائد

www.ibtesama.com/vb Exclusive

حصريات

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com/vb Exclusive